

مكتبة

CIVILIZATIONS

لوران بيني

LAURENT BINET

حضارات

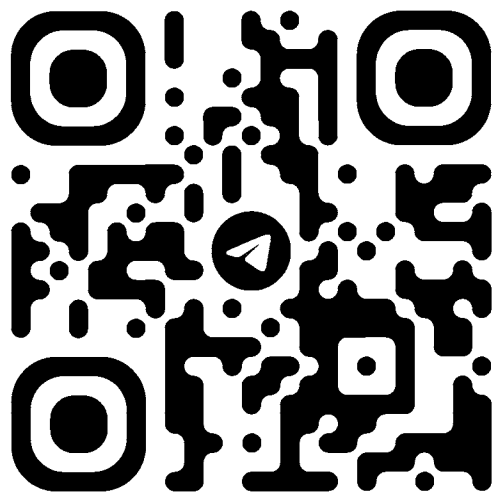
ترجمة: إكرام صغيري



kalemat

إهداء لـ.. مكتبة

تة جزء صغير من حضارة البشرية
تُحفظ فيها للأجيال القادمة



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

حضارات
Civilizations



حضارات

Civilizations

لوران بيني

Laurent Binet

ترجمة: إكرام صغيري

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

DarKalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www.kalemat.com

© Éditions Grasset & Fasquelle, 2019

ردمك: 978-9921-768-55-8

مكتبة

t.me/soramnqraa

حضارات Civilizations

مكتبة

t.me/soramnqraa

لوران بيني

Laurent Binet

ترجمة: إكرام صغيري

2023

///kalemat

ماذا لو مُنح الإنكا الحديد والخيول والأجسام المضادة؟ يروي لوران بيني عن الدافع وراء كتابة روايته «حضارات»، وكان ذلك بعد عودته من معرض ليما الدولي للكتاب عام 2015، ويقول: «في ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئاً عن كيف غزا الإسبان الإنكا»، لكنه انبهر بثقافتهم وعاد إلى معرض الكتاب في عام 2017 لمواصلة بحثه. ولدى عودته إلى باريس، أعطاه أخوه نسخة من كتاب جارد دايموند «أسلحة وجراثيم وفولاذ: مصير المجتمعات البشرية» الذي يحتوي على فصل عن سقوط أتاهاوالبا آخر إمبراطور الإنكا على يد فرانسيسكو بيزارو ورجاله. ويتابع بيني: «يتساءل دايموند في كتابه لماذا جاء بيزارو لإسقاط أتاهاوالبا في بيرو وليس أتاهاوالبا من جاء ليسقط شارلكان في إسبانيا». كانت هذه الجملة حافزاً حقيقياً بالنسبة إليّ، وفكرت: لمَ لا أحكي هذه القصة؟

تندرج رواية لوران بيني ضمن أدب اليوكرونيّا أو التاريخ البديل، وهي محاولة لإعادة صياغة أحداث التاريخ، انطلاقاً من سؤال «ماذا لو؟» واليوكرونيّا (Uchronia) مصطلح جديد، يعود إلى القرن التاسع عشر، على وزن «يتوبيا»، مكون من شقين، «u» للنفي، و«chronos» وتعني الوقت، وتعني الكلمة اصطلاحياً «وقتاً غير محدد»، أو زمناً غير موجود.

أمّا في الأدب، فتشير إلى نوع أدبي يعتمد مبدأ إعادة كتابة التاريخ انطلاقاً من تعديل حدث ما في الماضي. كما يستخدم

مصطلح «التاريخ البديل» أو التاريخ المضاد. وهو أقرب إلى حدّ ما من «الخيال العلمي»، إذ يحاول الكاتب، انطلاقاً من تغيير وضع تاريخي ما، تخيل العواقب المحتملة المترتبة عن ذلك. ومن خلال هذا الحدث المعدّل، يخلق المؤلف ما يشبه تأثير الدومينو، الذي يؤثر في مسار التاريخ.

وتفتح اليوكرونيا الباب على مصراعيه لاستحضار وهمي في زمن العوالم المتوازية، ويمكن اعتبارها حتى كتاب خيال علمي تاريخي! وغني عن القول إنه لا بدّ أن يمتلك الكاتب في مثل هذه النوع الأدبي خلفية مؤرخ جيد عن المرحلة التي تدور فيها أحداث روايته.

في هذه الرواية، يعيد لوران بيني صياغة التاريخ وقلب العوالم، ليصبح العالم القديم جديداً والجديد قديماً، وينطلق من فكرة جوهرية مفادها «ماذا لو لم يحتل الإسبان أمريكا الجنوبية، وبدلاً من ذلك حدث العكس، واحتل شعب الإنكا أوروبا»، ويمنحنا رؤية لوجه العالم بناءً على هذه الفرضية. لكن قبل الانسياق وراء هذه الفرضية، لا بدّ من منح شعب الإنكا الوسائل التي تتيح لهم احتلال العالم: «الحديد، الخيول، والمناعة الذاتية». ولفهم هذه الركائز الثلاث، ينبغي إلقاء نظرة على التاريخ الحقيقي: تاريخ غزو الإسبان أمريكا الجنوبية، وأسباب سقوط هذه الأخيرة.

تعرف الحقبة التي تسبق اكتشاف القارة الأمريكية عام 1492 بـ «التاريخ ما قبل كولمبي»، نسبة إلى كريستوف كولومبوس. وكانت القارة آنذاك تشهد مزيجاً من الإثنيات والثقافات والحضارات. وفي عام 1532، رسا فرانسيسكو بيزارو مع مئة وثمانية وستين

جندياً وسبعة وثلاثين حصاناً، وأربع بنادق، في ميناء تومبيس. ولم يكن لبيزارو أن يواجه هذه الإمبراطورية التي يبلغ عدد سكانها 10 ملايين نسمة بقلّة من الرجال. فاستوطن هناك منتظراً المدد الإسباني من أسطول بقيادة ألماغرو، للهبوط على البر الرئيس. لكن بلغه خبر قلب كل الموازين. فقد علم أن الإمبراطور هوينا كاباك قد مات قبل ثلاث سنوات جراء مرض الجدري الذي جاء به قومه إلى القارة الجديدة.

فيما بعد، سيودي هذا المرض بحياة مئتي ألف ضحية في شمال الإمبراطورية، وفقاً لمؤرخين إسبان. وكان هذا في صالح بيزارو. خصوصاً أن وفاة هوينا كوبياك وابنه الوريث قد أشعلت حرباً على الخلافة بين اثنين من أبنائه: هواسكا وأخيه غير الشقيق أتاهاوالبا دامت ثلاث سنوات. لم يكن بإمكان بيزارو أن يحلم بوضع أكثر مثالية. فطلب من ألماغرو أن يؤخر مغادرة أسطوله من أجل فهم هذه الحرب الأهلية بشكل أفضل. ولمدة عام، في جزيرة بونا، جمع معلومات عن هذا الصراع بين الشمال، معقل أتاهاوالبا (الذي أطلق عليه الإسبان فيما بعد «لقيط كيتو»)، مع الجنوب، الموالي لهواسكار، السيادة الشرعية المنحدرة من نبلاء كوزكو.

أضف إلى ذلك، لم يكن الجدري هو المرض الوحيد «المستورد» إلى هذه المنطقة الجغرافية؛ فقد ظهر التيفوس عام 1546، ثم الأنفلونزا عام 1558. ودون أن ننسى الدفتيريا عام 1614، ثم وصول الحصبة عام 1618... وكثير من الأوبئة التي قضت في أقل من قرن على سكان الأنديز. وقد تكرر السيناريو ذاته بين معظم

الشعوب الأمريكية الأصلية. ففي إمبراطورية الأزتك، تسببت بكتيريا أوروبية (السالمونيلا) في وفاة ما بين 12 إلى 15 مليون من السكان الأصليين بين عامي 1545 و1580. وفي الأراضي التي تغطي فلوريدا حاليًا، أدى جلب حيوانات مثل البقر والخنازير والماعز والخيول وحتى الدواجن إلى ظهور الأمراض المعدية، ومن ثمّ محو قبائل برمتها من الخريطة في القرن السابع عشر. وبناءً على ما سبق، قرر لوران بيني منح شعب الإنكا ما كان يفتقر إليه لغزو العالم القديم/ الجديد: الحديد والخيول والمناعة. ويسهب بينيه في فرضيته حول «ماذا لو؟» انطلاقًا من مطلع الألفية الأولى، مع الساغا النوردية عن فريديس ملكة الفايكنغ، وابنة الملك المستكشف إيريك الأحمر، التي عبرت المحيط مع نذر من قومها هربًا من أخيها وبحثًا عن أرض جديدة خصبة، لترسو في شواطئ أمريكا الجنوبية. وسيكون لهذا التوغل السابق عواقب ستتهز العالم، إذ إنها جلبت معها الحديد والخيول والمرض إلى هذه الأراضي. بعد ذلك، ينتقل بنا الكاتب إلى بعثة كولومبوس الاستكشافية عام 1492. ولكن، في هذا التاريخ البديل، يفشل قائد جنوة ويقع ورجاله أسرى بين يدي التاينو. الآن، في عام 1531، دفعت الحرب الأهلية في إمبراطورية الإنكا الملك أتاهاوالبا نحو الشمال، أولاً إلى كوبا ثم شرقًا عبر «بحر المحيط». ويصل إلى لشبونة برفقة الأميرة الكوبية الداهية هيغويناموتا، و181 من رفاقه الآخرين، و37 حصانًا، وأسلحة من حديد.

ترسو سفينة الإنكا في شواطئ البرتغال، ويصادف هذا زلزال عام 1531 الذي خلف ثلاثين ألف قتيل. ويجد الإنكيون أنفسهم

في قارة تمزقها الخلافات الدينية والأسرية، وتطحنها الحروب، بين ممالك منهكة في حروبها التي لا تنتهي، وفي ظل التهديد المستمر من الأتراك، وبحر مليء بالقراصنة.. أوروبا محاكم التفتيش، وإصلاح لوثر، وولادة الرأسمالية، وأعجوبة الطباعة والأوراق المتكلمة. لكن قبل كل ذلك، ظلم وفقر يجثمان على صدور سكانها الذين كانوا على وشك الانتفاض: يهود طليطلة، وموريسكيو غرناطة، وفلاحو ألمانيا.

وتخدم مجريات الأحداث الإنكا الطموح لإقامة إمبراطورية جديدة على خطى سلفه، مبشراً بدين الشمس. ويجري إصلاحات دينية تحقق لأوروبا السلام الذي لم تذقه من قبل، وإصلاحات زراعية، فتزدهر أراضيها القاحلة بالببطاطس والكينوا والذرة، بينما يحول الذهب والفضة الوفيرة إشبيلية إلى «محور العالم». ويحرص بيني على عدم إضفاء صفة المثالية على أتاواليبا، فهو شخصية طموحة تسعى لإشباع رغباتها السلطوية، وإرساء إمبراطورية جديدة وإعادة مجد أسلافها، تتأثر بالمكيافيلية وتتبنها. ويبدو -من خلال طرح بيني- أن الرواية تكرر لفكرة أن الغزو هو شكل من أشكال الوحشية المتأصلة في الطبيعة البشرية. فعلى الرغم من تصوير الكاتب للإنكا ورجاله على أنهم أكثر إحساناً من نظرائهم الأوروبيين، حتى أن أتاواليبا صار يعرف بـ «حامي الفقراء» بسبب سياساته العادلة، فضلاً عن دهشتهم واستغرابهم من وحشية محاكم التفتيش الإسبانية، إلا أن هذا لا ينفي طقوسهم في تقديم القرابين البشرية.

وقد تساءل بعض النقاد لدى صدور الرواية إن كان بيني ينسب إلى الإنكا شهية الغزو التي كانت صفة أوروبية بشكل فريد. لكن يبدو أن بيني لم يكن مقتنعًا بهذا، إذ يقول: «إن الرغبة في الغزو ليست أوروبية فحسب، بل عالمية»، مشيرًا إلى إمبراطوريتي المغول والأزتيك.

ويرسم بيني ملامح جديدة للعالم في تاريخه البديل، فيصبح العالم الجديد هو العالم القديم -أي إمبراطورية الإنكا، جنبًا إلى جنب مع التاينو والأزتيك-، وهو عالم غني بموارد الذهب والفضة، يُشحن إليه السجناء الأوروبيون عبر المحيط الأطلسي ليكونوا خدماً يعقود في منجم بوتوسي للفضة الضخم الذي كان -في الواقع- بمثابة حكم بالإعدام على الأمريكيين الأصليين الذين أجبرهم الإسبان على العمل هناك. إن عكس الأدوار هنا لا يمحو خطورة المكان الرهيبة، أو الوزن الأخلاقي لإخضاع شخص للعمل حتى الموت.

تعد رواية حضارات رواية عميقة تحث على التفكير وإعادة النظر في التاريخ العالمي، ويظهر فيها بيني الأكاديمي براعته الإبداعية على مستوى عالٍ، ويصوغها على أربعة أنماط كتابية مختلفة: الأول على نمط الملحمة التاريخية (الفايكنغ)، والثاني بأسلوب المذكرات (كريستوفر كولومبوس)، والثالث سرد تاريخي للأخبار (غزو أتاهاوالبا)، أما الرابع فهو معارضة أدبية لمغامرات سرفانتس ومعركة ليبانت، ثم تعرضه للأسر في الجزائر. ويبث فيها واقعية أكثر، فيحاكي رسائل توماس مور وإيراسموس، وأطروحات لوثر الخمس والتسعين؛ كل ذلك بما يتناسب

وصياغته الجديدة للتاريخ. ويكسر كثيراً من الرواية للتفكير في الدين والإصلاح الزراعي وبالطبع الغزو. ويبدو بيني جريئاً في قدرته على طرح مثل هذا التساؤل، ومعرفة إلى أي مدى يمكن اختزال «الغزو» وما يترتب عنه، فيمنح نفسه حرية التخيل، والزج بشخصيات تاريخية في أحداث روايته «المتخيلة»، ويمنح كلاً منها دوراً في عالم جديد مختلف الملامح والقوى والصراعات. إنها رواية تحمل في طياتها شيئاً من السخرية تجاه المسيحية، الكاثوليكية تحديداً، على طريقة مونتسكيو في «الرسائل الفارسية»، وذلك من خلال تصوير الكيفية التي يرى بها هؤلاء الغرباء، القادمون من وراء البحار، أوروبا القرن السادس عشر، في ظل صراعات دينية لا عقلانية، حول طقوس غير مفهومة. ويكشف لوران بيني عن قدرة بارعة في عدم إغفال التفاصيل، تجعله يلم بالنص من كل الجوانب، حتى يكاد يخيل لقارئه أنه أمام نص تاريخي حقيقي.

«يبيع الفن الحياة في ما اغتاله التاريخ».

كارلوس فوينتس

سرفانتس، أو نقد القراءة.

«لأنهم كانوا يعيشون في زعزعة وتشّتت، كان من اليسر غزوهم».

إنكا غارثيلاسو دي لا فيغا،

ملاحظات ملكية حول بيرو الإنكا.

الجزء الأول

ساغا⁽¹⁾ فريديس ابنة إريك الأحمر

(1) هي ملحمة في الثقافة الإسكندنافية والجرمانية عن مغامرات شخصية لأبطال شعبيين من التاريخ أو الأساطير الشعبية مثل رحلات الفايكنغ ومعاركهم.

يُحكى في قديم الزمان عن امرأة تدعى «أود الداهية»، وهي ملكة ابنة ملك. وكان والدها الملك كيتيل ذا الأنف المسطح، وكانت أرملة ملك أيرلندا المحارب أولاف الأبيض. وعلى إثر موت زوجها، انتقلت هذه الملكة إلى جزر الهبريدز، وبعدها إلى إسكتلندا، حيث توجّ ابنها ثورستين الأحمر، ملكاً بدوره، لكنّ الإسكتلنديين غدروا به، وقتل في إحدى المعارك.

عندما بلغ أود خبر مقتل ابنها، أبحرت مع عشرين رجلاً حراً صوب أيسلندا، حيث استعمرت الأراضي الواقعة بين نهر دوغردارا ونهر سكراموهلوبسا.

ورافق أود زمرة من الرجال النبلاء الذين أُسروا خلال رحلات الفايكنغ نحو الغرب، وقد اتخذتهم عبيداً لها.

كان من بين الرجال رجل يدعى ثورفالد، غادر النرويج بسبب جريمة قتل، مع ابنه إريك الأحمر. وكانا مزارعين يعملان في الأرض. وحدث ذات يوم أن قتل إيجولف القذر، أحد أقرباء جار إريك، بعض عبيد إيريك، لأنّهم تسببوا في انهيار أرضي. فما كان من إريك إلّا أن قتل إيجولف القذر. ثمّ قتل هارفن المبارز. فتفّى على إثر ذلك.

بعد ذلك، استقر ثورفالد في جزيرة أوكسني. وفي يوم من الأيام، أعار جاره عوارضه، لكن عندما طالبه بها، رفض هذا

الأخير إعادتها إليه. فتقاتلا، ومات على يده رجال آخرون. فنفاه
ثينغ⁽¹⁾ ثورسن مرة أخرى.

بعد أن فعل فعلته هذه، لم يعد بإمكانه المكوث في أيسلندا
ولا العودة إلى النرويج. فاختار أن يبحر نحو الأرض التي رآها ابن
أولف الغراب ذات يوم حين حاد عن مساره نحو الغرب. وأطلق
على هذه الأرض اسم غرينلاند، أي الأرض الخضراء، بعد أن قدر
أن الاسم الحسن سيستقطب الناس إليها.
وهناك، تزوج ثيودهيلد حفيدة ثوربيورغ «صدر الكنار»، وأنجب
منها عدة أبناء. ولكن، كان لديه أيضًا ابنة من امرأة أخرى، وكان
اسمها فريديس.

2. فريديس

لم يصلنا شيء عن والدة فريديس. لكن فريديس ورثت عن
أبيها إريك، شأنها شأن إخوتها، حب الترحال. فاستقلت القارب
الذي أعاره أخوها غير الشقيق، ليف المحظوظ، لثورفين
كارلسفيني حتى يتمكن من العودة إلى فينلاند.
وأبحروا غربًا. ثم توقفوا في جزيرة ماركلاند، قبل أن يتابعوا
رحلتهم، إلى أن بلغوا جزيرة فينلاند، حيث وجدوا المعسكر الذي
تركه ليف ابن إريك.

(1) ثينغ باللغة الإسكندنافية القديمة والإنجليزية القديمة هو اسم جمعية كانت
تنظم شؤون القبائل الجرمانية.

بدأت لهم البلاد جميلة ومليئة بالغابات، وكانت الغابات على بعد مسافة قصيرة من البحر، مع رمال بيضاء على طول السواحل. كان هناك عديد من الجزر والمياه الضحلة. وكان النهار والليل متساويين أكثر من غرينلاند أو أيسلندا.

لكنهم وجدوا هناك كذلك السكراينغ⁽¹⁾، وهم قوم يشبهون التروال الصغار. ولم يكونوا ذوي قدم واحدة كما قيل عنهم، لكن بشرتهم كانت داكنة وكانوا يحبون الأقمشة ذات اللون الأحمر. فقايض الغرينلانديون أقمشتهم الحمراء بجلود الحيوانات معهم. وكانت بينهم مبادلات أخرى. غير أنه حدث ذات يوم أن فرّ ثور هائج من حظيرة كارلسفيني وأخاف السكراينغ الذين هاجموا المخيم، وكاد رجال كارلسفيني أن يهزموا لولا أن استلت فريديس -التي أثار غضبها رؤيتهم يوّلون- سيفاً لمواجهة المهاجمين، ومزقت ثوبها وضربت صدرها بنصل السيف وهي تشتم السكراينغ. واستبد بها الغضب، فراحات تشتم قومها على جبنهم. حينها شعر الغرينلانديون بالخجل وعادوا للقتال، وذهل السكراينغ لدى رؤية هذا المخلوق الممتلئ فاقدًا أعصابه.

كانت فريديس حُبلى وكان مزاجها مكدرًا. وحدث بينها وبين اثنين من أشقائها ذات مرة خصام، ولأنّها أرادت الاستحواذ على سفينتهما التي كانت أكبر من سفينتهما، أمرت زوجها ثورفارد بقتلهما ورجالهما، فكان لها ذلك. وقتلت هي زوجتيهما بفأس.

(1) السكراينغ: هم جنس من السكان الأصليين صادفه المستوطنون الإسكندنافيون الأوائل إلى غرينلاند، وكثيرًا ما تقابل هذه اللفظة لفظة الإنويت أو الهنود الأمريكيين.

انقضى فصل الشتاء، واقترب الصيف، لكن فريديس لم تجرؤ على العودة إلى غرينلاند، فقد كانت تخشى غضب شقيقها ليف، حين يعلم بما اقترفته من جُرم. في المقابل، كانت تشعر بأنها لم تعد محل ثقة الآن، ولا مُرحباً بها في المعسكر. فما كان منها إلا أن جهزت سفينة شقيقها، وركبتها مع زوجها وقلّة من الرجال، وأخذوا معهم الماشية والخيول. انتاب سكان المستعمرة الصغيرة الذين بقوا في فينلاند شعور بالارتياح لدى مغادرتها. ولكن، قبل أن تبخر مجدّداً، التفتت إليهم وقالت: «أقسم لكم، أنا فريديس ابنة إريك، إنني سأعود».

وأبحروا نحو الجنوب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

3. الجنوب

اتجهت سفينة الكنار ذات الجانبين العريضين نحو السواحل. ولمّا ضربت عاصفة، أخذت فريديس تتضرع للإله ثور، وقد كادت السفينة تتحطم على الصخور. وعلى متنها، هاجت الوحوش المرتعبة وماجت حتى أوشك الرجال أن يتخلصوا منها خشية أن تتقلب عليهم. لكن في النهاية خمد غضب الرب.

استغرقت الرحلة مدة أطول مما توقعوا؛ إذ عجز الطاقم عن إيجاد مكان يرسو به لشدة ارتفاع الأجراف. وحين عثروا أخيراً على شاطئ، رأوا قوماً من السكرايلنغ يتوعدونهم، يلوّحون بأقواسهم، ويقذفونهم بالحجارة. كان الأوان قد فات للتوجه شرقاً ولم ترغب فريديس في العودة. واقتات الرجال على ما اصطادوه من سمك، لكن بعضهم مرض حين شربوا من ماء البحر.

وذاث يوم لم تهب فيه رياح شمالية تتفخ أشرعتهم، أنجبت
فريديس، بين مقاعد المجدفين، طفلاً ميتاً أرادت أن تسميه
إريك تيمناً بجده، وأعادته إلى البحر.
وفي الأخير، عثروا على خليج صغير ليرسوا فيه.

4. أرض الفجر

كانت مياه الخليج ضحلة جداً حتى أنهم كانوا قادرين على
السير على الأقدام إلى الشاطئ الرملي. وكانوا قد جلبوا معهم
كل أنواع الماشية. كانت البلاد جميلة، ولم يعد يشغلهم شيء
سوى استكشافها.

كانت أرضاً من مروج، فسيحة الغابات، وافرة الطرائد، تعج
أنهارها بالأسماك؛ فقررت فريديس ورفاقها أن يخيموا بالقرب
من الساحل، بعيداً عن الرياح. ولم يكونوا في عوز للمؤونة، لذلك
ارتأوا أن يقضوا الشتاء في هذه الأرض، بعد أن بدا لهم أنّ الشتاء
هنا لا بدّ أن يكون أكثر اعتدالاً، أو على الأقل أقصر من الشتاء
في موطنهم. وكان أصغرهم سنّاً قد ولدوا في غرينلاند، فيما
جاء الآخرون من أيسلندا أو النرويج، مثل والد فريديس.

وفي أحد الأيام عثروا، حين توغلوا أكثر في الأراضي، على
حقل مزروع. وكانت صفوف المزروعات مصطفة بدقة، مثل
سنابل شعير صفراء، ذات حبوب رطبة. فعرفوا حينها أنهم ليسوا
وحدهم على هذه الأرض.

وأرادوا أن يزرعوا هم أيضاً شعيراً مثله، لكنهم لم يعرفوا السبيل إلى ذلك.

وبعد بضعة أسابيع، ظهر قوم من السكرايونغ من أعلى التل المطل على مخيمهم. وكانوا ضخاماً شديدي البنية، ذوي بشرة مدهونة بالزيت، ووجوه مطلية بخطوط سوداء طويلة؛ ما أثار الخوف في قلوب الغرينلانديين، لكن هذه المرة لم يجرؤ أحد على التحرك في وجود فريديس خشية أن يُتهم بالجبن. في المقابل، بدا فضول السكرايونغ أكبر من عدائيتهم. وأراد أحد الغرينلانديين أن يبهيم فأساً صغيرة عربون سلام، لكن فريديس منعتهم، وقدمت لهم بدلاً من ذلك عقداً من اللؤلؤ ودبوساً من الحديد. وبدا أن السكرايونغ قد قدروا هذه الهدية أيما تقدير، فراحوا يتناقلونها من يد إلى يد، ويتنازعون حولها. ثم فهمت فريديس ورفاقها أنهم يرغبون في دعوتهم إلى قريتهم. فقبلت فريديس وحدها الدعوة. وبقي زوجها والآخرين في المخيم، ليس خوفاً من المجهول، بل لأنهم كادوا يموتون من قبل في وضع مماثل. وهكذا، عيّنوا فريديس مبعوثاً لهم، فضحكت لأنها فهمت أن لا أحد منهم يتحلّى بالشجاعة الكافية لمرافقتها. ومرة أخرى، شتمتهم، لكن هذه المرة لم يخلّف الشعور بالخجل أي أثر في نفوسهم. لذا، تبعت بمفردها السكرايونغ، الذين لطحوا بشرتها البيضاء وشعرها الأحمر بدهن الدب، ثم توغلوا معها في المستنقعات على متن قارب منحوت من جذع شجرة. وكان على هذه القوارب تسعة عشر شخصاً، فقد كانت أشجار هذه الأرض بالغة الضخامة. وهكذا، توارى القارب عن الأنظار واختفت فريديس مع السكرايونغ.

انتظروا عودتها لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، لكن لم يقدم أحدٌ على الذهاب في إثرها. حتى زوجها ثورفارد لم يكن ليجرؤ على خوض مغامرة في هذه المستنقعات.

ثم، في اليوم الرابع، عادت برفقة رئيس السكرايلنغ الذي كان يرتدي حلياً ذات ألوان زاهية حول عنقه وفي أذنيه. وكان شعره طويلاً لكنه مخلوق من جانب واحد، وبالكاد يمكن للمرء أن يتخيل بنية جسدية أكثر قوة من بنيته.

أخبرت فريديس رفاقها أنهم في أرض الفجر، وأن هؤلاء السكرايلنغ يُدعون شعب النور الأول، وهم في حرب مع شعب آخر يعيش في الغرب. وكانت فريديس ترى أنه ينبغي لهم مساعدتهم. وعندما سألوها كيف فهمت لغتهم، أجابت ضاحكة: «حسناً، قد أكون أنا الأخرى ساحرة؟»

استدعت الرجل الذي أراد أن يمنح فأسه إلى السكرايلنغ، وهذه المرة، جعلته يسلمها للسايشم (هكذا كانوا يدعون رؤساءهم) الذي يرافقها. وبعد تسعة أشهر، وضعت مولودة أسمتها غودريد، على اسم زوجة أخيها السابقة، زوجة كارلسيفني، أرملة ثورستين ابن إريك، التي كانت تكرهها دائماً (ولكن لا داعي للحديث عن أشخاص لن يكون لهم دور في هذه الساعا).

انتقلت المستعمرة الصغيرة لتستقر بالقرب من قرية السكرايلينغ، ولم تكتفِ الفرقتان بالعيش معاً في سلام فحسب، بل تعاونتا فيما بينهما. فعلم الغرينلانديون السكرايلنغ سبل استخراج الحديد من الخث وتحويله إلى فؤوس أو رماح أو رؤوس سهام. وهكذا، اكتسب السكرايلنغ القدرة على التسلح لمواجهة

أعدائهم. وفي المقابل، علموا الغرينلانديين سبل زراعة الشعير الرطب بغرس الحبّ في أكوام صغيرة من التراب، بجانب الفاصولياء والقرع للالتفاف حول السيقان الطويلة. ومكّنهم هذا من تخزين الطعام لفصل الشتاء، حين تقلّ الطرائد. ولم يرغب الغرينلانديون في شيء أكثر من البقاء في هذا البلد. وعربوناً للصدّاقة، قدموا للسكرالينغ بقرة.

بعد مدة من الزمن، تفشى المرض بين السكرالينغ. وأصابته الحمى واحداً منهم فمات. ثمّ لم يمضِ وقت طويل حتى بدأ الموت يحصد النفس تلو نفس. فانتاب الغرينلانديين الخوف وأرادوا المغادرة، لكن فريديس اعترضت. ومع أنّ مرافقيها حذروها من أن الوباء سيصل إليهم عاجلاً أم آجلاً، فإنّها رفضت التخلي عن القرية التي أقاموها، متذرة بأن هذه الأرض أرض خصبة، وربّما لن يصادفوا قوم سكرالينغ آخرين ودودين، يرضون بالمقايضة معهم.

غير أنّ المرض طال السايشم ذا البنية القوية أيضاً. فلدى عودته إلى منزله، الذي كان مجردّ قبة مثبتة بأعمدة مقوسة ومغطاة بشرائط من اللحاء، رأى جثّاً مجهولة ملقاةً عند العتبة، وما يشبه الموجة العملاقة تجرف قريته وقرية الغرينلانديين. وعندما تبددت تلك الرؤية، استلقى وقد ركبته الحمى، وأرسل في طلب فريديس. وحين أتت ووقفت عند سريره، همس في أذنها ببضع كلمات، كانت الوحيدة التي سمعتها. ثمّ أعلن بصوت يسمعه الجميع أن طوبى للذين هم في منازلهم في كل مكان على وجه الأرض، وأنّ هبة الحديد التي وهبها الرحالة لشعبه

لن تنسى. ثم حدثها عن وضعها، وأخبرها بأنه سيكون لها شأن عظيم جدًا، وكذلك طفلتها. ثم أغمي عليه. فضلت فريديس تراقبه طوال الليل، لكن في الصباح كان جسده باردًا. فعادت إلى رفاقها وقالت: «هلموا، الآن علينا حمل الماشية إلى الكنار».

5. كوبا

ظلّ حلم السفر إلى الجنوب يراود فريديس. فأبحروا على طول الساحل لأسابيع، لكن سرعان ما نفذ زادهم على متن السفينة، ولم يعد بمقدورهم سوى الاعتماد على صيد الأسماك ومياه الأمطار. غير أنّه كلّما لاحت لهم أرض واعدة، كانت فريديس ترفض أن يرسوا عندها. في البداية، تملل أفراد طاقمها، ثمّ تملكهم الارتياح، ليستولي عليهم الغضب في النهاية. لكن فريديس ردت عليهم قائلة: «أتريدون المخاطرة بحياتكم ثانية؟ أتريدون أن يرميكم أحد أحاديي الساق بسهم يخترق بطونكم؟ (كانت هذه الطريقة التي قُتل بها أخوها غير الشقيق، ثورفالد ابن إريك، وكانت تعلم أن الجميع لا يزال يذكر هذه الحادثة المروعة) سنواصل رحلتنا حتى نهايتها أو سنموت في البحر، سواء أكانت هذه نزوة نيورد أم كانت رغبة هيل». لكن لا أحد يعرف عن أي نهاية كانت فريديس تتحدث.

وأخيرًا، تبدّت لهم يابسة قد تكون جزيرة. وشعرت فريديس بأنّها لن تكون قادرة على احتواء نفاد صبر رفاقها، فوافقت على أن يرسوا عندها.

وغلّت سفينة الكنار نهرًا بديعًا، كانت مياهه شديدة الصفاء،
يمتدّ على طول الساحل وصولاً إلى الشاطئ.

لم ترَ أعينهم أرضًا بمثل هذا الجمال من قبل. اصطفت على
ضفة النهر أشجار خضراء وافرة، لكل منها زهرها وثمارها.
وكانت ثمارها حلوة المذاق. وتناهت إلى مسامعهم أصوات طيور
وعصافير تزقزق بهدوء شديد. وكانت الأشجار ذات ورق كبير
يكفي لتغطية أسقف البيوت. وكانت الأرض منبسطة جدًا.

قفزت فريديس إلى الشاطئ. واتجهت صوب منازل ظنت أنها
بيوت لصيادين، لكن سكانها فروا خوفًا. وعثرت في واحد من
هذه البيوت على كلب لم ينبح.

أنزل الغرينلانديون ماشيتهم، وعاد هؤلاء السكرايلنغ للظهور،
بعد أن أثارت الخيول فضولهم. كانوا عراة وقصار القامة،
لكنهم ذوو بنية جسدية قوية؛ وكانت بشرتهم داكنة وشعرهم
أسود. تقدمت فريديس نحوهم، ظنًا منها أن بإمكان امرأة حبلَى
استمالتهم. ثمّ عرضت عليهم أن يركب واحد منهم حصانًا وأخذته
حول القرية، تسير بجانبه، واللجام في يدها. كان القوم سعداء
جدًا وقد عجبوا ممّا رأوا. وقدموا الطعام لضيوفهم ورحبوا بهم
في بيوتهم. كما عرضوا عليهم أوراقًا ملفوفة أحرقوها ووضعوها
في أفواههم لاستنشاق الدخان.

وهكذا، استقرت فريديس ورفقاؤها معهم، وأصبحت قرية
السكرايلنغ قريتهم. بنوا بيوتًا على طريقة مضيفيهم، مستديرة
ومغطاة بالقش. كما بنوا معبدًا للإله ثور بأعمدة وعوارض
خشبية. وعلمهم السكرايلنغ كيف يستخرجون المياه من الجوز

الكبير الذي ينمو على أشجار ذات أوراق كبيرة، لأنّ ماءها كان عذبًا. وعلموهم أسماء الأشياء: فكان اسم الشعير اللين في لغتهم «مايس»⁽¹⁾. كما علموهم كيف ينامون على الشباك المعلقة بين شجرتين، وتعرف باسم الهاماك. كان طقس البلاد شديد الحرارة على مدار العام، حتى أنهم لم يعرفوا الثلج قط. وكان هذا هو المكان الذي وضعت فيه فريديس مولودها. وكان زوجها ثورفارد يحسن معاملة غودريد كأنها ابنته، الأمر الذي أثار في فريديس. وبدأت تنظر إلى ثورفارد بنظرة أقل قسوة مما كانت عليه من قبل.

أجاد السكرالينغ ركوب الخيل وطرق الحديد. وتعلم الغرينلانديون أسماء الحيوانات والرمي بالنشاب. كانت هناك السلاحف وجميع أنواع الثعابين، وكذلك السحالي ذات الحراشف الصلبة والفكين الطويلين. وفي السماء كانت تطير نسور ذات رؤوس حمراء.

امتزج القومان وانصهرا ووُلد أطفال، بعضهم ذو شعر أسود، وبعضهم الآخر ذو شعر أشقر أو أحمر. وفهموا لغتي آبائهم. ولكن مرة أخرى، أصابت الحمى أفرادًا من السكرالينغ وأتت عليهم. فأدرك الغرينلانديون حين لم يُصبهم ما أصاب مضيفيهم، أن ليس لديهم ما يخشونه من هذا المرض، لكنهم هم من جلبوه معهم. لقد فهموا أنهم كانوا هم المرض في حد ذاته. وحضر رجال الشمال قبورًا للموتى نحتوا عليها حروفًا رونية. وصلّوا

(1) ويقصد به الذرة، وهي اللفظة التي استعارتها اللغة الفرنسية (Maïs).

لثور وأودين. ومع ذلك، ما فتئ المرض يفتك بالسكرايلنغ. وظنّ الغرينلانديون أنّهم إن ظلّوا هنا، فسيهلك مضيفوهم عن بكرة أبيهم، وسيظلّون وحدهم. فأخذتهم الشفقة، وقرروا المغادرة على مضض. ففكّكوا معبد ثور لأخذه معهم، لكنهم تركوا للسكرايلنغ بعض البهائم هدية وداع.

بعد مغادرتهم، لم تتوقّف الحمى. واستمر الموت يحصد أرواح السكرايلنغ، حتّى أوشكوا أن ينقرضوا. وانتشر الناجون منهم مع بهائمهم في باقي أنحاء الجزيرة.

6. مدينة تشيتشن إيتزا

أمّا فريديس، فقد اتجهت الآن غرباً، على طول الساحل، برفقة ابنتها غودريد، وزوجها ثورفارد ورفاقهم. وحالما علموا أن الأرض التي تركوها خلفهم كانت حقاً جزيرة، أرادت فريديس، كعادتها، أن ييمّموا وجههم شطر الجنوب. لكن رفاقها رفضوا الإبحار يوماً آخر دون أن يعرفوا إلى أين هم ذاهبون، فاقترحت فريديس أن يقذفوا عوارض معبد ثور الخشبية في البحر، لترشدهم إلى الطريق التي ينبغي أن يسلكوها. واقترحت أن يرسوا حيث يلقي ثور بالعوارض. وما إن قذفوها من السفينة، انجرفت العوارض نحو أقصى اليابسة الغربية، وبدا لمن كانوا على متن السفينة أنها تتحرك ببطءٍ أقلّ ممّا هو متوقّع. بعد ذلك هب نسيم البحر، فأبحروا غرباً قبالة رأس جزيرة أطلقوا عليها اسم جزيرة النساء، حتّى بلغوا أرضاً شاسعة حسبوا أنّها البر الرئيسي، ثمّ دخلوا

زقاقًا بحريًا. ولاحظوا أنه كان واسعًا وطويلاً بشكل مفرط، تحده على الضفتين جبال شاهقة. فأطلقت فريديس على هذا الزقاق البحري اسم ابنتها. وبعد ذلك، حين راحوا يستكشفون المنطقة وجدوا أن ثورَ قد ألقى بالعوارض إلى اليابسة في سِناخ شمال الخليج.

كان ثمة نهر ضحل استطاعت سفينة الكنار ولوجه بفضل غاطسها الصغير. فصعدوا النهر إلى أن بلغوا قرية. كان الوقت متأخرًا، ولأن الشمس كانت توشك أن تغرب، قادت فريديس قومها إلى الشاطئ الرملي على الضفة المقابلة. وفي اليوم الموالي، جاء عدد من السكرايونغ بالقوارب. وجلبوا لهم دجاجات حمراء الرأس وقليلًا من الذرة، لكن بالكاد كانت تكفي وجبة غداء واحدة لبضعة رجال، وطلبوا منهم أن يأخذوا الطعام ويرحلوا. لكنَّ الغرينلانديين كانوا يرغبون في البقاء هذه المرة لأن ثورَ هو من حدّد لهم هذا المكان. لذلك عاد السكرايونغ في زي الحرب، مسلحين بالنشاب والسهام والحراب والدروع. واختار الغرينلانديون، الذين أنهكهم الفرار، القتال. لكن سرعان ما تمكّن منهم لفييف من السكرايونغ الذين أصابوا عشرة منهم بجروح، وساقوهم جميعًا للأسر.

ولولا أن طرأ حادث غير متوقع أمام أعينهم، لكانوا ذبحوهم على الفور. إذ وقع أحد الغرينلانديين، الذين كانوا يقاتلون، عن صهوة حصانه، ما أثار الرعب لدى السكرايونغ الذين راحوا يصرخون. وقد كانوا يحسبون أن الفارس وفرسه كائن واحد. وبعد التشاور فيما بينهم صفوا الغرينلانديين وربطوهم معًا واقتادوهم وماشيتههم وأسلحتهم.

عبروا الغابات والمستنقعات في حرّ قائلين ورطوبة عالية أحس فيها الشماليون بأنّهم يذوبون مثل الثلج في النار، إلى أن انتهوا إلى مدينة لم يروا لها نظيراً من قبل. كان فيها معابد حجرية وأهرامات شاهقة وتماثيل لمحاربين مصطفة كأعمدة، ورؤوس أفاع مهيبة منحوتة، ذكرتهم بمقدمة الكنار والسفن الطويلة، إلّا أنّها ثعابين بريش.

سيقوا إلى ميدان على شكل حرف H، كانت تقام فيه لعبة من ألعاب الكرة. فكان يشغل الملعب فريقان متنافسان، يقف كل منها في نصف الملعب الخاص به، ثمّ يرسل كل فريق لخصمه كرة كبيرة مصنوعة من مادة غريبة، مرنة وصلبة في آن واحد، كانت ترتد عالياً. وكان الهدف من اللعبة -على حد فهمهم- هو إعادة إرسال الكرة إلى جهة الخصم دون أن تلامس الأرض، ودون استخدام اليدين والقدمين، بل فقط الوركين أو المرفقين أو الركبتين أو الأرداف أو الساعدين. وقد علّقت حلقتان حجريتان على جداري الحفرة، عند تقاطع نصفي الميدان، لكن حتى ذلك الحين لم يفهم الغرينلانديون فائدة الحلقتين بعد. وسمحت المدرجات لجمهور كبير بمتابعة اللعبة. وفي نهاية المباراة، قدّم بعض اللاعبين قرباناً وقطعت رؤوسهم.

ألقي باثني عشر فرداً من الغرينلانديين، بمن فيهم فريديس وزوجها ثورفارد، في الحفرة. وفي الطرف الآخر من الميدان، كان ثمة اثنا عشر لاعباً من السكرالينغ، يرتدون فقط واقيات الركب والأكواع. بدأت المباراة وظلت الكرة تسقط في ملعب الغرينلانديين، الذين لم يسبق لهم أن لعبوا هذا اللعبة، دون أن

يتمكنوا من إعادتها، وإن فعلوا، فدائمًا ما يرتكبون أخطاء لعدم احترامهم قواعد اللعبة التي لا علم لهم بها. وتمكّن الخوف منهم أكثر فأكثر، وقد أدركوا أنّهم سيُقدّمون قربانًا إذا ما انهزموا. لكن، بغتةً اصطدمت الكرة بإحدى الحلقتين الحجريتين، لكنها لم تعبر داخلها؛ ما أثار همهمة وسط الجمهور. فحثّت فريديس أعضاء فريقها على التصويب نحو الحلقة. وحالف الحظ ثورفارد، زوجها، حين سدد تسديدة بركبته، ارتفعت بها الكرة في الهواء، صانعةً قوسًا رائعًا لتعبر الحلقة، تحت صخب الجمهور الغاضب. عقب ذلك مباشرة، انتهت المباراة وأعلن فوز الغرينلانديين. وقُطع رأس قائد الفريق المنافس. لكن لم يكن الغرينلانديون على دراية بأنّه في بعض الحالات الاستثنائية يُعدم أفضل لاعب في الفريق الفائز، وهو ما كان يُعدّ شرفًا عظيمًا. وهكذا، قطع رأس ثورفارد، زوج فريديس، أمام أعين زوجته وابنته وربيبته، غودريد، التي راحت تبكي بين ذراعي والدتها. عندها قالت فريديس لرفاقها: «إنّنا تحت رحمة سكرابلنغ أكثر شراسة من الترول، وإن أردنا البقاء على قيد الحياة فينبغي أن ننال رضاهم بتنفيذ كل ما يطلبونه منا». ثمّ أنشدت:

وفي أرض الجنوب تنأى لي

هنا لاقى ثورفارد مقتله

تقسو السماء، عليّ، ويصطفي

أودنٌ عاجلاً حامياً معقله

وارتفعت أغنيتها في الفضاء، أمام دهشة السكرايلنغ، قبل أن
تقع أخيراً مثل السهم:

لا تحسبن هذا الذي بي حق
أتحرّى من هذا الزمان أفضله

ألقي جثمان ثورفارد بشكل احتفالي في بحيرة في قاع هوة.
ونجا بقية الغرينلانديين، لكنهم اتُّخذوا في البداية عبيداً. فعمل
بعضهم في مناجم الملح المكشوفة أو مزارع القطن الذي سبق
أن رأوه لدى السويديين الذين جلبوه من ميكلاغارد⁽¹⁾، وكانت هذه
أكثر الأعمال مشقّة، فيما عمل آخرون خدماً أو أوكلت إليهم
طقوس تكريم آلهة السكرايلنغ العديدة، وعلى رأسهم كوكولكلان؛
الثعبان ذو الريش، وتشاك إله المطر.

ذات يوم، اقتربت فريديس من تمثال رجل مستقلّ، مرتكز على
مرفقيه، وركبته متشيتان، وعلى رأسه تاج. فشرح لها بالإشارات
السيد السكرايلنغ الذي وُضعت في خدمته أنه تمثال تشاك، إله
المطر. حينها ذهب لجلب مطرقة ووضعها على بطن التمثال.
وأخبرت السيد بأنها تعرف هذا الإله باسم ثور. وبعد أيام قليلة
ضربت المدينة عاصفة رعدية شديدة، أخرجت البلاد من مدة
طويلة من الجفاف.

وفي مرة أخرى، كانت ابنة فريديس، غودريد، تلعب بلعبة من
ألعاب السكرايلنغ مزودة بعجلات صغيرة. فتعجبت فريديس أنّه

(1) الاسم الذي كان يطلقه الفايكنغ على القسطنطينية.

-بصرف النظر عن هذه اللعبة- لم يكن لدى السكرايلنغ عربية ولا محراث. لكنهم لم يروا الهدف من مثل هذه المركبات الكبيرة، إذ لا يمكن جرها أو دفعها بأذرع بشرية لأنها ثقيلة. لذا طلبت فريديس من رفاقها بناء عربية، وأن يأتوا بفرس ويربطوها بها. كان السكرايلنغ سعداء جداً بهذا الاكتشاف، لكنهم كانوا أكثر سعادة عندما أدركوا أن المحراث المجهز بسكة من حديد ويسحبها حصان أو ثور يمكن أن يسهل الحرث ويزيد من زراعة القطن. وبهذا ساهمت فريديس في ازدهار المدينة التي كانت تقايض القطن مع المدن المجاورة بالذرة أو الأحجار الكريمة.

وامتثاناً منهم، منحوا فريديس ورفقاءها الحق في شرب الشوكولاتة، وهو مشروب رغوي يحظى بتقدير كبير ولكن فريديس لم تستغ طعمه المرّ.

وهكذا، لم يعد الغرينلانديون عبيداً وأصبحوا يعاملون معاملة الضيف. وسُمح لهم بمشاهدة مباريات الكرة والمشاركة في الاحتفالات المقامة حول الآبار المقدسة. وعلمهم السكرايلنغ علم النجوم وأساسيات كتابتهم التي كانت رسوماتها مشابهة للكتابة الرونية ولكنها أكثر تفصيلاً.

وتوهموا لبعض الوقت أن ابنة لوكي⁽¹⁾ قد نسيت أمرهم أخيراً. لكن هيل لم تكن غافلة إلى هذا الحد. ووقع أول السكرايلنغ طريح الفراش. فسقوهم كثيراً من شراب الشوكولاتة، لكن في النهاية، قضى جميعهم نحبه. فأدركت فريديس أنهم سيخمنون،

(1) هيل ابنة لوكي هي إلهة الموت في الميثولوجيا النوردية.

عاجلاً أم آجلاً، أنّ الغرياء هم من جلب لهم المرض. فسارعت إلى ترتيب هروب جماعتها. وفي ليلة غير مقمرة، غادروا المدينة مع ماشيتهم وانطلقوا نحو الساحل للالتحاق بسفينتهم. كانت الفرس التي تجر العربة حُبلى فأبطأتهم، لكنهم لم يرغبوا في التخلي عنها. وفي الصباح، بلغت مسامعهم ضوضاء في المدينة، فعلموا أن السكرايلنغ سيرسلون مجموعة في أثرهم. فسارعوا بأقصى ما في وسعهم، وكانت سفينة الكنار حيث تركوها.

غير أنّ أفراداً من سكرايلنغ قرية مجاورة قد لاحظوا عودتهم إلى الشاطئ، فعزموا على إيقافهم، وصعد الغرينلانديون على متن السفينة بأسرع ما في وسعهم. ومع ذلك، كانت الفرس الحبلية تتقدم على الشاطئ بمشقة خلفهم، وقد صعد الجميع على متن الكنار، ولم يكن ينقص سواها. في هذه الأثناء، ظهر السكرايلنغ، وركضوا لملاحقتها وهم يصيحون صيحات الحرب. وحثّها الغرينلانديون على التقدم، إذ لم يكن أمامها سوى بضع خطوات لبلوغ السفينة، رغم أنّها كانت مجهدّة. لكن، اضطرت السفينة التي ظلت تنتظر حتى آخر لحظة، إلى الإبحار حتى يمنعوا المهاجمين من الصعود إليها. ورأى الغرينلانديون السكرايلنغ يمسكون بالفرس من عنقها، كما كانوا قد شاهدوهم يفعلون من قبل.

واتجهوا جنوباً دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة.

من يدري كم فرسخًا قطعته سفينة الكنار؟ جَدَّف الغرينلانديون مطأطئي الرؤوس حين هاجت البحار، وتعذر عليهم رفع الأشرعة خشية الانقلاب. تلت الأيام الليالي. ولم يكن يشير إلى وجود حياة على متن هذه السفينة سوى أصوات الماشية ونحيب الرضع.

رست السفينة تحت أمطار غزيرة. كانوا غُبرًا، شُعثًا، يتضوَّرون جوعًا. وقد امتدت قبالتهم أرض مخضرة، لكنهم شعروا بأنها أرض تكنّ العداء رغم خضرتها. كان ثمة طيور كثيرة من جميع الأنواع تحلق في السماء. فقتلوا عديدًا منها بأقواسهم. لكنّ معظمهم لم يرغب في أن يجازف باستكشاف المكان مخافة أن يجدوا فيه أفرادًا آخرين من السكرابلنغ، أشرس ممن صادفهم في السابق. وعلى العكس من ذلك، ارتأوا التزود بالمؤن والإبحار نحو الشمال، بعد التخييم مدة كافية لاستعادة قوتهم، للعودة إلى ديارهم. وعارضت فريديس هذا بشدة، فقال لها أحد مرافقيها: «جميعنا يعلم سبب رفضك العودة إلى غرينلاند. إنك تخشين أن يعاقبك أخوك ليف على الجرائم التي ارتكبتها في فينلاند. يمكنني أن أعدك بأن يلتزم جميعنا الصمت، ولكن إذا اكتشف ليف ما فعلته، فسيتعين عليك الخضوع لحكم أخيك أو حكم الشينغ».

لزمت فريديس الصمت. ولكن في الصباح، وجد رفاقها سفينة الكنار مقلوبة على جانبها، وتغمر المياه نصفها، فأصابهم الإحباط. ولم يجرؤ أحد على اتهامها صراحة بإغراق سفينتهم،

ولكن الجميع كان يظنّ ذلك. ومع ذلك، خاطبتهم قائلة: «كما ترون، لقد قُطعت علينا طريق البحر. ولن يعود أي منا إلى غرينلاند. هذا الاسم الذي أطلقه والدي على هذا البلد الذي اكتشفه، ليجذب به الأيسلنديين من أمثالكم لتعزيز مستعمرته. في الحقيقة، لم تكن الأرض خضراء، بل كانت بيضاء معظم أوقات السنة. ولم تكن تلك الأرض التي يزعم أنّها خضراء مضيافة كما هو الحال هنا. انظروا إلى هذه الطيور في السماء. انظروا إلى هذه الثمار في الأشجار. هنا لا نحتاج إلى تغطية أنفسنا بجلود الوحوش أو إيقاد النار لتدفئة أنفسنا أو الاختباء من الرياح في منازل الجليد. سوف نستكشف هذه الأرض حتى نجد أفضل موقع لإقامة مستعمرة خاصة بنا. لأنّ هذه هي الغرينلاند الحقيقية. هنا سنكمل ما بدأه إريك الأحمر».

حينها هتف بعضهم لفريديس، فيما ظل الآخرون صامتين ومنهكين، لأنّهم كانوا خائفين ممّا تخبئه لهم هذه الأرض.

8. لامبايكة

عبروا مستنقعاتٍ، وغاباتٍ كثيفة ومتشابكة مثل خيوط الصوف، وجبالاً مغطاة بالثلوج. وذاقوا البرد مرة أخرى، لكن لا أحد يعترض على أوامر فريديس، كما لو أن فقدان السفينة، قد انتزع منهم كل أمل في العودة، وكسر إرادتهم.

وبين الفينة والأخرى، صادفوا سكرابيلنغ جاؤوا ليقايسوا معهم حليّ الذهب أو النحاس بمسامير الحديد أو أوعية الحليب الطازج.

ثمّ اكتشفوا بحرًا في الغرب. فصنعوا طوافات. وكلما توغلوا في الساحل جنوبًا، عُرِضَتْ عليهم حُلِيٌّ متقنة الصنع. وفي إحدى المرات، عرض أحد السكرايونغ على غودريد أقراطًا تمثل كاهنًا يحمل رأسًا مقطوعًا، فأعجبت بها والدتها أيّما إعجاب. وارتأت فريديس أنّه من الجيد الاستقرار بين شعب من الصائغين. فضلًا عن ذلك، كان هؤلاء السكرايونغ يزرعون حقولًا على مد البصر، وتعتبر قنوات المياه السهول. وعلمت أنّ هذا البلد يدعى لامبايكة. تلقى السكرايونغ الحديد والدوّاب كهدايا من العناية الإلهية. ورأوا في هؤلاء الزوار رسلاً من إلههم نايلامب. فكّرّموا فريديس ونصبوها كاهنة كبرى، وألبسوها الذهب ومنحوها سلطة عظيمة. وقدّم لها مضيفوها القرايين، سجناء ذبحوهم بسكاكينهم الشعائرية التي نُحِتَتْ مقابضها في شكل تمثال نايلامب، ونصل على شكل نصف قمر. لقد كان شعبًا من الحرفيين المهرة في صناعات المعادن. وبعد مدة وجيزة من وصول الغرينلانديين، صنعوا مطارق من الحديد من كل الأحجام. وفتنتهم فريديس بشعرها الأحمر.

ولأنّها تعرف ما سيحدث، فقد تنبأت بأنّ يحل بهم المرض. ولذلك، حين أُصيبوا فعلاً وبدؤوا يموتون، ارتفعت مكانتها. فحشّتهم على التضحية بمزيد من السجناء وتكثيف الحصاد. وحظي الغرينلانديون بفضل مواشيهم ومعرفتهم بالحديد، بمكانة متميزة بين هذا الشعب. بالإضافة إلى ذلك، تأكد السكرايونغ، حين رأوهم بمعزل عن المرض، أنّهم كانوا من أصل إلهي. ثمّ حدث أنّ أصيب أحد السكرايونغ بالحمى ونجا وتعافى.

وأعقبه آخر وتدرجياً، فقد الشر الذي جاء به الغرياء قوته . فعلم الغرينلانديون أنّ رحلتهم قد بلغت نهايتها .

9. وفاة فريديس

مرت السنوات دون شتاء . وتعلم الغرينلانديون حفر القنوات وزراعة خُضر غير معروفة: حمراء، وصفراء، وأرجوانية، بعضها رطب، وبعضها طحيني . وأصبحت فريديس ملكة، وتزوجت سيّد بلدة قريبة تدعى كاجاماركا، وأقيمت مأدبة باذخة لتوثيق هذا التحالف . فأغدقت الآخا (جعة مصنوعة من الذرة) وقُدّم السمك المشوي، ولحم الألبكة (ضرب من الأغنام النحيلة)، والكايياء المشوية (حيوانات أشبه بالأرانب بآذان صغيرة)، وكان لحمها طرياً ولذيذاً .

أنجبت فريديس عديداً من الأطفال وماتت مكلّلة بالشرف عندهم . فدفنوها مع خدمها وحليّها وأوانيها، يطوّق جبينها تاج ذهبي، ويغطي صدرها عقد من ثمانية عشر صفّاً من اللؤلؤ الأحمر . وفي إحدى يديها، تمسك مطرقة حديدية، وفي اليد الأخرى خنجر على شكل نصف القمر .

كبرت غودريد، ولم ترث شعر والدتها الأحمر، لكنّها احتلت مثلها مكانة رفيعة بين أهل لامبايكة . لذلك، عندما اجتاحت العواصف الشديدة المنطقة، وكان الجميع يتحسر على المحاصيل المفقودة والحقول التي غمرتها الفيضانات، كانت هي من أقنع السكرالينغ أنّ ثورَ أراد أن يخبرهم بشيء ما . فلم تشك لحظة

في أنّه ينبغي لهم المغادرة، وكابنة أمها، قادت صوب الجنوب عددًا كبيرًا من السكرايلنغ والغرينلانديين الذين أصبحوا الآن شعبًا واحدًا. ويقال إنّهم وجدوا بحيرة كبيرة، لكن هذه الملحمة لا تروي أكثر من ذلك، فلا أحد يعرف على وجه اليقين ما حدث بعد ذلك.

الجزء الثاني
مذكرات كريستوف كولومبوس
(شذرات)

الجمعة 3 أغسطس:

غادرنا يوم الجمعة 3 أغسطس، من عام 1492، عند الساعة الثامنة صباحاً، من مرفأ جزيرة شلطيث. وأبحرنا ستين ميلاً، أي خمسة عشر فرسخاً، نحو الجنوب حتى مغرب الشمس، تعصف بنا ريح عاتية. ثم اتجهنا نحو الجنوب الغربي، ثم إلى الربع الجنوبي من الجنوب الغربي، وهي الطريق المؤدية إلى جزر الكناري.

الاثنين 17 سبتمبر:

آمل أن يهبنا العليّ، الذي بيده النصر وحده، يابسةً تلوح لنا في أقرب الآجال.

الأربعاء 19 سبتمبر:

الطقس معتدل، وبمشيئة الرب، سيظهر كل شيء في طريق العودة.

الثلاثاء 2 أكتوبر:

لا يزال البحر هادئاً ورائقاً. فحمدًا للرب حمداً كثيراً.

الاثنين 8 أكتوبر:

حمدًا للرب، فالجو لطيف جداً، مثل جو إشبيلية في شهر أبريل، وما دامت الرائحة عبقّة فيسعدني أن أكون هنا.

الثلاثاء 9 أكتوبر:

طوال الليل، كنّا نسمع أصوات الطيور وهي تحلق فوقنا.

الخميس 11 أكتوبر:

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لاحت لنا اليااسة، على بعد فرسخين.

الجمعة 12 أكتوبر؛

وصلنا إلى جزيرة صغيرة تسمى غواناهاني في لغة الهنود. ثمّ جاء أشخاص عراة، فغادرتُ السفينة نحو الشاطئ، مع قبطان سفينة بينتا، مارتين ألونسو بينزون، وشقيقه فيسينتي يانيز، قبطان سفينة نينيا.

عند وصولي إلى الشاطئ، استحوذت باسم جلالتكم على الجزيرة المذكورة.

سرعان ما تجمع القوم من أهل الجزيرة. ولكي أمد أواصر الصداقة بيننا، ودراية منّي أنهم قوم يمكن استمالتهم بالمودة لاعتناق إيماننا المقدس أكثر من إجبارهم بالقوة، منحت بعضهم بعض القبعات الحمراء وقليلًا من الخرز الزجاجي الذي علقوه حول أعناقهم، وأشياء أخرى عديدة قليلة القيمة التي أسرّتهم كثيرًا؛ فخضعوا لنا وكان عجبًا رؤية هذا.

وبدا لي أنّهم قوم محرومون من كلّ شيء، فقد كانوا يسيرون عراة، كما ولدتهم أمهاتهم، وكذلك كانت نساؤهم.

وبمشيئة الرب، سأجلب إلى جلالتكم معي، حين أغادر، ستة منهم، حتى يتمكنوا من تعلم الكلام. ولم أر أي وحش من أي نوع على هذه الجزيرة باستثناء البغاوات.

السبت 13 أكتوبر؛

مع طلوع الفجر، وفد إلى الشاطئ كثيرٌ من هؤلاء القوم، كلّهم شباب وسيمون. لقد كانوا أناسًا ذوي جمال بارع. ولم يكن شعرهم مجعدًا، بل أملس وطويلاً مثل شعر الحصان.

وقدموا إلى سفينتنا في قواربهم الكبيرة المصنوعة من جذع شجرة بالكامل، حتّى أنّ بعضها كان يحمل أربعين رجلاً. لقد منحوا كل شيء مقابل أي شيء عرضناه عليهم. وكنت حريصاً كل الحرص على معرفة إن كان ثمّة ذهب في هذه الجزيرة. وبفضل الإشارات، استطعت أن أفهم أنّ في الجنوب كثيراً من الذهب.

لذلك عزمت على الذهاب إلى الجنوب الغربي للبحث عن الذهب والأحجار الكريمة...

الجمعة 19 أكتوبر؛

كلّ ما أرجوه هو أن أرى وأكتشف قدر ما أستطيع لأعود إلى جلالتك في أبريل بإذن الرب.

الأحد 21 أكتوبر؛

تحجب أسراب الببغاوات الشمس. أريد أن أغادر إلى جزيرة أخرى، كبيرة جداً، التي لا بدّ أن تكون جيبانغو⁽¹⁾ إذا صدّقت إشارات الهنود الذين سأخذهم معي، ويطلقون عليها اسم كولبا (Colba).

الثلاثاء 23 أكتوبر؛

أود اليوم المغادرة نحو جزيرة كوبا التي أعتقد أنّها جيبانغو، بحسب الأوصاف التي قدمها هؤلاء القوم حول حجمها وثرواتها. لا أريد المكوث هنا طويلاً لأنّني أرى أنّه لا يوجد منجم ذهب هنا.

(1) جيبانغو هو الاسم الذي كان يطلقه الأوروبيون في القرون الوسطى على اليابان.

الأربعاء 24 أكتوبر:

في منتصف تلك الليلة، رفعتُ مرساة السفينة للإبحار نحو جزيرة كوبا التي كانت، بحسب ما بلغني من الهنود، مترامية الأطراف، وتزدهر فيها التجارة، ويكثر فيها الذهب والتوابل، وتتردد عليها السفن الكبرى والتجار. لذا، أعتقد أنه إذا كان الأمر كما أشار إليه الهنود -لأنني لا أفهم لغتهم- فهي بالفعل جزيرة جيبانغو التي تُروى عنها مثل هذه الأشياء الرائعة، والتي تقع في هذه الأجزاء حسب الرسومات وخرائط العالم التي شاهدها.

الأحد 28 أكتوبر:

هنا العشب طويل كما في الأندلس في شهر أبريل. في رأيي هذه الجزيرة هي أجمل ما رآته العين على الإطلاق، مليئة بالجمال البديعة والشاهقة، وإن لم تكن مترامية. فضلاً عن ذلك، كان ارتفاع الأرض في مثل ارتفاع صقلية.

يقول الهنود إن في هذه الجزيرة مناجم ذهب ولآلئ. في الواقع، رأيت مكاناً موثّقاً لتشكّل اللآلئ، وأصدافاً تدل على وجودها. وأعتقد أنني فهمت أن سفناً كبيرة تابعة للخان العظيم تأتي إلى هنا، وأنّ اليابسة تقع على بعد عشرة أيام من الإبحار.

الاثنين 29 أكتوبر:

لتقصي خبرها، أرسلت قاربين إلى إحدى قراها. ففر جميع رجال القرية ونسائهم وأطفالهم، تاركين بيوتهم بكل ما فيها. وقد أمرت رجالي أن لا يلمسوا أي شيء. كانت البيوت تشبه الخيام العسكرية، لكنّها واسعة كالأجنحة الملكية. ولم تكن منتظمة في أزقة، بل كانت متفرقة بشكل عشوائي. كانت هذه البيوت نظيفة

من الداخل، وأثاثها مرتب بعناية. وكان جميعها مبنياً من سعف نخيل بديع، ما عدا بيت واحد مفرط الطول بسقف من الطين مغطى بالعشب. ووجدنا فيه عديداً من التماثيل على هيئة نساء وكثيراً من الرؤوس أشبه بأقنعة متقنة الصنع. ولا أدري إن كانت هذه الأغراض للزينة أم هي تماثيل يعبدونها. كما كان في هذه البيوت كلاب لا تتبع أبداً وطيور برية صغيرة مروضة.

لا بد من وجود بعض الماشية هنا، لأنني رأيت بعض هياكل رؤوس عظمية بدت لي أشبه برؤوس الأبقار.

الأحد 4 نوفمبر:

إن أهل هذا البلد قومٌ مسالمون، جبناء، عراة كما سبق أن ذكرت، بلا أسلحة ولا قوانين. والأرض هنا شديدة الخصوبة.

الاثنين 5 نوفمبر:

عند الفجر، أمرت بسحب السفينة إلى الشاطئ، ثم المراكب الأخرى، ولكن ليس جميعها في آن واحد، فقد أبقيت على اثنين منها في المرسى، لأسباب تتعلق بالسلامة، على الرغم من أن هؤلاء الأشخاص موثوقون تماماً ويمكننا، دون خوف، إرساء كل القوارب.

الاثنين 12 نوفمبر:

بالأمس، دنا ستة شبان على متن قارب إلى السفينة. وصعد خمسة منهم على متنها، فأمرت باحتجازهم لأخذهم معي. ثم أرسلت رجالاً إلى بيتٍ على الضفة الغربية للنهر، ليحضروا لي ست نساء كبيرات وشابات، وثلاثة أطفال. وقد فعلت هذا، لأن الرجال سيحسنون التصرف في إسبانيا، حين تكون نساء من

بلادهم برفقتهم، أفضل ممّا لو كانوا وحدهم.

في تلك الليلة، جاء رجل إلى سفينتي، كان زوج واحدة من النساء وأبًا لثلاثة من الأطفال: ولد وبنتين. وطلب مني أن أسمع له بأن يأتي معهم. فأسعدني هذا كثيرًا. وانشرحت صدور جميعهم، فخلصت إلى أن بينهم جميعًا قرابة. وكان الرجل يبلغ من العمر الأربعين أو الخمسة والأربعين.

الجمعة 16 نوفمبر:

اصطاد الهنود الذين أخذتهم معي أصدافًا كبيرة. لذلك طلبت من رجالي الغطس لمعرفة إن كان هناك أي محار من ذلك الذي يتشكل بداخله اللؤلؤ، فعثروا على كثير منه، لكن لم يكن هناك لآلئ.

السبت 17 نوفمبر:

فرّ الولدان الأكبر من بين الأولاد الستة الذين أخذتهم من نهر البحار من سفينة نينيا التي كانا على متنها.

الأحد 18 نوفمبر:

خرجت مرة أخرى مرفقًا بالزوارق، وعديد من الرجال للذهاب ونصب الصليب العظيم، الذي أمرت بصنعه من قطعتين من الخشب، في مكان بارز خالٍ من الأشجار. فنصب عاليًا وكان منظره يسر الناظرين.

الثلاثاء 20 نوفمبر:

لا أريد أن يفرّ الهنود الذين أخذتهم من غواناهاني، لأنني في أمس الحاجة إلى هؤلاء الرجال لنقلهم إلى قشتالة. وهم مقتنعون أنه بمجرد العثور على الذهب، سأسمح لهم بالعودة إلى أرضهم.

الأربعاء 21 نوفمبر:

في ذلك اليوم، ابتعد مارتين أونسو بينزون بسفينة بينتا، دون أمر مني ورغمًا عن مشيئتي، بدافع الجشع، ظنًا منه أنّ الهندي الذي أرسلته إلى مركبته سيرشده إلى مكان الذهب. وهكذا غادر دون انتظار، ودون أن يثنيه عن ذلك سوء الطقس، ولكن لأنه أراد ذلك.

لقد أساء إليّ قولاً ولفظاً في كثير من المرات.

الجمعة 23 نوفمبر:

أبحرنا طوال اليوم نحو اليابسة، دائماً باتجاه الجنوب، مع هبوب ريح خفيفة. وخلف هذا الرأس كانت هناك أرض أخرى يقول الهنود إنّ فيها أناساً بعين واحدة في جباههم، وآخرين من أكلة لحوم البشر، كانوا يخشونهم كثيراً.

الأحد 25 نوفمبر:

قبل شروق الشمس، ركبت زورقاً واتجهت لاستكشاف رأس أرض، بعد أن بدا لي أنّه لا بد من وجود أنهار وافرة هناك. وتراءى لي، بالقرب من نتوء الرأس، على مرمى قوسين، جدول كبير تتساقط مياهه الصافية من أعلى جبل. فتوجهت نحوه، وهناك رأيت بعض الحجارة المتألّثة تعلوها بقع ذهبية. ثمّ تذكرت أنّه قد عُثر على الذهب عند مصب نهر تاجه، بالقرب من البحر، وبدا لي بلا شك أنّه لا بد من وجود بعض الذهب هنا. فأمرت باختيار عديد من هذه الأحجار لجلبها إلى جلالتك. وحين أجلت ناظري في الجبال، رأيت أشجار صنوبر، باسقة، وبديعة، حتى أنّني أعجز عن وصف مدى ارتفاعها، فقد كانت تشبه المغازل

الضخمة والرفيعة. ويبدو لي أنه يمكننا أن نصنع منها ما لا يحصى من الألواح والصواري لأكبر السفن في إسبانيا. فضلاً عن ذلك، توجد هنا أشجار البلوط والفراولة، ونهر وافر ومكان لتركيب مناشير مائية.

ورأيت على الشاطئ كثيراً من الأحجار ذات اللون الحديدي، وأخرى قيل إنها جاءت من مناجم الفضة، وقد حملها النهر جميعاً إلى هنا.

لن يصدق المرء ما رأيته هنا، ما لم يره بأم عينه، وأؤكد لجلالتكم أنني لا أبالغ أدنى مبالغة.

كنت أبحر دائماً على طول الساحل، كي أرى كل شيء. وقد كانت هذه الأرض برمتها جبلاً باسقة وبديعة، لا هي بالقاحلة ولا هي بالصخرية، ولا هي بالمنيعه، تتخللها وديان مذهلة. وعلى غرار الجبال، تمتلئ الوديان أيضاً بالأشجار الباسقة والفضة التي تبعث رؤيتها في النفس السرور.

الثلاثاء 27 نوفمبر؛

رأيت على الجانب الجنوبي ميناءً عجيباً يسميه الهنود باراكوا، ورأيت على الجانب الجنوبي الشرقي أراضي رائعة الجمال، وسهولاً متموجة بين هذه الجبال. وأبصرت دخاناً كثيفاً يتصاعد وقرى كبيرة وأراضي مزروعة. فقررت النزول عند هذا الميناء وأرى إن كان بإمكاننا التحدث مع السكان المحليين. بعد أن رست السفينة، قفزت إلى زورق لاستكشاف الميناء ووجدت مصب نهر واسعاً بما يكفي لعبور قادس. وفيما كنا نعبّر هذا المصب، ظننت أنني لن أرغب مطلقاً في الرحيل من هنا لفرط جمال الأشجار وصفاء المياه والطيور وحلاوة المكان.

سيستنى لجلالتكم بناء المدن والحصون في هذه البلدان،
وسيعتق الناس هنا المسيحية.

أرى أنه هنا، كما هي الحال في جميع الأماكن التي اكتشفتها
والتي آمل أن أكتشفها قبل عودتي إلى قشتالة، سيجني العالم
المسيحي برمته أرباحًا كثيرة، لا سيما إسبانيا التي لا بد أن
يخضع لها الجميع.

الأربعاء 28 نوفمبر؛

قررت البقاء في الميناء لأنّ السماء كانت ملبدة بالغيوم وتمطر.
نزل رجال من الطاقم إلى الشاطئ وتوغل بعضهم في الأراضي
لغسل ملابسهم، فوجدوا قرى كبيرة، لكنّ البيوت كانت خاوية
من سكانها الذين فروا. وعادوا من الضفة المقابلة للنهر، لكن
أحد فتیان الطاقم فقد، ولا أحد يعرف ما الذي حدث له. ربما
اختطفه تمساح أو سحلية من النوع الذي يعيش في الجزيرة.

الخميس 29 نوفمبر؛

لم أغادر الميناء، فالسما لا تزال تمطر والجو غائم.

الجمعة 30 نوفمبر؛

لم نستطع المغادرة لأنّ الريح التي كانت تهب من المشرق
كانت معاكسة لنا.

السبت 1 ديسمبر؛

إنّها تمطر بغزارة ولا تزال الرياح الشرقية تهب.

أمرت بنصب صليب عند مدخل الميناء، على الصخور العارية.

الأحد 2 ديسمبر؛

لا تزال الريح تهب معاكسة لاتجاهنا ولا يمكننا المغادرة. عند مصب
النهر، عثر أحد الفتیان على حجارة بدت أنها تحتوي على ذهب.

الاثنين 3 ديسمبر:

لأنّ الطقس لم يحالفنا بعد، فقد عازمت على الذهاب لرؤية رأس يابسة بديع. وأبحرت في قوارب برفقة بعض الرجال المسلحين. ودلفت نهرًا، فوجدت خليجًا صغيرًا به خمسة قوارب كبيرة جدًا يسميها الهنود «كانوا». ثمّ سرنا تحت بعض الأشجار واتخذنا طريقًا يفضي إلى مرفأ حسن البناء. وكان في هذا المرفأ كانوا آخر، مصنوع من جذع شجرة واحدة على غرار البقية، وأكبر من الفست ذي السبعة عشر مقعدًا. وكان ثمّة كير لاستخراج الحديد من الخث، وعند أسفل التور توجد سلال تحتوي على نصال رماح وخطافات.

ثمّ صعدنا جبلًا ذا قمة منبسطة توجد بها قرية. وما إن لمحني أهلها مع رجالي هبّوا بالفرار. ولعدم وجود ذهب أو أي شيء آخر ذي قيمة لديهم، ارتأيت أن أعود أدراجي.

لكن عند عودتنا إلى حيث تركنا قواربنا، فوجئنا باختفائها، وكذلك الكانوا. وقد بُهتُ من هذا الفعل لأن الناس هنا لم يعتادوا على إتيان فعل متهور كهذا. بل على العكس من ذلك، لطالما كانوا خائفين ومرتعبين، حتى أنّهم كانوا يفرون دائمًا لدى وصولنا أو لدى اقترابنا منهم، وكانوا يقدمون لنا ممتلكاتهم طواعية مقابل بعض الأجراس. وقد بدا لي أنّهم لا يعرفون معنى التملك، وغير قادرين على الانغماس في السرقة، لأنّه حين تطلب منهم غرضًا يمتلكونه، فإنهم لا يرفضون أبدًا منحه.

في ذلك الحين، ظهر الهنود. كانوا جميعهم مصبوغين باللون الأحمر وعراة كما ولدتهم أمهاتهم، يضع بعضهم ريشة على رأسه،

وبيد كل واحد منهم حزمة من الرماح. كانوا على مسافة منّا، لكنهم راحوا من وقت إلى آخر يرفعون أيديهم إلى السماء، وهم يصرخون. فسألتهم بالإشارات إذا كانوا يُصلون، فردوا بالنفي. وأخبرتهم بأن عليهم إعادة القوارب إلينا. لكن يبدو أنّ هؤلاء الهنود لم يفهموا. فسألتهم أين قواربهم، على أمل أخذها للخروج من النهر والوصول إلى السفينة.

عندها حدث أمر غريب، حيث مرّق صوت صهيل الفضاء، ففرّ الهنود.

حينها أرسلت أربعة من رجالي للعثور على بقية أفراد الطاقم وتحذيرهم من هذا الحادث. لكن من جهتي، قررت السير مع الأشخاص الذين بقوا معي في الاتجاه الذي جاء منه صوت الصهيل.

خرجنا إلى فسحة غابية بدت لي أنّها مقبرة، لأنّها كانت مليئة بالحجارة المنتصبة، عليها نقوش مكتوبة بأبجدية غير معروفة، تتكون من خطوط مثل العصي الصغيرة، بعضها عمودي وبعضها الآخر مائل.

مع اقتراب حلول الظلام، أمرت رجالي أن يقيموا مخيمًا، لأنّه كان من الخطر أن نعود أدراجنا سيرًا على الأقدام في الظلام، لا سيما بعد أن جئنا في الزوارق ولم يكن معنا خيول. كما أنّي اعتبرت أنّه من الحكمة أكثر أن نعسكر في العراء دون إيقاد النار. لذلك رقدت أنا ورجالي وسط القبور دون أن نعاني البرد لأن الأرض كانت أكثر اعتدالاً من أي وقت مضى.

طوال الليل، كنا نستمع إلى أصوات الصهيل التي تمزق الفضاء.

الثلاثاء 4 ديسمبر:

حين طلع النهار، غرزت صليباً بين الحجارة، صنعته من خشب ليّن يشبه خشب الدردار. وأراد رجالي التتقيب تحت الشواهد لمعرفة إن كان هناك أي ذهب، لكنني ارتأيت أنه من الحكمة العودة إلى السفينة على الفور.

سرت على طول النهر مع رجالي، لكن الطريق كان شديد الانحدار وفي بعض الأماكن كان علينا أن نخوض في الماء حتى الخصر للالتفاف حول الغطاء النباتي الذي كان كثيفاً جداً. كانت النسور حمراء الرأس تحلق فوق رؤوسنا. واستمر صدى الصهيل يتردد خلفنا؛ ما أثار أعصاب رجالي لأنه ذكرهم بأننا بلا خيول في حين نحن في أمس حاجة إليها. فحاولت إلهاءهم بالإشارة إلى الحصى المتلألئة في الماء، وأخبرتهم أنه لا ريب في أن هذا النهر يحمل الذهب، وهو ما أكاد أكون مقتنعاً به. وقد قطعت على نفسي عهداً أن أعود للتحقق من هذا لأجل جلالتك.

لكن بينما كنا نكابد للتقدم، إذ بسهم يصيب أحد رجالي فيرديه قتيلاً. وجفل رجالي، فاضطرت إلى استخدام سلطتي لبث الهدوء بينهم. وأنبّهك من هذا، إذ إنّه لا أسوأ من جبان لا يخاطر بحياته حين ملاقة العدو، ستعلم أنه إذا انفرد الهنود برجلٍ أو اثنين من رجالنا، فلا غرو إن قتلوهما. كان للسهم رأس حديدي. بعد ذلك، كنّا متيقظين، وأمرت الجميع بتغطية رؤوسهم بالخوذات وأن يتحقق كل واحد بنفسه من ربط أربطة درعه بإحكام.

الأربعاء 5 ديسمبر:

رحنا نتقدّم بحذر، إذ لم أرغب في خوض أي مخاطر، وشققنا طريقنا عبر ما يسميه السكان الأصليون هنا المانغروف، وهي نوع من الشجيرات التي تنمو في الماء. (على الأقل هذا ما علمته من هندي أخذته من جزيرة غواناهاني، الذي علمناه اللغة القشتالية حتى يتمكن من العمل ترجماناً لدينا، إذ يبدو أن الجميع يتحدث ويفهم اللغة ذاتها). كنّا نتقدّم بعناء بسبب الوحل، لكنّا لم نشهد أي حادث آخر. ورأينا النهر يحمل جثة رجل يرتدي الزي المسيحي دون أن نتمكن من بلوغها، فتركناها تتجرف مع التيار.

في الغد، بعناية الرب الذي عينه لا تنام، سنصل إلى المرفأ الذي تركنا فيه سفينة نينيا، وجميع أفراد الطاقم الآخرين. ومع ذلك، لا يزال صوت الصهيل يتردد.

الخميس 6 ديسمبر:

انطلقنا قبل شروق الشمس لأنّ الرجال كانوا متوترين وقد نفذ صبرهم. وحين وصلنا إلى الشاطئ، كان كل شيء هادئاً، وكانت رياح برية خفيفة تهب فوق الخليج، والنسور حمراء الرأس تحلّق في السماء، ولم يتوقف الصهيل بعد.

كانت السفينة لا تزال راسية لكن سفينة نينيا قد اختفت. استطعنا أن نرى هندياً يركب الكانوا، وكان عجباً أن استطاع الصمود على الماء، لأن الرياح كانت تهب بشدّة. نادينا له لكنه امتنع عن الاقتراب، ولم يكن لدينا أي وسيلة توصلنا إليه دون زوارقنا. ثمّ أرسلت رجلين للذهاب سباحة إلى السفينة. لكن،

لم يكد الرجلان يسبحان ثلث المسافة التي تفصل الشاطئ عن السفينة، حتى أنزلت القوارب في البحر، وكانت هذه القوارب هي تلك التي أخذت منا. ورأينا أنّ بعض الهنود كانوا على متن السفينة، الذين بدوا لي أكثر يقظة وفهمًا من بين كلّ أولئك الذين قابلتهم حتى الآن. وعرضوا علينا بالإشارات إعادتنا إلى سفينتنا. فركبت أحد القوارب مع رجالي. وكان لدى هؤلاء الهنود فؤوس ذات شفرات حديدية.

حين صعدنا على متن السفينة، كان في استقبالنا هندي كان الآخرون يدعونه بـ «الكاسيك»، الذي بدا لي أنّه حاكم هذه المقاطعة، بالنظر إلى الاحترام الذي يظهره له قومه، على الرغم من كونه عاريًا تمامًا. والغريب أنّني لم أعثر لطاقي على أي أثر. ودعاني الكاسيك للعشاء في سطح مؤخرة السفينة. وحين هممت بالجلوس على الطاولة حيث أتناول الطعام عادة، لوح بيده لرجاله ليقفوا في الخارج، فاستجابوا بكثير من العجلة والإذعان. وذهبوا جميعًا للجلوس على سطح السفينة، باستثناء رجلين في منتصف العمر، بدا لي أنهما مستشاراه، جلسا عند قدميه. وقدموا لي طعامًا من تحضيرهم، كما لو كنت ضيفهم على سفينتي الخاصة. عجبت من هذه الحال، لكنني لم أبدِ ذلك، حرصًا على تمثيل جلالتكم بنبل. وتذوقت من كل طبق لتكريم مضيفي، وشربت بعض النبيذ الذي أخذه من مخزوني. كنت أحاول أن أعرف أين ذهب بقية أفراد طاقي ولماذا عادت سفينة نينيا إلى البحر. لم يتكلم الكاسيك كثيرًا، لكن مستشاريه أكدا لي أنهما سيأخذاني غدًا إلى المركب. هذا على الأقل ما فهمته، فمن المؤسف أننا

ما زلنا لا نفهم لغتهم بعد. ثم سألته كذلك إن كانا يعرفان أماكن الذهب، لأنني لا أظن أنهم يجمعون كثيرًا من هذا المعدن هنا، على الرغم من أنني أعلم أنهم قريبون من الأراضي التي فيها وفرة منه. فحدثاني عن ملك عظيم يُدعى كاهونابوا في جزيرة قريبة أعتقد أنها هي جزيرة جيبانغو.

انتبعت إلى أن السجف الذي كان على سريري قد أعجبه، فوهبته إياه، بالإضافة إلى عقد كهرماني جميل جدًا كنت أرتديه حول عنقي، وزوج من الأحذية الحمراء وقارورة من ماء زهر البرتقال. وكان سعيدًا بها غاية السعادة، حتى أنه كان مبهجًا رؤية ذلك. ووجد هو ومستشاراه صعوبة بالغة في فهمي ولم أفهمهم بدوري. ومع ذلك، كنت أعلم أنهم كانوا يخبرونني أنه غدًا يمكنني العثور على رجالي وقاربي.

ثم قال لمستشاريه «أي سيّد عظيم هذا (يقصد جلالتكُم) ليرسلني إلى غاية هذا المكان بلا خوف». وتبادلوا كثيرًا من الكلام الذي لم أستطع فهمه، لكنني لاحظت أنه لا يزال يبتسم. وحين تأخر الوقت، انسحب مع رجاله، وأخذ الهدايا التي قدمتها له، وسمح لي بالنوم في سريري.

الجمعة 7 ديسمبر:

وشاء ربنا، نور أولئك الذين يسيرون على الطريق المستقيم وقوتهم، أن يختبر خادمه المؤمن وخادم جلالتكُم. مع شروق الشمس، عاد الهندي برفقة سبعين رجلًا. وعرض، من خلال الإشارات، اصطحابنا إلى سفينة نينيا. وبينما كان يشير بإصبعه إلى الشرق، أبحرت مع طاقمي الصغير على طول

الساحل في ذلك الاتجاه، بصحبة عدد من الكانوا. وراح الهنود الذين صعدوا على متن السفينة يراقبوننا بصمت، لكن يمكنني القول إنهم أعجبوا بالطريقة التي كنّا ندير بها سفينة أكبر ممّا سبق أن رأوه على الإطلاق، على الرغم من قلّة عددنا. فضلاً عن أنّهم كانوا يجهلون أنه بإمكان هذه السفينة أن تقطع في يوم واحد مسافة أكبر ممّا يمكنهم قطعه في سبعة أيّام. أمّا أنا فلم يساورني أيّ شك حينها في خداعهم.

قادنا الكاسيك إلى قرية بجوار البحر، على بعد ستة عشر ميلاً، حيث وجدنا مرسى مناسباً، فألقينا بالمرساة قبالة الشاطئ المجاور. وعجبت ورجالي حين رأينا هناك سفينة نينيا وقد سُحبت إلى الشاطئ. لكن حين أردنا الهبوط إلى الشاطئ للذهاب إلى السفينة، رفض الكاسيك وقومه تماماً مغادرة السفينة الشراعية. وحرصاً مني على عدم إضاعة الوقت في جدال لا طائل من ورائه، اخترت ترك ثلاثة رجال هناك للتأكد من أن الهنود لن يسرقوا أو يفسدوا أي شيء على متنها.

ما إن هبطنا على الشاطئ، حتى التحق بنا خمسمئة رجل، عراة، أجسادهم مصبوغة، ومسلحين بالفؤوس والرماح. لم يكن يبدو أنّ هؤلاء الهنود يتصرفون مثل الآخرين الذين كان يدفعهم الفضول والرغبة في استبدال أجراس ببضائعهم، بل انتشروا حولنا وطوّقونا بقدر من النظام مثل كتيبة من المرتزقة. فكان البحر من خلفنا، وقوارب الكانوا تقطع الطريق المؤدي إلى السفينة، والسفينة نفسها في أيدي الكاسيك ورجاله الذين تركناهم على متنها.

ظهر هنود آخرون، يمتطون خيولاً بلا سروج، مسلحين بالحرايب، يحيطون بملك يركب حصاناً بسرّج ذهبي وهيئة جليلة بما لا يدع الشك لأحد في منزلة راكمه.

يُطلق على هذا الملك، المكلّل بالهبة التي أضافتها خبرة السنوات إلى سلطته الطبيعية، اسم بيهيشيو ويدعي أنّه مرتبط بالملك العظيم كاهونابوا الذي يتحدث عنه الجميع. (أعتقد أنه الخان العظيم).

لم أشأ أن أظهر أي ارتباك أو ضعف، وإن كنّا حينها في وضع لا نحسد عليه. فتقدمت إلى الأمام، وخاطبت الملك، وأشارت إليه بأعظم العبارات أنني أرسلت من قبل ملوك أقوى مملكة على وجه الأرض، من وراء المحيط، التي ينبغي أن يدين لها بالولاء، لينعم بحمايتها وتسامحها. لكنني أعتقد أن الهندي الذي رافقني ليكون ترجماناً لي قد أخبره كيف جاء المسيحيون من السماء وأنهم كانوا يبحثون عن الذهب، وكان هذا هو الخطاب الذي ظلّ يردّده على مسامع كل من نلتقيهم، ولعدم قدرته على التخلي عن هذا الاعتقاد الذي خدمنا حتى ذلك الحين.

ثمّ سألت عن رجالي. وبإشارة من الملك جيء بطاقي (بيد أنني لاحظت أن عددهم قد نقص)، وطاقم سفينة نينيا، وكان جميعهم في حالة يرثى لها. كنت مُغتاضاً جداً من تعرض المسيحيين لسوء معاملة جليّ، وهددت بيهيشيو وتوعدته بالانتقام، وأكدت له أن أسيادي لن يقبلوا بمثل هذه الإهانة. ولا أدري ما الذي فهمه الملك لكنّه رد عليّ برفع صوته. وإذا صدقت ترجماني، فقد ألقى باللوم على المسيحيين في أخذ عديد من الهنود بغير

رضاهم، واقتلاعهم من عائلاتهم وإساءة معاملة زوجاتهم.

فأكدت له أننا أخذناهم من أجل خلاصهم وأننا حاولنا قدر الإمكان عدم فصل العائلات، وأنه إذا كان المسيحيون قد أساءوا إلى النساء في هذا البلد، فقد كان ذلك بغير موافقة مني ولا بدّ من معاقبتهم. عند هذه الكلمات التي لا أعرف كيف نقلها ترجمان، ولا كيف فهمها بهيشيو، الذي أمر بأخذ كل المسيحيين الذين كانوا في الأسر، أولئك الذين كانوا على متن سفينة نينيا والذين لم يكونوا معي في السفينة الشراعية. فقيّدوهم أمام الجميع. وفي وسط ساحة القرية، وأمام الجميع، ربطوهم بأعمدة نصبت خصيصاً لهذا، وصلموا آذانهم.

لقد شاهدت، عاجزاً، هذا التعذيب القاسي، وقد فاقنا الهنود عدداً وعدة حتّى أننا لو أقدمنا على فعل أي شيء فسنذبح لا محالة.

وفي الأخير، أشار لنا بهيشيو بالمغادرة، أنا والمجموعة التي جئت معها. فأجبت بهلجة شديدة بأننا لن نترك أبداً مسيحيين في مثل هذا الوضع السيئ بين أيدي وثنين جاهلين بمعنى الخلاص والثالوث المقدس. فوافق على فك قيود إخواننا التعساء، لكن عندما أردنا استعادة قواربنا، اعترض الحراس طريقنا إلى البحر ومنعونا من الالتحاق بالسفينة الموجودة على الشاطئ. وأشار لي بالعودة إلى السماء من حيث أتينا، ولسنا بحاجة إلى سفينة. وهكذا لم يكن لدينا خيار سوى التوغل في الغابة مع جرحانا، محرومين من خيولنا.

وكنّا تسعة وثلاثين رجلاً.

لقد وضعنا الرب، الذي تجلت حكمته ورحمته، في هذا الامتحان لكنه لم يتخلَّ عنا.

ظللنا نتجوّل طويلاً في الغابة، ووجدنا قرى أخرى، وقد هجر أغلبها هؤلاء الهنود الجبناء، الذين لم يكونوا يواجهوننا إلا بدافع الخوف الشديد. ولأجل خلاصنا، كان ثمة كثير من الطعام الذي تركوه خلفهم، وكذلك البيوت المستديرة التي عالجنّا فيها جرحانا.

كان قبطان سفينة نينيا، فيسينتي يانيز، يعاني بشدة التهاباً في أذنيه، هو وجميع المصابين المنكّل بهم، وقد تحولت جروحهم إلى اللون الأسود ومات بعضهم.

وكان قد بلغهم أنّ بهيشيو قد جاء من بلد كاهونابوا نفسه، وأنّ السكان هم من استدعوه لطردها. ولا أعرف لم يكرهونا، فنحن لم نرتكب أيّ خطأ تجاههم، وقد حرصت دائماً على حسن معاملتهم.

استولى الهنود الذين أخذوا القوارب منّا على السفينة بهجوم مباغت، فقتلوا بعضاً من أفراد الطاقم وأسروا البعض الآخر. ولم يصل الرجال الأربعة الذين أرسلتهم لتحذير من في السفينة قط. وقد أكد لي أولئك الذين نجوا من الهجوم على السفينة أنّ الهنود الذين غلبوهم كانوا مدجّجين بالسلاح.

ولمّا رأى هذا قبطان سفينة نينيا، التي كانت محاطة بمجموعة من زوارق الكانوا، فرّ خوفاً من أن يصعدوا إلى سفينته، ووجد ملاذاً في الميناء الذي أخذنا إليه الكاسيك بعد ذلك، لكنّ

القرويين غدروا به هناك. ومن كان ليشك أن يأتي أناس عراة
بمثل هذه الخديعة؟

الآن أمرت ببناء برج وحصن وخندق مائي كبير بعناية فائقة.
وراح فيسنتي يانيز وآخرون يتباكون ويقولون إننا لن نرى إسبانيا
مرة أخرى في حياتنا. لكن، على العكس من ذلك، إذا تمكنا من
استعادة قواتنا واسترجاع أسلحتنا، فأنا على يقين من أنه مع ما
تبقى لي من رجال ودعم مارتين ألونسو بينزون، إذا ما تنازل هذا
الأخير وتذكر الطاعة التي يدين بها لي وعاد من فراره، ولولا
جيش بيهيشو هذا لكنت أخضعت هذه الجزيرة برمتها لسلطتي،
فحسب ظني هي أكبر من البرتغال، وتضم ضعف عدد سكانه،
لكنهم عراة ويتسمون بجبن لا علاج له. ولهذا السبب خطر لي أن
أوقع بيهيشيو بالحيلة، من أجل استعادة سفننا وأسلحتنا وطعامنا.
في غضون ذلك، من الحكمة أن يُبنى هذا البرج وأن يكون
بمثابة حصن، لأنه في الوقت الحالي ليس لدينا سوى سيوفنا،
وعدد قليل من القربينات وقليل من البارود.

الثلاثاء 25 ديسمبر، عيد الميلاد

لقد حلت بنا مصيبة رهيبة.

كانت السفينة لا تزال راسية في ميناء القرية التي تعرض فيها
رفاقنا في المحنة للتعذيب. غير أنه، في هذا الصباح، جاءني
أحد رجالي، كنت قد أرسلته ليصطاد لنا، في حالة من الذعر
ليخبرني أنه رأى السفينة تبهر من بعيد. كان وقع الخبر شديداً
على رجالي الذين عاشوا على أمل استعادة هذه السفينة، هي
والأخرى التي بقيت على الشاطئ، والعودة إلى قشتالة.

كنت قد تركت ثلاثة من رجالي على متن السفينة عندما التقينا الملك بهيشيو وإذا لم يكونوا قد قتلوا، فربما تمكنوا من تحرير أنفسهم واستولوا على السفينة. أو ربما أراد الهنود أن يجربوا الإبحار بها.

وللتحقق من ذلك، تسلقنا رأسًا صخريًا مرتفعًا إلى حد ما، يتيح لنا رؤية للميناء دون عوائق.

في الواقع، كانت السفينة تتحرك وبدأ أنها تهتم بمغادرة الخور، لكنها راحت تتجرف بشكل خطر نحو منبسط صخري. وأيا كان الذي يتولى القيادة، يبدو جليًا أنه عاجز عن توجيهها توجيهًا صحيحًا.

راحت السفينة الشراعية تقترب باندفاع من المنبسط الصخري. ففزعنا من هذا المشهد الرهيب، وصرخنا جميعًا في خوف. وحين اصطدمت أخيرًا بالصخور، وبدأ لنا أننا سمعنا صرير اللحامات، أطلقت صدورنا الأنين ذاته.

لقد تحطمت السفينة الشراعية، وحتى لو عاد مارتين بينزون مصادفة مع سفينة بينتا، فلن يكون لدينا سوى مركبين للعودة إلى الوطن، وهذا لا يكفيًا جميعًا.

إنّها لمحنة عظيمة وضعني الرب فيها في هذا اليوم المبارك من بين كلّ الأيام. غير أنه ما ينبغي لي أن أشك في حكمته، وأنا على يقين أن لا أحد يجتهد في خدمة الرب أكثر منّي، وأنه لن يتخلّى عني.

الأربعاء 26 ديسمبر؛

انطلق رجالي إلى موقع حطام السفينة، وقد جن جنونهم

حزنًا وغضبًا من فقدان السفينة، دون أن أكون قادرًا على قول أو فعل أي شيء لاحتواء غضبهم. وحين لم يجدوا أحدًا حول الحطام، ذهبوا إلى المخازن وأخذوا منها البارود والنبيد بقدر ما يمكنهم نقله. ثمّ توجهوا إلى الشاطئ حيث كانت السفينة، عازمين على القتال، وقد زاد من حدة غضبهم منظر السفينة المحطمة التيس. لكن جيش بهيشيو اختفى. فاستسلموا تمامًا لغضبهم، وقتلوا القرويين عن بكرة أبيهم، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وهم يصيحون «سانتياغو! سانتياغو!» ثم نهبوا القرية وأحرقوها. لقد أتوا فعلًا شنيعًا، لكنني أقول دفاعًا عنهم، إن رؤية هذا المكان قد أعادت إحياء ذكريات التعذيب الذي تعرضوا له.

وحين هدأ غضبهم، أفرغوا قدر ما أمكنهم من مخزون سفينة نينيا، دون إعادتها إلى البحر، فهذا يستلزم كثيرًا من الوقت والعمل، وقد كانوا يخشون عودة بهيشيو. وهتفوا في فرح للأسلحة التي استعادوها ولبراميل النبيد بالأخص. لكننا مع ذلك ما زلنا لا نملك خيولًا.

في المساء، أقمنا مأدبة للاحتفال بالنصر، لأنه كان نصرًا بالفعل، بفضل الرب، تحسن وضعنا إلى حدّ ما، وقد كنا بالأمس فقط غارقين في اليأس بعد أن فقدنا السفينة.

الاثنين 31 ديسمبر:

تعرض ستة من رجالي الذين غادروا الحصن لتوفير المياه والخطب لكمين، وهلك جميعهم. ثمّ اقترب هندي يمتطي حصانًا إلى مدخل الحصن ليضع سلالًا تحتوي على رؤوس هؤلاء المسيحيين المتعساء.

بعدها، أمرت بتعزيز تحصين أسوارنا، لأنني على يقين أن
بهيثيو سيأتي إلينا.

الثلاثاء 1 يناير 1493

تعرض ثلاثة من رجالي، ذهبوا للبحث عن عشبة الراوند،
التي كنت أنوي جلبها إلى جلالتك، لهجوم من فرسان. وكانت
معجزة أن نفذ أحدهم بجلده، وفرّ إلى الجبال حيث لم تستطع
الخيول اللحاق به.

دب القلق وسط رجالي الذين كانوا يخشون مجيء بهيثيو،
ويرونه، مثلما أراه، حتمياً.

الأربعاء 2 يناير،

لم يجرؤ أحد على مغادرة الحصن خوفاً من التعرض لكمين
أو للافتراس، فقد أقنع رجالي أنفسهم أن الهنود يأكلون اللحم
البشري. وصحّ أنّهم قساة جداً عندما ينتصرون على أعدائهم،
فيقطعون أرجل النساء، وحتى الأطفال.

ظلمت متيقظاً في الليل والنهار، حتى أنني لم أعد أقوى على
النوم. فخلال الثلاثين يوماً الماضية، لم أنم أكثر من خمس
ساعات، ولم أنم خلال الأيام الثمانية الماضية، سوى مقدار ثلاث
ساعات رملية، مدة كلّ واحدة منها نصف ساعة، فصرت نصف
أعمى، وأعمى تماماً في ساعات معينة من اليوم.

لحسن الحظ، كان لدينا بذور وحيوانات اعتادت تربية هذا
البلد. فتمت جميع بذور الخضراوات وازدهرت، حتى أن منها ما
سيغطي محصولين إذا زرع، وهو حال الفواكه أيضاً، المزروع منها
والبري: فهنا جودة الطقس مع جودة التربة. وتتكاثر الماشية

والدواجن بشكل مدهش، ومن المدهش أيضًا أن نرى كيف تكبر الدجاجات: فيفقس بيضها كل شهرين، وما هي إلا عشرة أيام أو اثنا عشر يومًا حتى تصبح هذه الصيصان دجاجًا مناسبًا للأكل. أمّا الخنازير، فمن الثلاث عشرة أنثى التي أحضرتها معي، هناك الآن عديد من الخنازير التي تجوب البرية، وتختلط مع الخنازير الموجودة هنا. لكن لم يعد بإمكاننا الاستمتاع بها بسبب الهنود الذين يتجولون في الخارج.

لقد فرّ آخر ترجمان لنا.

الخميس 3 يناير:

بدأ الحصار. حيث ظهر بهيشيو هذا الصباح مع جيشه، ممتطيًا حصانه المسرج بالذهب.

ويمكن للجميع أن يرى من خلال أسلوب هذا الهندي، أنه يتصرف مثل محارب حقيقي، وأنّ قواته منظمة بنفس الطريقة وب نفس القدر من المهارة، كما لو أنها كانت في قشتالة أو في فرنسا.

الجمعة 4 يناير:

لدينا ما يكفي من الطعام والماء لتحمل الحصار، لكن رجالي يدركون أنّ الحصن ليس قويًا بما يكفي للصمود أمام أي هجوم. فليرحمنا الرب برحمته الواسعة.

السبت 5 يناير:

من أعلى البرج، يمكن للمرء أن يلاحظ تحركات قوات بهيشيو. ومن خلال استعداد كتائب سلاح الفرسان والمشاة للمعركة، لا يمكننا الشك في أن الهجوم وشيك.

لكن الرب، الذي لم يتركنا قط، أرسل لنا معجزة، تمثلت في شخص مارتين ألونسو بينزون، ومن أعلى البرج ذاته، رأى رجالي أن سفينة بينتا تلوح من الأفق.

منحنا هذا الظهور المعجزة قوة ومعنويات غير عادية. وسنحاول القيام بطلعة تفقدية غداً أوّل الصبح، وبعون الرب سنبلغ الساحل للالتحاق بمارتن بينزون وسفينة بينتا، أو سنموت في القتال.

لم يبقَ لي سوى أن أستودع أرواحنا الإله الخالد، ربنا، الذي يهب النصر لمن يسير في طريقه رغم العقبات الظاهرة.

الأحد 6 يناير:

في الصباح، خرجنا في صفوف متقاربة، يتقدمنا حاملو القربينات والنشاب، فيما الجرحى في الخلف، وكانت المدفعية الوحيدة هي مدفع صغير أخذه رجالي من السفينة الشراعية. لم نكن سوى ثلاثين رجلاً سليماً، لكننا كنّا عازمين على القتال حتى آخر رمق.

في الخارج كان هناك أكثر من ألف هندي ينتظروننا، الفرسان في المقدمة، والمشاة في الخلف وعلى الأجنحة، يحمل جميعهم سهاماً، كانوا يطلقونها من مقاليعهم، فتتطلق أسرع بكثير مما لو كانت من الأقواس. كانوا جميعاً ملطخين باللون الأسود ومطلّيين بالألوان، يحملون مزامير، وعلى رؤوسهم أقنعة ومرايا من النحاس والذهب. وكما جرت العادة، راحوا يطلقون صيحات حرب رهيبة، على مُدد منتظمة. وأقام بهيشيو معسكره على تل كبير، على مرمى قوسين منّا، وراح يوجّه جيشه من فوق جواده المذهب.

كانت مهمة البعض منّا هي انتظار الخيول في أرض مكشوفة

والإمساك بالفرسان من أرجلهم للإيقاع بهم، إذ كانوا يركبون الخيول من غير سروج وركاب. ولكن كان هذا عملاً محفوفاً بالمخاطر جداً، وعلى الرغم من نجاحهم في تنفيذها، قُتل جميعهم تقريباً.

ومع ذلك، نجح رجالي من رماة القربينات في إسقاط جزء من فرسانهم، وأتاح لنا مدفعنا الصغير فتح فجوة في صفوفهم. لقد فقدنا رجالاً اخترقتهم سهامهم ودهستهم خيولهم، لكننا قتلنا أيضاً كثيراً من الوثنيين. وعلى الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي استخدمنا فيها بنادقنا في هذه الجزيرة، إلا أن الدوي الذي أحدثه المدفع والقربينات قد زرع الذعر وسط المعسكر المقابل، ما أتاح لنا مهلة للنزول عبر الطريق المؤدي إلى الساحل (لأننا بنينا الحصن على أرض مرتفعة).

وصلنا إلى الشاطئ حيث كانت سفينة بينتا راسية، موتى أكثر منا أحياء، إلا أننا ركضنا حتى كادت تنقطع أنفاسنا، مدفوعين بصيحات الأعداء كما لو كانت نيران الجحيم، وكان الماء قد بلغ ركبنا، وكنا على استعداد للسباحة مسافة الأقدام القليلة التي تفصلنا عن خلاصنا -أو هذا ما كنا نعتقد حينها- حين رأينا على سطح السفينة، بجانب مارتين ألونسو بينزون الذي كان يقف بلا حراك مثل تمثال، شاحباً مثل شبح، رجلاً يرتدي تاجاً من ريش الببغاء مزيناً بصفائح ذهبية، يخفي وجهه بقناع من الخشب المنحوت، وعيناه، وفتحات أنفه وفمه محاطة بالذهب أيضاً، ولم تدع لنا قامته الطويلة ولباسه الفخم أدنى شك في هويته، ما حرمننا من كل بصيص أمل: لقد كان هذا كاهونابوا، ملك جيبانغو.

سبق أن قلت إن بهيشيو كان مهيباً وأننا على الفور خَمْنَا مكانته الملكية من هيئته النبيلة، المفعمة بالتفوق دون غطرسة. لكن هذا لم يكن شيئاً مقارنة بالوافد الجديد، الذي استقبله الملك العجوز ببالغ الاحترام، وركع أمامه وقَبَّل الأرض.

جاء كاهونابوا برفقة زوجته الملكة أناكونا، شقيقة بيهيشو، التي لم يكن لجمالها مثل بين النساء الهنديات اللائي يملكن جمالاً فاتناً.

وأما نحن -المسيحيين التبعاء- فقد جُردنا من سلاحنا وسجنا وقتل جرحانا.

احتراماً لرتب القبطان والأميرال، فصلنا أنا ومارتن ألونسو عن رجالنا ودعينا إلى خيمة الملك. وكان فيسينتي يانيز، قبطان سفينة نينيا وشقيق مارتين ألونسو، لينضم إلينا لو نجا من المعركة.

اتهمنا كاهونابوا، على غرار بهيشيو، بأخذ هنود من شعبه وإساءة معاملة النساء، التي اعتبرها جريمة كبرى. وبصفتي أميرالاً وقائداً لهذه الحملة، على الرغم من أنني أمرت دائماً بمعاملة الناس هنا بلطف، فقد كنت مسؤولاً عن الجرائم التي ارتكبتها مارتين ألونسو ومتمرّدون آخرون. غير أنني لم أؤذهم قط، ولم أعامل أحداً بقسوة.

أيّا كان ما يخبئه خالق الكون لخادمه المتواضع، فلن أتحمّل بعد الآن إهانة الماكرين الأنذال، الذين يسعون بوقاحة إلى فرض إرادتهم على الرجل الذي منحهم كثيراً من الشرف.

ما إن نزل مارتين ألونسو مع رجاله على الجزيرة المجاورة

لجزيرة خوانا (وهو الاسم الذي منحته لجزيرة كوبا) التي لا بدّ أن تكون هي جيبانغو، اختطف أربعة رجال هنود وفتاتين صغيرتين، على أمل أن يقدموا له معلومات عن أماكن الذهب، لكن جيش كاهونابوا هجم عليهم على الفور، فهُزم المسيحيون وقتل معظمهم في مكانه. وهكذا يعاقب الرب الفطرسية والحماقة. ومع ذلك، نجا مارتين ألونسو وستة من رجاله من بين الخمسة والعشرين من طاقمه.

ومن بين السبعة والسبعين مسيحيًا الذين غادروا ميناء بالوس، لم يبق سوى اثني عشر نفسًا، ومارتن ألونسو.

الأربعاء 9 يناير:

منذ ثلاثة أيام، والهنود يرقصون على أنغام المزامير والدفوف والأغاني. وبدا أنّ هذه الاحتفالات لن تنتهي أبدًا، في حين كنّا نحن المسيحيون غارقين في حزن عميق، فلا شك أنّ الهنود يحتفلون بهزيمتنا. ثمّ حدث مشهد واحد بالأخص عمّق من جراحنا، حين عمد بيهيشيو، الذي أراد أن يرفه عن زوجات الملك، إلى إعادة تمثيل المعركة التي هُزمت فيها نحن الذين كنّا في الحصن. ولأجل هذه التمثيلية، جردنا الكاسيك العجوز من ملابسنا وألبسها الهنود الذين كان عليهم أن يلعبوا دورنا، وتركنا عراة تمامًا مثل سكان هذه الجزيرة. كان علينا أيضًا أن نعلمهم كيفية إطلاق النار من القربينات، وعلى الرغم من أن صوتها لا يزال يخيفهم قليلًا، فقد ابتهجوا كثيرًا بدوي الطلقات. طوّقت مجموعة من الفرسان الهنود الذين كانوا يرتدون زي المسيحيين، وبينما كان هؤلاء يقلدون الخوف ويطلقون النار في الهواء، راح

الهنود الخيالة يؤدون أرشق الرقصات. ثم تفرق الذين كانوا يؤدون دور المسيحيين وتشتتوا، فيما راح يطاردهم من كانوا فوق الجياد متظاهرين بضربهم بالسيوف.

عزأونا الوحيد كان في الملكة أناكونا التي كانت تتشد الشعر وتغني القصائد، وعلى الرغم من أننا لا نفهم المعنى تمامًا، ليس هناك مسيحي لم يسحره جمالها وصوتها. وكما سبق أن قلت، زوجة كاهونابوا هي أخت بيهيشيو، ويبدو أنها تحظى بتبجيل استثنائي بين الهنود، ليس فقط بسبب نسبها الملكي وجمالها، بل أيضًا لموهبتها في الشعر التي جعلت منها شاعرة مشهورة ومحبوبة عند الجميع.

كان زوجها الملك يشاهد كل هذه الاحتفالات بابتهاج جلي، ولكن ليس بالقدر نفسه الذي بدا عليه حين احتلت أناكونا المشهد.

على أمل الاستفادة من مزاجه المبتهج، توسلنا إليه أن يعيد لنا ملابسنا أو يمنحنا الموت، لكنه رفض هذين المطلبين.

الخميس 10 يناير:

أراد الملك كاهونابوا معرفة المزيد عن البلد الذي أتى منه المسيحيون، ولهذا أراد التحدث معي، في حضور الملكة أناكونا والكاسيك بيهيشيو. وكان لديه ترجمان أخذه من مارتين ألونسو ليتمكن من فهمي. واستقبلني الملك مرتدياً قميصي وحزامي وردائي وطاقيتي، بينما لا أزال عاريًا.

وهكذا تمكنت من إخبارهم عن جلالكم، ملك أعظم مملكة على وجه الأرض، وكذلك عن الدين الحقيقي والإله الحقيقي،

إلهنا الذي في السماوات. وكنت حريصًا على أن أشرح لهم أسرار
الثالوث الأقدس، وقد لاحظت أن الملكة وأخاها كانا يصغيان إليّ
باهتمام كبير.

أقسمت لهم إنّه لا يوجد شرف أعظم على هذه الأرض من
خدمة الملوك مثل جلالتكُم، وأن المعمودية ستنجيهم من الجحيم
بعد انقضاء حياتهم الدنيوية، وأنّ الإيمان الحقيقي وحده هو
الذي يمنحهم الحياة الأبدية.

وعرضت عليهم أن يأتوا معنا إلى قشتالة ليلقوا بأنفسهم عند
أقدام جلالتكُم، ووعدتهم بأن يحظوا بكل الاحترام الذي يليق
بمكانتهم. وبدا كاهونابوا مهتمًا بشكل خاص بقلاعنا وقواربنا
وأسلحتنا، لكنني رأيت أن كلماتي قد أثرت في زوجته الجميلة.

الجمعة 11 يناير:

غادر كاهونابوا مع جيشه، تاركًا زوجته وشقيقها يراقباننا
ويراقبان المنطقة. وهذه أخبار جيدة جدًا، فربما سيكون من
الأسهل إقناعهما بتحريرنا واعتناق المسيحية.

لا يشاطرنني مارتين ألونسو الرأي، فهو يريد الهرب مع الرجال
والإبحار بسفينة بينتا، التي لا تزال راسية في الخليج الصغير.

السبت 12 يناير:

اليوم، قضيت وقتًا طويلاً أحدث الملكة عن يسوع المسيح،
وقد وافقت على نصب صليب في ساحة القرية التي نقيم
فيها. ودعاني شقيقها على كوهيبا، وهو الاسم الذي يطلقونه
على الأوراق الجافة التي يحرقونها في قصب مجوف ليستشقوا
دخانها.

اعتلت صحة مارتين ألونسو.

الأحد 13 يناير؛

لأن الملكة امرأة، فقد وصفت لها الجواهر والفساتين التي تلبس في بلاط مملكة قشتالة، ورأيت وميض الشهوة يلمع في عينيها كما في عيني طفل.

كنّا نأكل جيداً وننام في أراجيح شبكية، لكن مارتين ألونسو كان يشكو من الألم في سائر جسده. ويقول إنه يرفض الموت هنا ويفكر فقط في استعادته سفينته.

الاثنين 14 يناير؛

أصيب مارتين ألونسو بحمى خبيثة تثير القلق على حياته. ومن خلال ما لاحظته، أعتقد أنه من المحتمل جداً أنه أصيب بهذا المرض جراء علاقته مع النساء الهنديات. وهو في حالة من اليأس لعدم قدرته على أن يطأ الأرض المسيحية مرة أخرى. اقترحت على أناكونا أن تصبح دونيا مارغريتا، بما أن اسمها يعني «الزهرة الذهبية» في لغتها.

الثلاثاء 15 يناير؛

استولى الشيطان على جسد القبطان وعقله. بينما دُعي كلانا، كما هي الحال في كل يوم، لمشاركة بهيشيو الغداء (فحتى الآن لم يعطنا هذا الأخير أي سبب للشكوى، باستثناء كوننا مجبرين على الذهاب عاريين مثله)، أمسك مارتين ألونسو، الذي أهلكته الحمى، سكيناً وقتل الكاسيك العجوز بطعنة في العنق. ثم أجبر الملكة على أن تحرر رفاقنا بتهديد نصله، وجعلها تعطي كل واحد حصاناً، وهرب مع كل من كانوا قادرين

على امتطائها. لقد كان الأحمق المسكين يأمل أن يلتحق بسفينته بهذه الطريقة. لكن بإتيانه مثل هذا الفعل، أدركت أنه قد أدانتنا جميعًا.

الأربعاء 16 يناير،

بكى الهنود ملكهم الميت. ولم تعد الملكة المفجوعة بفقدان شقيقها، وقد تخلت عن التفكير في المعمودية، تتحدث عن شيء آخر سوى الانتقام. وقد أمرت بإنزال الصليب الذي نصبته وحرقه.

أمّا أنا، فقد أقسمت أن ألتحق برهبنة الإخوة الأصاغر إذا ما قُدِّر لي بمعجزة أن أرى قشتالة مرة أخرى، على الرغم من أنه بالنظر إلى تعاقب المصائب، يبدو جليًا أن الرب القدير لا يزال يخبئ لي خططًا أخرى. ومع ذلك، أتوسل بتواضع إلى جلالتك، إذا ما أنجاني الرب من هذا الوضع، أن تتظروا بلطف في طلبي للذهاب إلى روما وإلى رحلات الحج الأخرى. فليحرس الثالوث الأقدس حياتك وقوتك ويمدهما.

الاثنين 4 مارس،

أستطيع الآن أن أقول على وجه اليقين إن مارتين ألونسو لن يرتكب مزيدًا من الحماقات.

فقد عاد كاهونابوا مع رأسه ورؤوس أولئك المسيحيين الذين تبعوه في هروبه المجنون. وهكذا يهلك الرجال ذوو النيات السيئة. بناءً على أوامر الملك، سُحبت سفينة بينتا إلى الشاطئ. ومنحتُ الخليج الذي رست فيه بالأمس اسم «خليج الحاج الضائع»، بالنظر إلى وضعي الحالي وإحياءً لذكرى مصيري

الرهيب .

بالنسبة إليّ، لم يعد الأمر يتعلق بالعودة إلى إسبانيا، ولم يعد على جلالتكم سوى نسيان الأحقق المسكين الذي وعدكم بجزر الهند .

غير مؤرخ

لفرط ما ظللت أصدق في البحر على أمل ضئيل في أن أرى شراعاً يلوح في الأفق، أحسست بألم رهيب في عيني وبدأ بصري يضعف . غير أنني أعلم جيّداً أن إخفاقي في هذه المهمة سيثني جلالتكم، معتقدين أنني قد غرقت في الهاوية، عن إرسال أي شخص إلى بحر المحيط مجدّداً .

غير مؤرخ

يمزق ألم آخر قلبي . إنّه التفكير في دون ديبغو، ابني، الذي تركته في إسبانيا، يتيمًا، محرومًا من شرفي وممتلكاتي، على الرغم من يقيني أن الأمراء ذوي العدل والعرفان سيعيدون إليه كل شيء وزيادة، إذا ما تمكنت من العودة من رحلتي محملاً بكنوز هذه الأرض الثرية .

غير مؤرخ

تكاد جزيرة خوانا أو كوبا، التي يبلغ طولها قدر المسافة من بلد الوليد إلى روما، تخضع اليوم برمتها لكاهونابوا . وبفضل لطف زوجته، تسامحوا معي وأطعموني مع قومهم، الذين علمت منهم أنهم يطلقون على أنفسهم اسم التاينو، لكن ملكهم لا ينتمي إلى هذه القبيلة لأنه جاء من جزر الكاريبي، وهو ما يفسر بلا شك طبعه المتفوق، واستعداده للحكم، وضرواته الشديدة في القتال .

غير مؤرخ

سألت صحة القلة الذين ظلوا معي، وقد غرق جميعهم في حالة من الحزن. ومات آخرهم هذا الصباح، فأضحيت هنا وحدي وسط هؤلاء المتوحشين. أي بشر آخر، باستثناء النبي أيوب، يمكنه الصبر معهم؟ لا أعرف لماذا يطيل الرب وجودي البائس هكذا.

أسير عارياً، مثل كلب ضال، أعمى تقريباً، ولم يتبق لي أي شخص ليعتني بي. وحدها ابنة أناكوانا تعيرني ذلك الاهتمام الذي يعيره الأطفال أحياناً لكبار السن الذين يروون لهم القصص. فتأتي كل يوم لرؤيتي حتى أقص عليها أخبار قشتالة العظيمة وملوكها المكللين بالمجد.

غير مؤرخ

إنه لعجيب كيف تتعلم هيغويناموتا بسرعة اللغة القشتالية، التي أصبحت تفهمها جيداً وتجيد تكرار عباراتها؛ ما أمتع والدتها أيّما متعة.

في نظر الملكة، لست أكثر من مجرد مهرج يصلح فقط للترفيه عن ابنتها.

غير مؤرخ

لأن جلالتك لن يقدر على شيء، بعد أن قرّر الرب خلاف ذلك، فإنني أتوسل إليه أن ينجي كل كتاباتي حتى يُعرف مصيري المأساوي ذات يوم، وكيف جئت من بعيد خدمةً لهؤلاء الأمراء، تاركاً الزوجة والأولاد، الذين لن أراهم مرة أخرى بسبب ما أنا فيه، وكيف جُردت الآن في نهاية حياتي، من شرفي وممتلكاتي،

دون سبب، ودون محاكمة أو رحمة. أقول «رحمة» ولكن لا أقصد هنا صاحب الجلالة، فليس هذا ذنبكم، بل ذنب الأشرار الذين ألقى بي سوء حظي عندهم، وأدى بي إلى خسراني بعد خسرانهم، في هذه الأراضي التي هجرها الرب.

غير مؤرخ

دنت الساعة التي تعود فيها روحي إلى خالقها، وإذا كنت قد نسيت بالفعل في الجانب الآخر من بحر المحيط، فأنا أعلم أن هناك شخصًا واحدًا على الأقل لا يزال يهتم بالأميرال المخلوع، إنها هيغويناموتا الصغيرة تلك، التي ستصبح ذات يوم ملكة، هي آخر عزاء لي على الأرض، وستكون بجانبني لتغمض عيني. وأصلي للرب، لأجل خلاصها، أن تعتق إيماننا إحياءً لذكراي.

غير مؤرخ

إنني بائس بقدر ما قلت ذلك. لقد ظلمت أبكي على الآخرين إلى يومنا هذا: فلتقبلني السماء الآن بالرحمة، ولتبكي الأرض عليّ. على الصعيد الدنيوي، لا أمتلك أي شيء أقدمه قريبًا. أمّا على الصعيد الروحي، فقد جئت إلى جزر الهند على النحو الذي سبق أن قلته. هنا، معزول في حزني، مريض، أنتظر الموت كل يوم، يحيط بي آلاف المتوحشين القساة، الذين يكون لنا العداوة، وأنا بعيد كل البعد عن أسرار الكنيسة المقدسة حتى يهيا لي أن روحي ستُتسى إذا ما انفصلت عن جسدي في هذا المكان. فليبك عليّ كل من قلبه عامر بالإحسان والحق والعدل. والحقيقة أنني لم أقم بهذه الرحلة لشرف أناله منها أو ثروة أكسبها، فلأجل هذا قد ماتت كل آمالي. وما جاء بي إلى جلالتكم هونية خالصة وحماس كبير، ولست أكذب في هذا.

الجزء الثالث أخبار أتاهاوالب

1. سقوط الكندور

تبدو لنا تلك النبوءات واضحة وضوحًا لا غبار عليه عندما نتأملها بعد مضي زمن على تحققها، ومع أن حقيقة الحاضر أشد لفحًا وأعلى جلبة، فإنها كثيرًا ما تظهر مشوشة أكثر من حقيقة الماضي، بل وأكثر من حقيقة المستقبل أحيانًا.

أقيمت الاحتفالات الرسمية بعيد الشمس، ويحق لهواينا كاباك، السابا إنكا الحادي عشر لإمبراطورية الأرباع الأربعة، أن يشعر بالرضا. فمن أراضي أراوكانيا البرية إلى مرتفعات كيتو، التي أنشأ عليها إقامته المفضلة (بعيدًا عن عاصمته، لأن قلب الإمبراطورية كان ويجب أن يبقى في كوزكو)، امتد حكمه بقدر ما كان ممكنًا (على حد اعتقاده)، ولم يوقفه طوق الغابات السميك ولا قطن السماء. كانت أحشاء اللاما لا تزال تتأرجح، وتتضخم رئاتها المنزوعة بالهواء حين ينفخ الكهنة في قصباتها الهوائية. وفيما كانت تشوى على السبخ جثث الحيوانات، التي قدمت قرايين، لتقدم في المأدبة المقامة، وكان الضيوف يهتمون برفع النخب، حسب ما ينص عليه نظام التشريفات، ظهر طائر كوندور في السماء تلاحقه مجموعة من الطيور الجارحة الصغيرة -المرزة، والعقاب المخادع، والباز- التي كانت تهاجمه بلا هوادة. ولمّا خارت قوى الكندور، انهار تحت وقع ضربات مناقير مطارديه، ووقع في الساحة وسط الحفل؛ ما ترك أثرًا عميقًا لدى الجمهور. نهض هواينا كاباك من عرشه وأمر بفحص الطائر. وتبيّن على الفور أن الكوندور كان مريضًا وعلى وشك

الموت ليس فقط متألمًا من الجروح التي أصابه بها مطاردوه، ولكن بسبب الجرب الذي نتف ريشه وغطى جلده بالبثور. رأى الإنكا وقومه في هذا الحدث فألاً طيبًا: فقد اعتبر العرّافون، الذين دُعوا إلى هذه المناسبة، موت الكندور بشرى عن غزو إمبراطورية عظيمة تقع في أراضٍ بعيدة. لذلك، ما إن انتهى مهرجان الشمس الذي كان من المقرر أن يستمر تسعة أيام، قاد هواينا كاباك جيشه باتجاه الشمال، بحثًا عن مناطق جديدة لغزوها.

مر بتوميبامبا، وتجاوز كيتو، وأخضع بعض القبائل الجديدة إلى حكم تاهوانتينسويو، إمبراطورية الأرباع الأربعة. ولكن في أحد الأيام، بينما كان يسير في طريق مع حاشيته، قيل إنّه صادف رجالاً ذا شعر أحمر، فطلب منه بنوع من التعالي أن يتحنى جانباً ليفسح له الطريق. ويقال إن نبرته أزعجت الرحال الذي رفض التحني، غير مدرك هوية محاوره. فاحتدم النقاش بينهما، وشج الرجل ذو الشعر الأحمر رأس الإمبراطور بعصاه، فانهار الإمبراطور، وأصيب بجروح قاتلة. وحين حاول ابنه الأكبر، نينان كويوتشي، مساعدته، قتل بالطريقة ذاتها. ويُزعم أن الرحال ذا الشعر الأحمر كان ابن الإنكا من كاهنة باتشاكاماك، لكن لم يسمع به أحد من قبل.

ثم وقعت الإمبراطورية في يد ابن آخر من أبنائه يدعى هواسكار. ومع ذلك، قبل وفاته، صاغ هواينا كاباك هذه الرغبة: أن يخلفه هواسكار على عرش كوزكو، لكن أن يترك حكم المقاطعات الشمالية لأخيه غير الشقيق أتاواليبا. وكان أتاواليبا

نجل الإمبراطور من أميرة كيتو، وكان يحبه حباً جمّاً.

طوال عدة مواسم حصاد، تقاسم هواسكار وأتاهوالبا إمبراطورية تاهوانتينسويو على هذا النحو. غير أنّ هواسكار كان رجلاً ذا مزاج عنيد وغيوراً وعصبياً. فضلاً عن ذلك، تأمر عليه بعض أمراء كوزكو، لأنّه أراد حظر طقوس المومياوات، التي رأى أنّها مكلفة جداً. وبحجة واهية، بدعوى أنّ أتاهوالبا قد قلّل من احترامه برفضه المجيء لتقديم فروض الولاء والطاعة له، أعلن هواسكار الحرب على أخيه. ولإذلاله، أرسل إليه ملابس نسائية وزينة. لذلك عمد أتاهوالبا، الذي كان محبوباً من قادة والده، إلى تشكيل جيش، وسار نحو كوزكو.

كان جيش هواسكار أكثر عدداً، لكن كان على رأس جيش أتاهوالبا قادة متمرسون، وقوامه رجال مدربون تدريباً جيّداً. وانتصر القائد كويزكويز، والجنرال تشالكو شيماك، والجنرال روميناھوي في معارك دامية أوصلتهم إلى أبواب كوزكو. وعجّل الفرسان من الحرب وزادوا من شراستها. في المقابل، اضطر هواسكار إلى تولي قيادة جيشه بنفسه في محاولة لكبح هذا التقدم الهادر. لكنه نجح في إيقاف جيش أخيه على ضفاف نهر أبوريماك، حيث وقعت مذبحة كبيرة. لذلك لجأ جيش أتاهوالبا إلى مقاطعة كوتابامباس، حيث حوصرت أعداد كبيرة من الجنود الذين علقوا في السافانا وأحرقوا أحياء، فيما تراجع الناجون. وهكذا، بدأ رحلة التعقب الطويلة نحو الشمال.

2. التراجع

تردد هواسكار. لكن، ليس لوقت طويل. فحين لم ترضه حصيلة الحرب، فكّر في أن ينتظر شقيقه في سهول كويبايان، لأجل الموقعة الأخيرة. وقد عانى هو أيضًا خسائر فادحة، ونال التعب من رجاله، رغم غلبتهم. فأراد أن يمنحهم الوقت لاستعادة قواهم للمعركة. ثمّ أنّ قربه من كوزكو قد طمأنه، إذ ألقت عاصمة الإمبراطورية، سرّة العالم، بظلالها الطيبة على الحزب الشرعي. لكن كوزكو كانت أيضًا الحلم الذهبي لرجال أتاهاوالبا، وأثارت نفحاتها العطرة شهواتهم. وكان هواسكار يخشى أنّ يحيي هذا الإغراء الخطر، الواقع على مرمى بضع سهام، قلوب الجنود المهزومين. ولم يشأ أن يمنح الجيش المعارض فرصة لإعادة ترتيب صفوفه. وكان لا يزال لديه سلاح فرسان عملي، بقيادة توباك هواالبا، أخ آخر من إخوته غير الأشقاء، الذين يبلغ عددهم خمسمئة. لذلك، جمع قواته وأرسلهم في أعقاب المتمردين، عازمًا على إبادتهم. حتّى أنه استدعى حرس ساكسايهوامان من قلعته، وهي خطوة تظهر المقياس الحقيقي لعزمه: لقد كان مستعدًا لتحويل هؤلاء الرجال عن مهمتهم المقدسة ليضيف قوة تلك النخبة إلى صفوف الجيش الإمبراطوري.

لم يكن أتاهاوالبا بحاجة إلى استشارة قاداته -روميناهوي ذو العين الحجرية، وكويكويز الحلاق، وتشاكو شيماك- لعلمه أنهم لا يستطيعون تحمل هجوم آخر. وواحدًا وراء الآخر، مثل فهدي كوجر أعرجين، تحرك الجيشان.

كان عليهم عبور جسور الجبال فوق الأنهار، مع الخيول التي كانت تسهل لخوفها من العبور، والثيران، واللاما، وأقفاص القوارض والبيغاوات، وعربات مؤونة الجنود، وحاشية الإنكا التي لا حصر لها (ولكن أيهما؟)، من عبيده، ومحظياته، وأطباقه الذهبية والفضية، وحيوانات الألبكة التي تخصص صوفها لتزويده بملابسه اليومية، يليهم الجرحى الذين حُمِلوا في عربات مثل سيدهم.

غابت الإمبراطورية ببطء عن الأنظار. وامتدت الجبال إلى الأفق، وقد بدت متغضنةً بحقول الذرة، لكن الجنود المنهكين بالكاد رفعوا رؤوسهم، وتلاشت تلك المدرجات الزراعية -فخر الإمبراطورية- أمام اللا مبالاة. كانت البيغاوات المحبوسة في الأقفاص تتعق بتبؤات مشؤومة، فيما راحت القوارض الصغيرة التي ترافقها تطلق أصواتًا مثيرة للشفقة. ووحدها الكلاب الشافية⁽¹⁾، ذات البقع البيضاء التي تلو رؤوسها، من أعادت بث الحياة في الموكب الطويل بنباحها، وهي تتجول بين صفوف الجنود مثل رعاة القطيع.

أمدت المخازن التي تخللت مسار الإنكا قوات الشمال بالطعام، ثمّ ذهل العاملون القائمون على مخازن الحبوب هذه لدى رؤية جيش ثان يصل، فأمدوه هو الآخر بالمؤونة دون تردد، وقد تعرّفوا على رايات حاكم كوزكو، فيما لا تزال سحابة من الغبار، غير بعيدة، تشير إلى مرور جيش أتاهاوالبا.

(1) كان هناك اعتقاد قديم عن قدرة نوع من الكلاب في شفاء الجروح، فكان يُؤتى لها بالمرضى لتلعق جراحهم.

أرسل هواسكار رسائل إلى أخيه غير الشقيق. وكان الشاسكي⁽¹⁾ عدائين سريعين، ونظام التبادل البريدي كثيفاً جداً، حتّى أنّ الأخبار لم تكن تستغرق سوى بضعة أيام لتصل إلى الإنكا من زوايا الإمبراطورية البعيدة. ولم يكن الجنود ينتبهون إلى هؤلاء السعاة النحيلين، وهم ينطلقون مثل الجاغوار. وفي وقت أقل من الوقت الذي تستغرقه باتشاماما⁽²⁾ لإحداث هزة أرضية، همس أحدهم في أذن أتاهاوالبا، الذي همس له بدوره بشيء ما، فغادر الشاب دون انتظار، وصاح بالرسالة ما إن رأى زميله على مرمى سمعه، مستعداً بدوره للعدو. وما هي إلّا بضع مبادلات، حتّى وصل الرد إلى هواسكار. وهكذا استطاع الإمبراطوران التحدث بشكل طبيعي تقريباً، بينما كان جيش كوزكو يلاحق من كذب جيش كيتو.

«استسلم، يا أخي.

- أبداً، يا أخي.

- باسم هوايانا كاباك، والدك، أوقف هذا الجنون.

- باسم هوايانا كاباك، والدك، تخلّ عن تأرك».

كان الجيشان قريبين جداً حتّى أن الفلاحين الذين كانوا يزرعون الذرة، على المدرجات الزراعية، حين رأوهما يمران، كادوا يصدقون أنّهما جيش واحد.

(1) الشاسكي هم سعاة البريد.

(2) إلهة الأرض في معتقدات الإنكا.

3. الشمال

سرّع الجيش الشمالي وتيرة سيره إلى أن بلغ كاجاماركا، حيث كان أتاهاوالبا يعلم أنّ بإمكانه الاعتماد على الحامية التي تركها في المدينة المحتلة مؤخرًا. ومنح الوادي الأخضر للرجال المنهكين مشهدًا ملتبسًا لأعمدة البخار المتصاعدة من الينابيع الساخنة التي اشتهرت بها المنطقة. وقد أحب أتاهاوالبا، مثل أسلافه، المجيء إلى هنا والاستحمام مع والده، في أيام السلم. وأمل أن يرفع الاسترخاء معنويات رجاله ويريح أجسادهم، قبل أن يتخطى سلسلة الجبال المهيبة التي تفصله عن كيتو، وعاصمته ودياره. لكن هذا فقط في حالة إذا ما تمكن من توسيع الفجوة بينه وبين ملاحقيه، وهو لا يزال يشعر بأنفس كوزكو على قفاه. كان جيش شقيقه يعسكر خارج المدينة عند سفح التل، وكانت خيامه البيضاء مشدودة بإحكام حتى بدت كأنها تغطي الجبل مثل ملاءة. وقد أضافت سحب البخار المنبعثة من الأرض المزيد إلى هذه الرؤية القمرية.

نزل أتاهاوالبا من محفته، وداس بصندله الميدان الرئيسي لكاخاماركا. ومن حوله، راح الرجال يوردون الخيول، ويحررون اللاما من أحمالها، وينصبون الخيام. وفجأة، شعر بنوبة جزع تحتشد في حلقه. فقرر المغادرة قبل الفجر.

في الصباح، وجدت طلائع هواسكار مدينة كاخاماركا مهجورة. وكان رجال جيش الشمال وحيواناتهم قد بدؤوا في وقت سابق الصعود اللا نهائي نحو قممتها. كان الطريق ضيقًا، وبدت الهاوية

بلا قاع، وأصبح الهواء متجمداً. كانت طيور الكندور تحوم فوقهم. واعترضت جبال الأنديز طريقهم، لكنه كان طريقاً يعرفه جنود الشمال جيّداً لكثرة ما سلكوه، فتمكنوا أخيراً من التقدم على أعدائهم. ومروا بمناجم الذهب والشعاب والصدوع وغابات التنوب. ومروا بالقلع التي شيّدت بعبقرية الإنكا على نتوءات صخرية. وما إن بلغوا القمة، جذبتهم كيتو. وظنوا أنّهم ما إن يصلوا إلى ديارهم، فسيكونون بأمان.

كان هذا لتقليل المذابح التي ارتكبوها بين سكان الشمال -السيموس، والكارانجوي، وخاصة سكان جزر الكناري، الذين كانوا يرون في أتاواليبا الطاغية القاسي الذي أصدر الأمر بإبادتهم. ألم يُبدِ مدينة توميبامبا العظيمة -التي أنشأها والده- لأنها انحازت إلى هواسكار؟ ورأى أولئك الذين نجوا في عودة جلاديهم هدية من الشمس. كانت هذه فرصتهم للانتقام. وبدأت حرب المضايقات. وعانى جيش كيتو المنهك الخسائر التي أتت على تعزيزات كاجاماركا. فضلاً عن ذلك، أدى الجهد الذي بذلوه لصد هجمات جزر الكناري إلى إبطائهم، وتمكن جيش كوزكو من اللحاق بهم في النهاية. ودمر مؤخرة الجيش، التي كان يقودها كويزكويز، بالكامل تقريباً سلاحُ الفرسان تحت قيادة توباك هوالبا، شقيق هواسكار (وشقيق أتاواليبا كذلك، لكنه كان كوزكاني المولد).

عندما وصل جيش أتاواليبا أخيراً إلى وادي كيتو، كان الأوان قد فات. لقد تكبدوا كثيراً من الخسائر التي قضت على كل أمل لديهم في استعادة قوتهم قبل مرور عدة أشهر قمرية -ولم

يكن لديهم كل هذا الوقت. لذلك أمر أتاهاوالبا أفضل جنرالاته، رومينا هوي ذو العين الحجرية، بإحراق مدينته برمتها. ثم تسلق أعلى تل «قلب الجبل»، كما يطلق عليه سكان كيتو، ليتأمل الحريق. وعندما استولى هواسكار على كيتو، وجدها رماداً.

لم يذرف أتاهاوالبا دمعاً. وشد رحاله نحو الشمال مجدداً، إلى ما وراء حدود الإمبراطورية. وولجت بقايا جيشه غابة كثيفة تسكنها حيوانات سامة. كان يأمل أن يتوقف هواسكار عند هذا الحد، ولكنه استهان بعناد أخيه أو ربّما كراهيته. فقد كانت فرقة فرسان توباك أهوالبا في أعقابهم. وسرعان ما لن يكون جيش تشينتشايسويو المجيد، إمبراطورية الشمال، أكثر من مجرد كلب عجوز تأكله البراغيث.

ومع ذلك، استمر الإمبراطور المخلوع في التوغل أعمق وأعمق في الغابة الرطبة. وحل الحر الشديد محل برد قمم الأنديز القارس. لكن لم يتجرأ أي جندي من بين أولئك الذين ظلّوا بكامل قواهم على التذمر، غير أنّ عيونه أبلغته أنهم قد بدؤوا يشتمون اليوم الذي ولدوا فيه، ويتمنون الموت للجميع. فاستجاب لهم الموت، وماتوا الواحد تلو الآخر.

ومع ذلك، نجا كويكويز من هجمات توباك. وهو يواكب الآن محفة الإمبراطور، ويحرسه عن قرب. ولم يتخلّ جنرالات أتاهاوالبا عنه، وكانوا مستعدين لمرافقته إلى أقاصي الأرض. ذات صباح، ظنّوا أن ملاحقيهم قد استسلموا، لكن سرعان ما ارتفع في الهواء الرطب صدى أغنية حرب:

سنشرب من جمجمة الخائن

وبأسنانه نصنع قلادة.

من عظامه نصنع مزامير.

ومن جلده طبلة.

ثم نرقص.

حتى لو أن أتاهاوالبأ سمعها، فإنه لم يبدِ أي ردة فعل. فلم يسبق أن تخلى عن كبريائه الإمبراطورية تحت أي ظرف.

بدأ الانسحاب أشبه بحلم غريب. هنا وهناك، صادفوا قرى بدائية يسكنها رجال عراة، بعضهم خائف، وبعضهم فضولي. قدم لهم البعض الطعام والشراب، فيما كان آخرون أكثر عدائية، غير أن أسلحتهم اقتصرت على بضعة أقواس ورماح ذات أطراف حديدية، وسرعان ما هُزموا، وأخذت خيولهم، وقُتلت ماشيتهم. ونهبوا منهم كل ما وجدوه، ما خفف من وطأة غياب المخازن. لكن عدم وجود طريق كان هو الأكثر عناء. ففي مرات عدة وجد الرجال والبهاائم أنفسهم عالقين في مستنقعات موبوءة بالحشرات. ونهشت التماسيح أحد العبيد، وبعده ثور.

وافق بلاط كيتو الجيش، لأنهم كانوا سيذبحون لو أنهم تخلّفوا هناك. وقد أضاف وجودهم مزيداً من البهجة على هذا الموكب الطويل الرث.

أخيراً وصلوا إلى البرزخ الشمالي، الذي يحده من الشرق البحر الأسطوري الذي لم يرد ذكره في سوى قليل من الأساطير القديمة، أو القصص التي تناقلتها بعض القوافل الناجية أو ممثلو بعض الشعوب البعيدة الذي ضلوا طريقهم. لذلك لم تكن أسطورة في النهاية، وشعر البعض منهم في محنتهم هذه بفخر

المستكشفين. فيما رفع آخرون أذرعهم في إجلال، مستحضرين ذكرى القصص القديمة عن الملكة الحمراء، ابنة الرعد، المبعوثة من الشمس غير أنّ أتاهاوالبا لم ينجرف وراء هذه الخرافات، وعبر البرزخ، في محاولة أخيرة للابتعاد عن الحدود الشمالية للعالم المعروف، ثمّ توقف، لا بسبب القبائل الفقيرة من السلاح، بل بسبب المحاربين الأقوياء الذين لم تغفل الشائعات البعيدة ذكر نزعته العميقة للقتال، ولا ميلهم إلى التضحية بالبشر. وأصبح هو ورجاله ونساؤه وزهبه وحيواناته وبلاطه في نهاية انسحابهم اللا نهائي هذا محاصرين تماماً الآن، وانتهى بهم الأمر إلى أن تقطعت بهم السبل على شاطئ رملي طويل، بعد أن عبروا جبال الأنديز والمستنقعات والبرزخ في نهاية العالم، بعد السير نحو الشمال أكثر مما تجرأ أي سلف إنكا على أن يحلم به -لا هواينا كاباك والده، ولا باتشاكوتيك المصلح العظيم- والآن، ها هو ذا ينتظر وصول هواسكار والمصير المميت، الذي لم يفعل شيئاً سوى تأخير، في نهاية المطاف.

وبينما كان الحاكم يفكر، مكتئباً، في الظروف التي سيلتحق فيها عمّا قريب بالعالم السفلي، جاء القائد روميناھوي ليطلب منه عقد اجتماع. ورغم الظروف التي كانوا فيها، وحقيقة أن أتاهاوالبا نفسه -الذي نزل من محفته، ووقف قبالة البحر- لم يكن يفوح منه العطر كما هو معتاد، وشعره متسخ ويرتدي السترة ذاتها لما يقرب من نصف يوم، وأنّه لم يعد يحترم كل المظاهر المتعلقة بمنزلته، وقد اعتراه القلق بلا شك من احتمال عدم تحنيط جسده، تقدّم الجنرال العظيم حافي القدمين مطأطأ

الرأس، مبدئياً كل علامات التواضع المطلوبة. فرغم كل شيء، لا يزال أتاهاوالبا يرتدي التاج الإمبراطوري المضفور على جبينه، تتدلى منه الشراشيب الحمراء، وتعلوه شرابة من ريش صقر، وكان هذا كافياً لجندي والده العجوز.

«سابا إنكا، هل ترى هذه القوارب في عرض البحر؟»

ودون أن يرفع رأسه، أشار إلى النقاط الصغيرة التي تطفو على البحر، ثم صفق بيديه، واستدعى رجلاً عارياً يمسكه اثنان من العبيد.

«وفقاً لهذا الرجل، الذي أسرناه هذا الصباح، هناك جزر كبيرة على بعد أيام قليلة من الإبحار. يأتي سكانها إلى هنا للصيد والتجارة، على متن جذوع أشجار مجوفة يسمونها الكانوا. وتبين لنا من خلال الفاكهة التي صادرناها من الأسير، أنها أرض لا تنتظر شيئاً سوى استقبالنا».

كان أتاهاوالبا رجلاً طويلاً، لكن جنراله، العملاق، لا يزال يعلوه برأسه، حتى وإن كان منحنياً أمامه. وكعاداته، لم يبدِ الإمبراطور إذا ما كان ينظر إلى هذا الاقتراح بازدراء أو اهتمام.

ثم قال ببساطة: «ليس لدينا أي قوارب».

فردّ الجنرال: «لكن لدينا الغابة».

وهكذا نظموا عملية الإخلاء. وتولى كويزكويز الشجاع قيادة رجاله لحراسة الشاطئ. وحشد روميناھوي بقية السواعد المتوافرة لقطع الأشجار ونقلها، فيما تولّى تشالكو شيماك مهمة بناء القوارب في الشاطئ. حُمل الرجال في زوارق كانوا المشدبة على عجل، وحملت الحيوانات وصناديق الذهب على

طوافات مصنوعة من جذوع الأشجار المربوطة بخيوط من صوف اللاما. أمّا النبلاء، الذين لم يسبق أن سكبوا لأنفسهم كأس شراب واحدة طوال حياتهم، ولا حتى ارتدوا ثيابهم أو غسلوها بمفردهم، فقد راحوا يساعدون بشكل أخرق في تشكيل القوارب وتجميعها وتحميلها. وفي هذه الأثناء، صد جنود كويزكويز بشكل بطولي اعتداءات قوات كوزكو واختلطت قعقة السلاح، والصيحات، ومواكب الخيول عند أطراف الغابة، بصوت الأمواج. تم الإجلاء. وكان كويزكويز آخر من انطلق تحت وابل من السهام والشتائم، تاركاً وراءه شاطئاً مليئاً بالجثث، ركضت بينها آخر الخيول التي لم تستطع اتخاذ مكان لها على ظهور الطوافات، فيما لم تتحرك تلك السلاحف، التي كانت تعيش في الرمال، طوال المعركة.

4. كوبا

كان البحر هادئاً، وعرف الأسطول كيف يبقى مجتمعاً، ولم تكن هناك أي خسارة.

رسوا على شاطئ رملي أبيض تحفه أشجار النخيل. وملأت صيحات الببغاوات الفضاء. كانت تنتشر خنازير وردية على الشاطئ، فاستبشروا خيراً بهذا. لقد كانت بلاداً جميلة، جوّها معتدل. وتبدّد تعبهم المتراكم. وتسلقوا الجبال الخالية من الثلوج وهم يغنون. وخاضوا في الأنهار الهادئة دون عناء، وكان بالإمكان صيد السمك بكلتا اليدين. وبين الفينة والأخرى، كان يخرج من

قلب الغابات المليئة بالطرائد بعضُ من السكان الأصليين بدافع الفضول. وكانوا عراة ووسيمين، والأهم من ذلك أنهم لم يحملوا أي نيات عدائية. وبمساعدة تاجر من بوبايان، ادعى أنه يفهم لغتهم، علم أتاهاوالبا أن ملكة عجوز هي من يحكم الأرخبيل الذي يتألف من ثلاث جزر كبيرة: كوبا وهايتي وجامايكا، وعدد لا نهائي من الجزر الصغيرة مثل جزيرة السلاحف. وساروا شمالاً، دون أن يعرفوا السبب، إن لم يكن من أجل المتعة الوحيدة لاستكشاف جمال هذه الأرض، أو ربما بسبب العادة، لأنّ الشمال كان دائماً مكانهم داخل إمبراطورية تاهوانتينسويو. وفي المساء، شَوّوا الخنازير وتذوقوا لحم السحالي. هل اعتقد أتاهاوالبا أنهم سيتمكنون هنا من نسيان الحرب؟ ربّما. لكن هل كان قادراً حتى على السلام؟ سلسلة الظروف التي حكمت مصيره تجعل من الصعب الإجابة عن هذا. لنقل إن السلام لم ينحنِ على مهده. ما إن انحسر الألم من القلوب استأنف النظام حقوقه على الموكب: شق الكناسون بالقمصان ذات التراييع الطريق، يتبعهم الراقصون والمغنون الذين سبقوا الفرسان بالدروع الذهبية، ثمّ يأتي الإمبراطور جالساً على عرشه، محاطاً بحرسه من الياناس، وقادته على ظهور الخيل، وكبار رجالات بلاطه، يتنقل أبرزهم أيضاً على المحفّات، بالإضافة إلى زوجته الشقيقة كويا أسارباي⁽¹⁾، وابنة عمه وزوجته المستقبلية كوسي ريماي، وأخته الصغرى كيسبي سيسا، وزوجاته الثانويات ومحظياته، وكاهنات

(1) يطلق اسم كويا (COYA) على الشقيقة التي تتخذ زوجة من أجل الحفاظ على نقاء الدم الملكي.

الشمس، والخدم، والجنود المشاة، وأخيرًا، يتبعهم سيل من الناجين من كيتو، يسرون في هدوء. وكان كويذكويز ورجاله في مؤخرة هذا القطيع الطويل.

بيد أن الموكب توقف. واصطف الرجال في المقدمة على الجانبين للسماح لمحفة الإنكا بالمرور. وكان أمامهم أربعون فارسًا، كلهم عراة ومسلحون، وعلى رأس كل واحد منهم ريشة، وأجسادهم ووجوههم مطلية. وكان قائدهم يحمل على كتفه ضربًا من العصا خشبية المطعمة بالحديد. ولأنه لم يكن مستعدًا للسماح لهؤلاء الغرباء بالتوغل أكثر في أراضيه، فقد كان لا بد على أتاهاوالبا أن يفتتح معه الحوار. كان اسم هذا الزعيم هاتوي وكان يخدم الملكة أناكاونا. ولأنه كان يجهل عاداتهم، تحدث مباشرة إلى الإنكا، وهو ينظر إليه في عينيه، دون أن يركع، ودون أن يترجل عن حصانه. وردّ أتاهاوالبا عبر تشالكو شيماك. وعلى أي حال، لم يكن أحد يفهم لغة الآخر. لكن بطريقة ما، اتفقا على لقاء الملكة في مكان يدعى باراكوا. ومن المحتمل أن أتاهاوالبا قد تردد في قتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يعيقون طريقه على الفور. وليس أقل احتمالاً من ذلك أن يكون هاتوي قد شعر بهذا التردد، ذلك أنه وجه عصاه نحو السماء، وبصوتٍ مدوّ كصوت الرعد، أصاب نسرًا فأسقطه، ما زرع الذعر بين الكيتونيين. وأعاد هذا الأساطير القديمة إلى أذهان الناس. وصاحت الأصوات: «ثور!» حتى أنّ العملاق روميناھوي أحنى رأسه، كما لو كانت السماء على وشك أن تطبق عليهم. وحده أتاهاوالبا احتفظ بأقصى درجات البرود. فابن الشمس لم يكن خائفًا من الرعد. ومع ذلك، كان يعتقد أنه من الحكمة ترك هاتوي يرحل سالمًا.

في ظروف أخرى، كان سيُعدم كل من ارتعد حتى آخرهم، لكن الإمبراطور المخلوع لم يكن في وضع يسمح له بإضاعة مزيد من الرجال، أضف إلى ذلك، لم يكن لديه نية لحرمان نفسه من أفضل قادته.

5. باراكوا

وصلوا إلى البحر وأدركوا أن الجزيرة كانت شريطاً ضيقاً يمكن عبوره عبر عرضه في غضون أيام قليلة. ولم يأتوا إلى هذا البلد محتلين، بل جاؤوه فارين، ولم يكن هذا، بالتأكيد، دون عواقب على مصير كوبا والعالم. واستبق أتاهاوالبا وصوله برُسل محمّلين بالهدايا: أوانٍ ذهبية وسترات وببغاوات. في المقابل، استقبلته الملكة كحليف قديم، على أنغام الدفوف، ووسط الألعاب والرقصات، وأمطرتهم بالزهور. وجاء الخدم حاملين سعف النخيل والباقات لملاقاة الموكب. ونُظفت القرية، وعلقت أكاليل من أوراق الشجر على الأكواخ المطلية. ولاحظ جنرالات أتاهاوالبا بيوتاً طويلة ذات أسطح خضراء وكير حدادة لا تزال تتصاعد منه خيوط من الدخان الأبيض. وعلى الشاطئ، في وسط الماشية الطليقة، كان ثمة هيكلًا سفينتين عملاقتين. أقيمت مأدبة عشاء، ودعت الملكة الإنكا للجلوس بجانبها. ورأى أتاهاوالبا، الذي لم يكن لديه دائماً غطرسة أخيه، أنه من المناسب معاملتها على قدم المساواة، وتذوق الأطباق بنفسه. كان في هذه المرأة ذات الجمال الباهت حسنٌ أسرّه.

استمرت الاحتفالات إلى وقت متأخر من الليل، وبدأت مرة أخرى في اليوم الموالي. كان الكيتونيون مفتونين. وفي خضم الألعاب والأهازيج، أرادت أناكائونا أن توصل إليهم رسالة من خلال هاتوي، ابن أخيها وحاكم هذا الجزء من الجزيرة، الذي سيعرض عليهم مشهد محاكاة لمعركة، راح خلاله فرسان عراة يطاردون رجالاً يرتدون سترات بيضاء ويدافعون عن أنفسهم بعصي طويلة مطعمة بالحديد. ثم وُجّهت العصي نحو الأعلى، ومرة أخرى أُرعب صوت الرعد الكيتونيين، لكن في النهاية انتصر الفرسان بالمعركة واستعادوا الأسلحة النارية، وهو تفصيل مهم. ورأى أتاهاوالبا، وهو يراقب جنرالاته، الذين كانوا يحاولون إخفاء توترهم، أنّ رسالتها قد وصلت. وفهم أنّ غرباء جاؤوا عن طريق البحر منذ ما يقرب من أربعين حصاًداً على متن قوارب، وتقطعت بهم السبل على الشاطئ، وأنهم قد هُزموا. واستمتعت ابنة الملكة، هيغويناموتا، بأن تسرد عليه القصة. لذلك أقسم الإنكا إنه لم يأتِ لزراع الحرب، ولكن كهارب يبحث عن ملجأ. وطلب الكيتونيون بتواضع اللجوء لدى التاينو: وكان هذا هو اسم شعب أناكائونا. علاوة على ذلك، كان الشعبان يتشاركان في عبادة ثور (إله ثانوي ذو أصول غامضة).

6. هواسكار

لا أحد يعلم كم من الوقت سيتمتع الإنكا بهذه الضيافة. وبدا أن التقاعس عن العمل بالكاد يزعجه، طالما أنّ التعامل

مع الملكة يسره. في الواقع، ما روته عن الأجانب من الشرق كان لا يصدق. وعلم أن عصي النار تتطلب ضرباً من المسحوق لتفجير الرعد الذي لم تكن الجزيرة تمتلك سوى قليل منه أو ربما لا تملكه إطلاقاً، لذلك كان استخدام العصي مقنناً بشكل صارم، ومخصصاً للمناسبات الخاصة، وكان وصول الغرباء الجدد بلا شك إحداها. وعلم أيضاً أن هؤلاء الغرباء القدامى كانوا مهووسين بشيئين: إلههم والذهب، وأنهم أحبوا نصب الصليبان، وأن جميعهم قد قضى نحبه.

استسلم الكيتونيون إلى مباحج باراكوا. واختلطوا بمضيفيهم أحسن اختلاط حتى أن بعضهم خلعوا ثيابهم وساروا عراة، بينما كان التاينو يستمتعون بارتداء ستراتهم. وكانت ذكرى مصاعب الماضي تتلاشى، تاركة الحاضر يتدفق مثل الرمل. غير أن مسيرة المستقبل، الذي حُجب مؤقتاً، قد واصلت تقدمها.

أفادت أعين أناكاونا أن غرباء آخرين، يشبهون الكيتونيين في كل شيء - باستثناء أعدادهم المتفوقة - قد رسوا في جزيرة جامايكا المجاورة. وكان على أتاهاوالبا أن يبلغ الملكة أن شقيقه كان يتعقبه، وأن نيّاته لم تكن حسنة. فعقدت أناكاونا اجتماعاً، بحضور ابنتها وابن أخيها، ودُعي إليه أتاهاوالبا وقادته، بالإضافة إلى زوجته الشقيقة كويا أسارباي.

ما الذي كان هواسكار يريده؟ ما الذي تعنيه هذه المكابرة؟ هل قاده خوفه من عودة أخيه إلى خوض مغامرة بعيداً عن كوزكو، لكل هذه المدة الطويلة؟ لم تكن هذه الأسئلة لتهم التاينو

الذين كانوا يخشون عواقب هذه الحرب بين الأشقاء. قال هاتوي، غاضبًا، للإنكا: «اذهب إلى الجبال، إلى البحر، حيثما تشاء!» عليه أن يهرب مجددًا، لكن إلى أين؟ لم يعد الكيتونيون يعرفون ذلك. وشاهد أتاهاوالبا جنرالاته يقلبون أعينهم في حيرة. حينها أشارت لهم هيغويناموتا إلى البحر، قائلةً: «إنّ الجواب أمامكم». إنه كذلك، ولكن كيف؟ أين تقع هذه الأراضي؟ وكم تبعد؟ كان لا بد من إطلاعهم على الخرائط الموجودة على القوارب. حذق فيها أتاهاوالبا وقومه دون فهم تصوير العالم الذي لم تظهر فيه كوزكو. ولم يتمكنوا من فك تشفير العلامات الصغيرة المكتوبة على الورق. لقد تعلمت هيغويناموتا لغة الغزاة عندما كانت طفلة، ولكن ليس نظام كتابتهم. ولو أنهم علموا كم كانت هذه الخرائط خاطئة، لما وافقوا، بلا شك، على هذه القفزة في الفراغ.

لكن كيف سيعبرون البحر؟ ومجددًا، همست لهم هيغويناموتا: ما فعلته هاتان السفينتان المهجورتان على الشاطئ في اتجاه، ستفعلانه في الاتجاه الآخر. لكن خشبها قد تعفن، ولم يعد صالحًا للإبحار، فضلًا عن أنّ عدد الكيتونيين كان كبيرًا جدًا على قدرة استيعاب سفينتين، رغم كبرهما. غير أنّ حاشية أتاهاوالبا كانت تضم أفضل النجارين في الإمبراطورية. وسرعان ما أصدرت أوامر بإعادة تجهيز السفينتين وبناء ثلاثة أكبر. وحشد شالكو شيماك مهندسيه الذين وضعوا الخطط لهيكل عملاق، مستوحين من النماذج التي كانت أمامهم، ومن خلال كلمات أناكاونا وابنتها اللتين وصفتا لهم السفينة العظيمة التي تحطمت ذات مرة على الصخور، والتي جرفتها الأمواج حتى آخر لوح منها.

في هذه الأثناء، كان جواسيس أناكاونا يراقبون هواسكار. وكان جيش كوزكو لا يزال في جامايكا ولحسن حظ الكيتونيين أنهم لم يكونوا يعرفون في أي مكان يبحثون عنهم. وأرسلت التعليمات إلى سكان الأرخبيل لبذل كل ما في وسعهم لتضليلهم. في نهاية المطاف، سيعثر هواسكار على أخيه، لكنه سيضيع أولاً في هذه الأراضي لمدة طويلة، وكان كل يوم يقضيه في استكشاف جزيرة خاطئة في صالح عمال أتاهاوالبا. وإن لزم الأمر، سيوجهونه إلى هايتي، موطن أناكاونا، لكسب مزيد من الوقت.

قطع رجال أتاهاوالبا الخشب وقصوا الألواح. وعملت النساء على خياطة أسرع متعددة الألوان. وصنع التاينو آلاف المسامير وغمسوها في الزيت لحمايتها من الصدأ. وعادت الهياكل إلى الحياة كما لو أنها قد بعثت من جديد، مثل أفعى غادرت جلودها القديم. وبعثت هذه الولادة الجديدة البطيئة الأمل في حل سعيد لكلا الشعبين: لقد أحب بعضهما بعضاً في مدة وجيزة، وسيفترقان كأصدقاء مقربين. ولا يعني، بالطبع، رحيل الكيتونيين نهاية القصة لأي شخص، فلا شيء يمكن أن يضمن أن السفن ستعرف طريق العودة من حيث أتت، ولا أن هواسكار سينتقم من التاينو، وهو يرى فريسته تهرب مرة أخرى. ولكن بفضل جهد الحطابين والنجارين والخياطات والحدادين، لم يعد الأسوأ مؤكداً. غير أن شيئاً واحداً كان مؤكداً: لن تعود الحياة إلى عهد السابق، فقد كان العالم ينزلق بعيداً عن محوره. لم ترغب الزوجة الشقيقة كويا أسارباي في المغادرة، وشاطرهما الكثيرون هذا القلق، على الرغم من العمل الشاق الذي بذلوه. «أخي، ما

هذا الجنون؟» قالت. كان يتصارع بداخلها الخوف من المجهول مع الخوف من المعلوم. فقد كانت خائفة من معرفتها باقتراب جيش هواسكار، لكنها كانت ترتعد وهي تحقق في الأفق. كيف يمكن للمرء أن يتخيل ما وراء البحار؟ وعرف أتاهاوالبا كيف يعثر على الكلمات المناسبة: «أختي، دعينا نذهب ونرى من أين تأتي الشمس». ولأنه يدرك أن شعبه بحاجة إلى مرشد، فقد تجاهل الرسميات، وخاطبهم جميعاً بهذه العبارات: «لقد انتهى زمن الأرباع الأربعة. سنبحر نحو عالم جديد، عامر بالأراضي التي لا تقل ثراءً عن أرضنا. وبمساعدتكم، سيكون إمبراطوركم هو فيراكوتشا العصر الجديد، وسيمتد شرف خدمة أتاهاوالبا إلى عائلاتكم وقبائلكم لأجيال. وإذا غرقنا يوماً، فليكن ذلك. سنذهب لنجد باتشاكاماك في قاع البحر، لكن إذا نجونا... يا لها من رحلة! دعونا نذهب، لنتجه نحو ربع خامس!» فصاح الكيتونيون، وقد أعادت هذه الكلمات الطمأنينة إلى قلوبهم وبعثت فيهم الشجاعة، بصوت واحد: «لنتجه نحو ربع خامس!»

ومع ذلك، لم تستطع السفن الثلاث استيعاب الجميع، لا سيما أن أتاهاوالبا لم يكن ينوي تقليل حمولته. فقد كان من الضروري تحميل الأطباق والملابس والماشية والطعام. وحسب ما فهمه من تفسيرات أناكوانا، رأى أنه من المناسب أخذ كثير من الذهب معه. ثم اختار بنفسه المرشحين، في البداية حسب رتبهم وفائدتهم: النبلاء، والجنود، وعمّال الدولة (محاسبون، وأمناء محفوظات، وعرافون)، والحرفيون، والنساء... ومع أن مجموعهم لم يتجاوز في المجمل مئتي شخص، إلا السفن كانت محملة فوق طاقتها.

كما أخذوا معهم بعض الخيول واللاما والقوارض (لأكلها). ولم يرغب أتاهاوالبا في التخلي عن كوجره، ولا عن ببغاواته. قبل المغادرة بمدة وجيزة، جاءت هيغويناموتا إلى الإمبراطور وقالت له: «دعني آتي معكم». فأدرك أتاهاوالبا أنها لم تتوقف يوماً عن التفكير في الأرض الغامضة التي أتى منها ذات يوم رجال ذوو بشرة شاحبة. ورأى في وجودها معهم مكسباً يمكن أن يخدمه.

أخيراً، جاء يوم الرحيل. وراح الكيتونيون الذين لم يتمكنوا من الصعود على متن السفن ليكون على الشاطئ. وقبّلت أناكوانا ابنتها. وحيّا أتاهاوالبا، المحاط بجنرالاته، الجزيرة التي رحبت به للمرة الأخيرة، وشعر أنّه لن يراها مرة أخرى.

7. لشبونة

أبحر القوم.

في أثناء الرحلة، أصبحت هيغويناموتا خليعة أتاهاوالبا. وأحب الإمبراطور الشاب هذه المرأة التي كانت في سن والدته، والتي غادرت موطنها بمحض إرادتها بسبب حكايات سمعتها في طفولتها ولم تقدر على نسيانها.

وانكبّا معاً على الخرائط القديمة التي عثرا عليها على متن السفينة وحاولا فك شفراتها. وعرف علماء أتاهاوالبا كيفية استخدام أداة تمكنهم من الإبحار بالاعتماد على النجوم، دون أن تتحرف السفن عن مسارها.

ذات صباح، جاء رومينا هوي إلى غرفة أتا هوالبا الذي كان يشرب
الآخا مع خليلته. لقد كانت الطيور البيضاء تحلق في السماء، ما
يُشير إلى قُرب اليابسة. وحين ظهرت أخيراً اليابسة في الأفق،
كانت الأسابيع التي قضتها ابنة أناكاونا مع خليلها الإمبراطور قد
منحتها معرفة رائعة بالكتيشوا (وكانت لغة أتا هوالبا التي يفضلها
على اللغة الأيمرية، ولكن بلهجة كيتو).

أبحروا على طول سواحل هذه الأراضي الجديدة. وفي إحدى
الليالي، قبيل الفجر بقليل، حدثت أعجوبة أرعبت الطاقم: بدأ
البحر بالانتفاخ، رغم عدم وجود رياح. وهاج إعصار صامت كاد
يحطم السفن الثلاث المنهكة. وكم كان قاسياً أن يلاقوا الموت
على بعد خطوتين من اليابسة، فيما كان كل شيء يشير إلى أنهم
وصلوا إلى نهاية رحلتهم. لكن مهارة القباطنة أنقذتهم من هذه
المفارقة المأساوية.

دخلوا مصب نهر عملاق. وتبدّى لهم برج حجري سميك كأنّه
خرج من الأمواج ليحرس بوابة البحر، وإلى اليمين تلال خضراء
تبشّر ببلد مرحّب. لكن على يسارهم، أشار سهل غمرته المياه
إلى أن النهر الغاضب قد فاضت ضفافه. ويمتد على طول الضفة
صرح حجري أبيض، وطوله بقدر طول أكبر القصور في كوزكو.
توقفت الطيور عن الغناء. ولم يتفوّه الوافدون الجدد، القلقين من
هذا الصمت بكلمة واحدة.

أمر أتا هوالبا بالاقتراب من البرج. كانت جدرانها مزينة
بمنحوتات لحيوانات مجهولة. وافتنن الطاقم برأس حيوان التابير
مع قرن على خطمه. ولكن، كانت هناك أيضاً صلبان منحوتة في

الحجر، تعرفت عليها هيغويناموتا كرمز للغرباء القدامى. وحينها علمت أنهم قد بلغوا غايتهم.

تابعت السفن إبحارها بمحاذاة الشاطئ. وبرز أمامهم أكثر المشاهد غرابة. كانت البيوت الحجرية مهدمة، والنيران مشتعلة في التلال. وتناثرت الجثث على الأرض، وراح الرجال والنساء والكلاب يتجولون بين الأنقاض. كان أول الأصوات التي بلغت مسامع الكيتونيين من العالم الجديد هي النباح وبكاء الأطفال. اتسع النهر مثل بحيرة. وكان على القباطنة أن يبحروا بين حطام القوارب نصف المغمورة في الماء، إلى أن عثروا أخيراً على ساعة واسعة جداً، بقدر اتساع قلعة ساكسايهوامان، أقيت فيها سفن من جميع الأحجام، بعوارض ملتوية، وهياكل محطمة، وصوارٍ منتزعة. وعلى الجناح الأيسر للساحة، بدا أن قصرًا رائعًا يعلوه برج رفيع قد انهار، فرسوا عنده.

لم تكن الساحة، التي يمكن للمرء أن يخمن مدى العظمة التي كانت عليها في الماضي القريب، أكثر من بركة. وغاصت صنادل الكيتونيين في الوحل، وقد بلغ الماء كواحلهم، بما في ذلك كاحلي أتاهاوالبا الإمبراطوريين، الذي ارتأى أنه من الحكمة أن لا يستدعي محفته، لأن الأرض كانت موحلة.

ثم صادفوا ظلال رجال في حالة ذهول، يرتدون خرقة، ويلتفون حول القوارب المحطمة، يحدقون في الفراغ وهم يجرون أقدامهم، وبين الفينة والأخرى يصطدم بعضهم ببعض كأنهم عميان، ولمّا وقعت أعينهم على الزوار، نظروا إليهم بنظرات مبهمة، دون فهم، ودون إبداء أدنى أمارات المفاجأة. وبين الحين

والآخر كان ينبعث من المدينة صوت صرير كئيب، تتلوه صرخات تتحول إلى أنين بائس.

على الرغم من أن الجو لم يكن بارداً، كان الهواء يقضم الأجساد. لم يبال الكيتونيون بهذا، وهم المعتادون على العزلة القاسية لجبال الأنديز، وفتنتهم الصورة البائسة المعروضة أمام أعينهم المُرتابَة. لكن هيغويناموتا، التي قادتهم إلى نهاية العالم، كانت من التاينو، ولم تكن تعرف في الجزر التي جاءت منها سوى فصلين فقط، فصل جاف وآخر رطب، وكلاهما حار. ولاحظ أتاهاوالبا جسدها العاري يرتجف. وكان أفراد الطاقم منهكين ومتوترين بعد هذه الرحلة. فقرر أن يتوقفوا، ويبحثوا عن مأوى. لكن أين سيعثرون على سقف في هذه الساحة المليئة بالأنقاض، يمكنه أن يستوعب مئة وثلاثة وثمانين رجلاً، وسبعة وثلاثين حصاناً، وكوجر، وعدداً من اللاما؟ فعادوا إلى المبنى الذي رأوه في اتجاه مجرى النهر، وهو المبنى الوحيد، إلى جانب البرج القائم وسط الماء، الذي بدا أنه لا يزال قائماً.

كان قصراً طويلاً مقرّناً، مدعوماً بأعمدة رفيعة مدببة مثل الرماح، بدت كأنها تعمل كدعامات، ونوافذ كبيرة مقوسة، تتخلله أبراج صغيرة متناظرة، ويهيمن عليها برج على شكل قبة، نُحت حجره الطباشيري بدقة، حتى بدا كأنه نُحت بالكامل من العظم. كان القصر مأهولاً بأفراد غريبين: رجال يرتدون أردية بنية وبيضاء، رؤوسهم حلقة حتى أعلى الجمجمة، راكعين وأيديهم مشدودة وأعينهم مغمضة، وهم يغمغمون بأصوات غير مسموعة. وحين رأت هذه المخلوقات الزوار أخيراً، شرعت تركض في

جميع الاتجاهات، كأطفال صغار مذعورين، وهم يصرخون، ووقع صنادلهم على أحجار الرصف يملأ المكان. غير أنّ واحداً منهم، كان يرتدي خاتماً ذهبياً في يده اليمنى، وكان أكثرهم هدوءاً وأكثرهم حفاظاً على رباطة جأشه، تقدّم للتحدث معهم. فسأل أتاهاوالبا خليلته إذا كانت تفهم لغتهم، لكنها لم تستطع إلا أن تميّز بضع كلمات: «india, castigo, providencia»، من بين جُمْلٍ ظل تركيبها غامضاً بالنسبة إليها، رغم أنّها بدت مألوفاً على نحو غريب. كانت تظن أنّ محادثاتها مع العجوز الغريب قد طواها النسيان في عمق ذاكرتها، وأنها لم تتذكر سوى نزر يسير من لغته. ومع ذلك، لم يبدُ أنّ هذه المخلوقات، رغم خوفها، مؤذية. أمر أتاهاوالبا قواته بالنزول هنا. وأنزلت الحيوانات من السفن، واستقر الرجال والنساء في قاعة طعام واسعة. حينها قالت هيغويناموتا، مخاطبة صاحب الخاتم الذهبي: «comer». ورأت أنّ الرجل قد فهمها. فأمر أن يُجلب لهم ما يأكلونه: حساء ساخن مع ضرب من البسكويت ذي قشرة مقرمشة وعجين طري أعجبهم مذاقه، إذ كانوا جائعين. وتذوقوا مشروباً أسود مشوباً باللون الأحمر.

وهكذا، وصلت الرحلة الطويلة إلى نهايتها. ونجا جميعهم: الرجال والنساء والخيول والكوجر، من البحر، ووطأت أقدامهم أرض الشمس المشرقة.

في الخارج، كان النهر مغطى بانعكاسات ذهبية، أو ربما كان مجرد قشّ يطفو على السطح.

كان بداخل هذا القصر مكان مقدس مزينٌ بألواح شبه شفافة، حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء. وكان السقف أشبه بشبكة عنكبوت منحوت في الحجر بارتفاع يفوق ارتفاع قصر باتشاكوتي. وعند طرف المبنى، على منصة مزينة بفخامة -رغم أنها لم تكن مغطاة بالكامل بالذهب كما هو الحال في بيت الشمس- ينتصب تمثالٌ لرجل نحيف جدًا مسمر على الصليب. وأظهر الرجال الحليقون في هذا المكان تفانيًا شديدًا. فلم يشك الكيتونيون في أنه كان ضريبًا من الهواكا⁽¹⁾. من كان هذا الإله المسمر؟ سيعلمون ذلك عمّا قريب.

لكن بدا أنّ هذه المخلوقات تتجادل فيما بينها، وأدرك الكيتونيون أنّهم كانوا موضوع الجدل. ثم طفق الرجال الحليقون يزيحون الأنقاض هنا وهناك. فرأى أتاهاوالبا أنّه من المناسب مساعدتهم. وانكب الكيتونيون على إزاحتها كذلك. ولم يكن من الصعب على أي شخص من تاهوانتينسويو أن يخمّن ما الذي حدث: لقد اهتزت الأرض وانفتحت، ثم ضربت موجة هائلة الساحل. وكان أتاهاوالبا ورجاله على دراية بهذه الظاهرة. وكانت رائحة بيض فاسد نافذة تعمّ الهواء، تحملها رياح شرقية خفيفة.

اختار أتاهاوالبا غرفة كبيرة بما يكفي له ولزوجاته، وأمر بوضع حصيرته لينام. وانضمت إليه هيغويناموتا، التي لم تجد مكانًا تعلق فيه أرجوحاتها الشبكية، وكذلك زوجته الشقيقة كويا

(1) الهواكا هو مكان أو شيء ينطوي على قوى خارقة.

أسارباي. واحتفى باقي أفراد المجموعة بأقواس الفناء الداخلي الذي أدخلوا إليه البهائم، التي اقترب منها الرجال الحليقون بدافع من الخوف والفضول معاً، إذ لم يسبق لهم أن رأوا أي حيوان لاما من قبل. وخلدوا للنوم أخيراً، تحت عين رومينا هوي الساهرة، بعد أن طلبوا مزيداً من المشروب الأسود.

8. بلاد المشرق

رغم الخوف الذي كان يملك الرجال الحليقين، لم يستطيعوا كبح فضولهم. من هم هؤلاء الزوار؟ لقد أعجبوا بملابسنا ولمسوا أذاننا، وأذكى هذا تخميناتهم. وغمرهن وجود النساء بإثارة شديدة، لا سيما هيغويناموتا، التي بدا أن مجرد رؤيتها قد أعمت أبصارهم مثل الشمس، لأنهم كانوا يغطون أعينهم بأيديهم ويشيخون أنظارهم لدى مرورها. وأرادوا وضع أحد أكفانهم الرديئة على كتفها، لكنها دفعتهم بعيداً ضاحكة. ولم تكن الأميرة الكوبية ترتدي شيئاً سوى الأساور التي وهبتها إياها والدتها - في رسغيها وكاحليها - بالإضافة إلى عقد ذهبي قدّمه لها أتاهاوالبا. لكن بعد أن لاحظ الحليق ذو الخاتم - الذي كان زعيمهم وكان أعقلهم - أنها تفهم شيئاً من لغته، قادها إلى غرفة حيث كان رجال حليقون آخرون مشغولين بخدش مربعات من القماش الأسود، ذات خطوط صغيرة. وسرعان ما تعرفت على أوراق الكلام المحفوظة في صناديق جلدية، التي تملأ الغرفة إلى السقف، وكانت قد رأتها في السابق. ثم فك الرجل الحليق ذو الخاتم إحدى هذه

الأوراق، وكان مرسومًا عليها خريطة تشبه تلك التي عثروا عليها على سفينة الغرباء. فأدركت أنه كان يحاول معرفة من أي مكان جاءت. فأشار إلى مكان على الخريطة أطلق عليه اسم البرتغال، إلى يساره لم يكن هناك سوى فراغ شاسع، وجزيرة صغيرة في الأسفل.

أخذ كويزكويز عشرة رجال وانطلق لاستكشاف المناطق المحيطة، ثم عاد ليخبر أتاهاوالبا بما رآه: لقد دمر البلد تمامًا. بدت المدينة مترامية ومكتظة بالسكان. وكان سكانها في حالة ذهول، حتى أنهم لم ينتبهوا للوافدين الجدد. كان النهر مليئًا بالأسماك وبدأت الأرض مضيافة، حين لا تهتز. وجلب كويزكويز عينةً معه من حيوان أشبه بلاما قزم، عثر عليه في الطريق. ولم يروا أي طيور في السماء.

انشقت سحب كثيفة، قادمة من الشمال، وأخمدت أمطارها النيران التي كانت لا تزال مشتعلة في التلال. واستغل الكيتونيون كرم ضيافة هؤلاء الحليقيين للتعافي من تعب رحلاتهم الشاقة. ولاحظوا أن المشروب الأسود الذي قدمه لهم مضيفوهم قد تحول إلى اللون الأحمر لدى سكه في أكواب شفافة، وكان لهذه الأعجوبة تأثير كبير فيهم.

حين رأى أتاهاوالبا أن رجاله قد استراحوا بما فيه الكفاية، قرر أن يحرقوا، كما جرت العادة، بقايا الأكل الذي حملوه معهم من كوبا، والذي كان محفوظًا في صناديق. وكانت العادة أن يحرق كذلك الملابس التي كان يرتديها، لكن الوضع غير المسبوق الذي وجد حاكم تشينتشايسويو السابق نفسه فيه، حيث حلّ بأرض

مجهولة، لا يعلم شيئاً عن مواردها من الألبكة والقطن (ولم تثر إعجابه ثياب الأشخاص الذين يعيشون في القصر)، دفعه إلى تأجيل هذا الجزء من الطقوس.

أفرغت الصناديق من السفن. وصعد أتاهاوالبا مجدداً على محفته ليشهد المراسم. وكان يريد أن تُجرى على ضفة النهر، حيث انحسر الماء أخيراً. وقُلّصت مظاهر الأبهة والعظمة المعتادة بسبب قلة الموارد المتاحة لهؤلاء الفارين، لكن الحاكم المخلوع بدا حريصاً، على الرغم من كل شيء، على إعادة تأكيد امتيازات شخصه الملكي، على الرغم من أنه لم يطعن فيها أحد. ولهذه المناسبة، أعار هيغويناموتا معطفه المصنوع من فرو الخفافيش، لأنّ الهواء كان بارداً. وقفت الأميرة الكويبة إلى جانبه، وكذلك فعلت زوجته الشقيقة كويا أسارباي، بينما جلست الصغيرتان كوسي ريماي وكيسبي سيسا عند قدميه. ووقف جنرالاته الثلاثة على صهوة الجياد على أهبة الاستعداد والفؤوس في أيديهم. وبعد أداء الرقصات والأغاني، أشعلت امرأة اختيرت من بين كاهنات الشمس الصندوق الأول على وقع الدفوف. وعلى الفور ارتفعت رائحة اللحم المشوي في الهواء ما جذب السكان المحليين. وكانوا متسخين وثيابهم رثة، ويبدو أن أعينهم الواسعة، المثبتة على الصناديق، لا ترى الكيتونيين. لم يجرؤ أحد على مقاطعة المراسم دون أمر صريح من أتاهاوالبا الذي لم يصدر منه شيء، لكن جميعهم راح يترقب ردود أفعال هؤلاء الوافدين الجدد، الذين اقتربوا من الصناديق في دوائر متحدة المركز. وأخيراً، لم يستطع أحدهم أن يتمالك نفسه، فأدخل يده في الحريق لسحب

عظمة نصف مأكولة. فقبض عليه الحرس على الفور، وكانوا على استعداد لقطع رقبتة، لكن أتاهاولبا أشار بالإبقاء عليه. كان هذا بمثابة إشارة للآخرين. وتأمل الكيتونيون، مذهولين، هذا المشهد الوحشي. فتحت الصناديق وتقاتل المشرقيون على محتوياتها وهم يصرخون. وسارعوا إلى أكل ما في وسعهم وهم يركلون بعضهم لحماية غنائمهم البائسة. وسُمح لهم -من باب الدهشة بالأحرى لا من باب الشفقة- بإنهاء وجبتهم. وحين انتهوا من آخر جزء من عظام القوارض، بدا الأمر كما لو كانوا يستيقظون من حمى خبيثة، فرفعوا وجوههم الملطخة ورأوا أخيراً الزوار، وتجمدوا.

في وقت لاحق، سيُخلد هذا المشهد في لوحة شهيرة لتيتيان⁽¹⁾: أتاهاولبا، شاب، وسيم، بكبريائه الإمبراطورية، على كتفه ببغاء، والكوجر مقيّد بجانبه. تحيط به زوجاته، وهيغويناموتا ترتدي معطفاً بلون برونزي، وصدرها مكشوف، فيما تظهر كوسي أسارباي تعاير اشمنزاز. أمّا أخته الصغيرة كيسبي سيسا فتبدو خائفة من منظر أول المشرقيين الذين شاهدتهم عن قرب. وكان كل الكيتونيين واقفين بلا حراك في ثيابهم الجميلة ذات الألوان المتألئة والأنماط الهندسية، وشعر جواد رومينا هوي الأسود اللامع والخيول البيضاء، بأعرافها المتطايرة في الريح، وكويكويز وتشالكو شيماك. وفي المنتصف، يظهر رجل مشرقي، يجلس القرفصاء أمام كاهنة الشمس المرتعبة، وهو يقضم عظمة،

(1) تيتسيانو فيتشيليو، المعروف باسم تيتان: رسام عصر النهضة، وأحد أهم رواد مدرسة البندقية في القرن السادس عشر.

وشفتاه مطويتان. ويظهر آخر، أكثر فضولاً، يهّم بلمس آذان الإنكا الهادئ. وآخر رакع، ويتوسل، وذراعاه ممدودتان نحو السماء، فيما ينحني الباقون باحترام للإمبراطور.

بالطبع، لم يكن تيتيان موجوداً ليشهد المشهد، ولم يكن الأمر كذلك تماماً.

صحيح أنّ أحد المشرقيين أراد أن يلمس أذن أحد أمراء الإنكا، لكن أتاهاولبا، دون أن يتحرك من محفته، أشار إلى حراسه، فضرب الرجال برماحهم على دروعهم، وفزع جميع المشرقيين وفروا مثل حيوانات خائفة من الرعد.

بعد هذا المشهد، انتشر خبر وصول الكيتونيين. واحتشد المشرقيون في أثوابهم البالية حول قصر الرجال الحليقيين. فأرسل كويزكويز مجدداً للاستطلاع، وأفاد بأن نيّاتهم لا تبدو ودية بشكل خاص، لكنها ليست عدائية تماماً. لذلك اقتصرّت الخرجات على الضروري منها فقط. فبعد كل شيء، كان الكيتونيون آمنين ومحمين خلف هذه الجدران الحجرية. وكانت هناك وفرة من الشراب الأسود، فضلاً عن أنهم لم يعرفوا إلى أين يذهبون على أي حال.

9. كاتالينا

مرت الأيام، واكتمل القمر مرة، أو ربّما اثنتين. وظن الكيتونيون أنّهم باقون هناك حتى نفاذ مخزونهم. لكنّ التاريخ علمنا أنّ قلّة فقط من الأحداث تتجشم عناء الإفصاح عن قدومها، فيما

يستمتع بعضها في إحباط كل محاولات التنبؤ، لكن في النهاية،
يكتفي معظمها بأن يحدث ببساطة.

وحدث أن جاء ملك تلك الأرض إلى قصر الحليقين. وكان
برفقته سيدة شقراء شابة كانت ملكته، وحاشية كبيرة من أمراء
وجنود. كان الأمراء والملكة يرتدون ثياباً أنيقة لم يرَ الكيتونيون
مثيلاً لها بعد لدى باقي السكان. وكانت ثيابهم مصنوعة من
أقمشة ناعمة، وإن لم تكن تنافس أقمشة شعب الإنكا. أمّا الملك،
فكان يرتدي معطفاً بسيطاً وقبعة مسطحة، كلاهما أسود، يتناسب
مع لون لحيته. واكتفى بالتزين بقلادة من حلقات سميكة، يتدلّى
منها صليب أحمر مثبت في حلقة ذهبية. ولم يُثر شعر الملكة
الأشقر اهتمامهم بقدر لحية الملك. ثمّ تحدث الرجل ذو اللحية
السوداء مع رئيس الحليقين أولاً، واستطاع الكيتونيون أن يروا
مدى الاحترام الذي خاطب به هذا الأخير الرجل، وقبّل يديه
وركع أمامه أكثر من مرة، دون أن يقف معتدلاً (لكن أيضاً دون أن
يخلع صندليه).

ثم أعرب الملك عن رغبته في التحدث مع أتاهاوالبا.
ولمّا سمعه الإنكا يقول أنّ اسمه جواو، التفت إلى هيغويناموتا،
وقد بدا له هذا الاسم أشبه قليلاً ببعض أسماء التاينو.
وإذا كان الملك الملّحي قد صُدم بعُري الأميرة، فإنه لم يدع
هذا يظهر عليه. وقال إنه يحكم أرض البرتغال، ثمّ شرّع ذراعيه،
ليشير على ما يبدو إلى إمبراطورية شاسعة، لكن المحادثة كانت
صعبة لأن هيغويناموتا لم تفهم سوى بضع كلمات متناثرة. وردّد
كثيراً كلمة «deus»، التي لم تفهمها. ثمّ مد أتاهاوالبا ذراعيه غرباً

ليشرح من أين جاؤوا. وبدأت الحيرة على جواو، ثم قال كلمة أخرى: «البرازيل؟» لكن محاوريه لم يفهموه أيضاً.

حلّ الصمت. ثم وجه بضع كلمات إلى زوجته، فهمت هيغويناموتا نصفها: سألها أين تجد ترجماناً يتكلم «التركية». فردت الملكة بلطف أنه لأجل هذا عليه أن ينتظر حتى يعود شقيقها منتصراً من «حملته الصليبية» المستقبلية ضد ملك يدعى سليمان، ووجدت هيغويناموتا أنها تفهم الملكة. وهكذا، من أعماق ذاكرتها، تدفقت الكلمات التي اعتقدت أنها منسية: «Habras castellano»⁽¹⁾

حرق الملك والملكة في وجهها بدهشة.

وتلا ذلك محادثة مفعمة بالحيوية بين المرأتين.

سألته الملكة إن كانوا من الهند أم إفريقيا أم تركيا.

فأخبرتها الأميرة أنها جاءت من جزيرة وراء مغرب الشمس.

وقالت الملكة إنهم يعرفون جزيرة نائية تدعى فيرا كروز، حيث اعتاد قوم زوجها الذهاب إليها للبحث عن الأخشاب، لكنهم لم يسبق أن استكشفوها.

وردّت الأميرة إنها رأت أجانب يشبهون البرتغاليين يرسون على جزيرتها منذ زمن طويل، لكنهم كانوا يبحثون عن الذهب وليس الخشب.

فتذكرت الملكة بحاراً من جنوة أراد إثبات كروية الأرض، الذي أرسله جدها إيزابيلا وفرديناند غرباً ليجد طريقاً إلى الهند.

(1) «هل تتحدثين القشتالية؟»

لكنّه لم يعد أبداً، ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على محاولة عبور بحر المحيط.

فأخبرتها الأميرة أنّها عرفت هذا البحار حين كانت صغيرة، وأنّه مات بين ذراعيها.

وسألتها الملكة هل جاؤوا من جزيرة جيبانغو، وهل كان الذي أرسلهم هو الخان العظيم.

فأخبرتها الأميرة أن أتاهاوالبا كان إمبراطور الأرباع الأربعة، دون أن تأتي على ذكر الحرب الأهلية التي شنّها على أخيه وخسرها.

وعلم أتاهاوالبا أنهما كانتا تتحدثان عنه، لكنه لم يتمكن من فهم المحادثة.

وبدا أن جواو يفهم ذلك ولكنه كان صامتاً.

قالت الملكة إنّ اسمها كان كاتالينا وأنّها أتت من بلد يُدعى قشتالة.

ولمست الصغيرة كوسي ريماي لحية جواو الذي سمح لها بفعل ذلك.

وسألت الأميرة عن مدى اتساع البلد التي هم فيها.

فقالت الملكة إنّ زوجها يحكم ممالك وراء البحار، لكن شقيقها يحكم أراضى شاسعة.

عرفت الأميرة أنّ إسبانيا تضم قشتالة وأراغون.

وأخبرتها الملكة عن إيطاليا وروما، حيث كان يعيش رئيس الكهنة، وعن ألمانيا وأمرائها، وكذلك عن أورشليم البعيدة، مدينة السيد المسيح، التي سقطت في أيدي شعب عدو.

ثمّ، سألت الأميرة عن الكارثة التي ضربت هذه المدينة.

فأخبرتها الملكة أنه عندما اهتزت الأرض، انفتح النهر وألقى القوارب في السماء.

تردد في الخارج صدى صوت صرخة حزينة، دون أن يكون من الممكن تحديد إن كان إنساناً أم وحشاً. لذا تحدث جواو إلى الرجل الحليق صاحب الخاتم مرة أخرى، وقد بدا قلقاً وهو يخاطبه بحزم.

وسألت هيغويناموتا الملكة عمّ يتحدث الرجلان، فأخبرتها أنّ المكان الذي هم فيه هو معبد وأن الحليقين هم كهنة. وأوضحت لها الملكة أنّ بعضهم قد تتبأ بحدوث كارثة جديدة وأراد جواو وضع حد لهذه الشائعات. فالتناس هنا يعتقدون أن غضب الرب قد حل على الأرض، وقد زاد من مخاوفهم وتطيّرههم مجيء الغرباء من البحار.

فسألتها الأميرة أي إله تقصد.

مررت الملكة يدها على وجهها وصدرها، في حركة سريعة رأتها الكوبية كثيراً من الإسبان الذين عرفتهم في السابق. ثم غادر الملك والملكة. وكانا يعيشان في مكان منعزل عند الطرف الآخر من النهر، خوفاً من مرض أطلقوا عليه اسم الطاعون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

10. الإنكاد⁽¹⁾، النشيد الأول، المقطع 1

جئتمْ أشاوسَ من شواطئ نائيةٍ
وعبرتمْ بحرًا شديدًا لا يلين طواعيةً
من أرض كوبا، من رمالٍ حاميةٍ
حاربتمْ موجًا كأمثال الجبال العاليةِ
لم تهربوا أسفًا إذا جلت معاركُ داميةٍ
تغزون هاتيك الخطوب ولو بدت مستعصيةً
فكأن عينًا في السماء بدت عليكم راضيةً
وتقيم وحدتكم ممالك سامية⁽²⁾

11. نهرتاجو

في الأيام التي تلت ذلك، لم يغادر أتاهاوالبا غرفته، وكان عنده كثير من الشراب الأسود. لقد أغرقه هذا اللقاء في أحلام يقظة مزعجة. وإن كانت فكرة غزو هذا العالم الجديد - كما غزا أجداده الشمال - قد راودته، فقد أدرك الآن سذاجة مثل هذا المشروع: لا يمكنك الاستيلاء على بلد بأقل من مئتي رجل. وحده الأحقق من يتخيل أن هذا ممكن. فضلًا عن أن حاشية الملك جواو قد

(1) الإنكاد (Les Incades): نسبة إلى الإنكا، وهو اسم لمحاكاة اللوسيا، وهي ملحمة شعرية طويلة كتبها لويس دي كامويس، يسرد فيها تاريخ البرتغال ورحلات المستكشف فاسكو دي غاما، وتتألف من 8816 بيتًا، مقسمة على عشر أناشيد.

(2) استعنا في الصياغة الشعرية بالشاعر حامد الخطيب

منحته لمحة عن القدرات العسكرية للرجال هنا، فهم منضبطون ومجهزون تجهيزاً جيّداً، ولا شك في أنهم يعرفون تماماً كيف يقاتلون عند الاقتضاء.

لكن كان عليه الحفاظ على معنويات رجاله، مهما كان عددهم قليلاً، وكان ذلك يعني منحهم آفاقاً، شيئاً يتشبثون به، وإن كان أملاً واهماً. وكان أتاهاولبا يدرك أيضاً الآثار المميّنة للتقاعس عن العمل؛ ويعلم أنه يجب أن يواصل الطريق، لكن إلى أين؟ الآن بعد أن بلغوا هذا العالم الجديد، إلى أين سيذهبون؟ ما العمل؟ ولم يستطع أن يتخذ قراراً بمغادرة هذا الملاذ الحجري الفني بالشراب الأسود.

كما يحدث لنا جميعاً تقريباً (إذا كنا صادقين بما يكفي لإدراك هذه الحقيقة، بدلاً من تخيل أننا أسياة مصيرنا)، فقد اتخذت الظروف القرار نيابة عنه.

تزايد حشد المشرقيين عند بوابات المعبد، وتعالّت همهمتهم المهدّدة. وفي كل يوم كان يخرج فيه كويذكويز ورجاله للاستطلاع، يجد أنّ أعدادهم قد تزايدت، وكذلك أصواتهم. وذهب بعضهم -القلة الجريئة منهم- إلى حد رشقهم بالحجارة. غير أنّ معظمهم ارتعد حين مروا أمامهم، ولم يجرؤوا على الإقدام على أي فعل، لكن لا أحد يستطيع أن يقول إلى متى سيستمر حاجز الخوف غير المرئي هذا قائماً، قبل أن ينفجر نهر الغضب. وسألت هيغويناموتا الحليقيين عمّا يحدث. فأوضح لها رئيس الكهنة، الذي كان يتحدث القشتالية، أنّ شعب هذا البلد يؤمن كثيراً بالخرافات. ولم يروا في الزلزال ظاهرة طبيعية -كما كان يعتقد هو نفسه-

بل انتقاماً إلهياً، ولم يفتهم ربطه بوجود أتاهاوالبا وشعبه. وانقسم رأي أهل لشبونة: فبالنسبة إلى البعض كان هؤلاء الزائرون أتراكاً، وبالنسبة إلى البعض الآخر، كانوا هنوداً. فيما اعتبرتهم أقلية صغيرة رسلاً من السماء. لكن الأغلبية رأت فيهم مجرد شياطين. وحتى بين أفراد جماعته الحليقيين، لم يُفصل بعد في المسألة. وسألت هيغويناموتا الكاهن كيف رآها، فلم يستطع الرجل أن يشيح نظره عن صدر الكوبية ووركها وأسفل بطنها. وأجابها بصوت مكتوم يشوبه الارتباك: «كمخلوق من مخلوقات الرب». قصت هيغويناموتا هذه المحادثة على أتاهاوالبا، الذي اتخذ فوراً قراره: سيغادرون المكان قبل أن يحل القمر الجديد.

وقايضوا على الطعام والخيول والعربات والفينو⁽¹⁾ (هكذا كان هؤلاء المشرقيون يسمون الشراب الأسود). وقدم لهم سكان البلدة، الذين كانوا سعداء جداً برؤيتهم يرحلون، كل ما يريدونه. تركوا سفنهم الثلاث راسية بالقرب من البرج القائم وسط المياه. وكانت السفن متهالكة ولم يكن من الحكمة الاستمرار في الإبحار بها، لا سيما أنهم كانوا يجهلون مدى طول هذا النهر، الذي يطلق عليه الحليقون اسم نهر تاجة.

بيد أنه لم تكن لدى الكيتونييين وجهة يقصدونها، ولا سبب لديهم لاتخاذ اتجاه دون آخر، لذلك ساروا على طول ضفة النهر، التي أخبرتهم كاتالينا أنها تؤدي إلى قشتالة. لكن ما الذي سيفعلونه هناك؟ لم يكن لدى أتاهاوالبا أي فكرة. لكن «قشتالة»

(1) الفينو (vinho): هو النبيذ بالإسبانية.

كانت مجرد كلمة بالنسبة إليهم، ورغم أنها كانت لا تزال فارغة، لكنها على الأقل تتمتع بقوة الكلمات. ويمكن أن تكون بمثابة هدف مثل أي هدف آخر.

وفي الطريق، صادفوا جثثًا سحقته الأرض، وقرى مدمرة، ومشرقيين منهكين. غير أن ردود الفعل على مرورهم كانت مختلفة جدًا: حيث نظر إليهم سكان قرية ألفيركا كأنهم كائنات خارقة. وفي قرية ألهاندر، طلب منهم الناس الصدقات. فيما استقبلهم سكان قرية فيلا فرانكا دي إكسيرا بكرم الضيافة، على الرغم من الفقر المدقع الذي أصاب سكانها. من ناحية أخرى، كان عليهم القتال مع سكان سانتاريم، الذين استقبلوهم بضربات المذاري، وقد تملكتهم رغبة مسعورة للقتل يتعذر كبجها.

مع مرور الأيام، لاحظت هيغويناموتا أنها تفهم أكثر وأكثر كلام المشرقيين الذين التقوهم في الطريق.

وعرف أتاهاوالبا ما يعنيه هذا: لقد وصلوا إلى قشتالة. لكنه طلب من رفيقته الكوبية ألا تفشي الأمر. وتابعوا السير على طول ضفة النهر. ورغم كل شيء، كانت حياة التجول هذه أفضل من الوقوع بين يدي هواسكار، أو الهلاك في البحر، وقد اعتادت قواته هذا منذ الفرار من كيتو.

وهكذا ساروا، وتوغلوا في الأراضي أكثر، مرورًا بالطرق والقرى، إلى أن وصلوا إلى مدينة تدعى طليطلة.

وجدوا هذه المدينة جاثمةً على تلة صخرية، فأحبوها على الفور.

كان ثمة جسر حجري يقطع مضيق نهر تاجة، وأسوار مذهلة تحيط بالمدينة، ومعبد يرتفع نحو السماء، وقصور ضخمة بدت كأن يد فيراكوتشا العملاقة هي من وضعتها. بدت طليطلة لهؤلاء الرحالة قلعةً منيعة، لكن حراس الجسر، تتحوا جانباً حين رأوا وصول موكب الإنكا، ليسمحوا لهم بالمرور، دون طرح أي أسئلة.

انتشرت فرقة أتاهاوالبا عبر الأزقة الضيقة. وكانت الدكاكين كثيرة، لكنّ المدينة بدت مهجورة. ثمّ تناهى إلى مسامعهم صوت ضجة، قادهم إلى ميدان كبير تجمّع فيه جميع السكان. وبدا من الجلي أنها كانت مناسبة خاصة.

أثار المشهد اهتمام الكيتونيين. وحتّى أتاهاوالبا نفسه لم يستطع إخفاء تعبير طفيف عن الفضول، وهو المعروف بقدرته المثيرة للإعجاب على ألا يفقد أبداً وقاره الإمبراطوري، حتى أمام أكثر الأشياء والمواقف إثارة للدهشة.

في وسط الميدان، وقف رجال ونساء، كما لو كانوا محبوسين في قفص، مرتدين قبعات مدببة وأردية، بعضها أصفر، وبعضها أسود، رسم عليها صليب أحمر وألسنة لهب. وكانت ألسنة اللهب على الأردية الصفراء مقلوبة إلى أسفل. وتلف الحبال أعناق بعضهم. وكان جميعهم يحمل شمعة طويلة مطفأة في أيديهم،

وبجانبهم صناديق سوداء ودمى بحجم البشر.

اصطف أمامهم، حول صليب أبيض كبير يبدو جلياً أنه نصب خصيصاً لأجل هذه المناسبة، رجالٌ حليقون، يشبهون إلى حد ما رجال لشبونة، وهم يصفون إلى أحدهم يلقي خطاباً طويلاً وهو يشير بإصبع الاتهام إلى أصحاب القبعات المحبوسين.

من جانب الميدان، رصدت هيغويناموتا الكاسيك: كشفتهم ثيابهم الأنيقة ووقارهم. وكان ثمة شابة شقراء تشبه كاتالينا، بنفس الهيئة الرفيعة ونفس العينين، يجلس بجانبها رجل أصلع يرتدي رداء أحمر، وجهه هزيل ونحيف، كأنه محنط. ويقف خلفهم جنود لحمايتهم على ما يبدو.

كان يشغل ما تبقى من الميدان حشدٌ كثيف وحيوي، يصفون باهتمام إلى الكلمات المنطوقة على المنصة، ويهتفون على مدد منتظمة، أو يكادون يرقصون.

لم تستطع هيغويناموتا فهم هذه الخطب الغريبة، وكانت بعض المقاطع بلغة لا تعرفها، ولم يكن الكلام في مجمله واضحاً بالنسبة إليها. في تلك الأثناء، طُلب من أصحاب القلنسوات التراجع، لكنها لم تفهم تماماً سبب المحاكمة. وأخذوا يتناوبون على التقدم مرددين: «*si, yo creo*»⁽¹⁾ على الأسئلة التي تطرح عليهم، باستثناء أولئك الذين كُمت أفواههم.

عرفت الأميرة الكوبية أن هذا كان طقساً مهيباً من نوع ما، لكن لم يكن لديها أي فكرة عما يعنيه كل ذلك، ولا رفقاءها أيضاً.

(1) تعني بالإسبانية: نعم، أنا أؤمن.

اقترب بخجل منها شاب أنيق -رغم ثيابه التي توحى بالفقر- وهو يحدق إليها تحت معطفها المصنوع من فرو الخفافيش. وبينما كانت الهتافات تتصاعد في الهواء، سألته عن معنى كل ذلك. كان الشاب الخجول قد تراجع لكنه تجرأ، عكس الكهنة، على النظر إليها.

كان الأمر يتعلق بالحكم على الكونفرسو⁽¹⁾ الذين يُشتبه في أنهم ظلوا أوفياء لدينهم القديم وللتهود. وقد يكونون أيضاً محمدين أو متورين أو لوثرين، على الرغم من أنهم كانوا قلة في المنطقة. وحُكم على بعض من هؤلاء الموجودين في الميدان بتهمة التصريحات غير اللائقة، أو التجديف، أو المعتقدات الخرافية، أو الجمع بين زوجتين، أو اللواط، أو السحر (في بعض الأحيان كانت التهم متراكمة). لكن عقوبات هؤلاء كانت أخف: غرامة، أو جلد، أو سجن، أو العمل في القوادم. وأوضح لها الشاب أن السنة اللهب المتجهة نحو الأسفل كانت مخصصة لمن نجا من المحرقة. ثم أشار إلى إحدى القلنسوات، وأخبرها بأن صاحبها قد اتهم بالطهي بزيت الزيتون بدلاً من شحم الخنزير. أو على الأقل هذا ما ترجمته لأتاهوالبا، رغم أنها لم تكن متأكدة من إن كانت تفهم تماماً طبيعة هذه الجريمة الأخيرة. واستمرت الأهازيج.

وبحسب الشاب فقد كان هؤلاء القضاة ثعابين سامة، وأمهاتهم

(1) - الكونفرسو أو اليهود المتخفون: هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر، لكنهم يحتفظون خفية بدينهم القديم، وكان ظهورهم في شبه الجزيرة الإيبيرية إبان محاكم التفتيش، وعرفوا بتسميات أخرى كالمسيحيين الجدد والمارانوس.

بعن أجسادهن للغرباء. غير أنه كان يحترم واحداً منهم دَرس في مدينة تدعى شلمنقة -وهي مدينة مكرسة تماماً للتعليم- وتحوي كل معارف العالم، وفقاً لكلامه.

على المنصة، أزيحت قطعة قماش سوداء لتكشف عن صليب أخضر اللون. ثم توجه رئيس القضاة بالكلام للكاسيك. كانت الشابة الشقراء ملكة هذا البلد، والمومياء في الثوب الأحمر وزيرها.

طالت المراسم حتى أنهم وزعوا وجبات خفيفة على المشاركين والقضاة والمتهمين والأعيان.

ثم أخذ الرجال المسلحون المحكوم عليهم ذوي الرداء الأسود، وكذلك الصناديق السوداء والدمى ذات الحجم البشري. ودفع الفضول أتاهاولبا لتتبع هذا الموكب. ولأنه لم يتنازل لإبلاغ قاداته بنياته، أمر رومينا هوي الآخرين بانتظاره وذهب معه، وكذلك فعلت هيغويناموتا، التي لم تر أن الأمر يسري عليها، ورافقها الشاب المشرقي الخجول.

ساروا إلى ساحة أخرى حيث أقيمت أعمدة، حولها حلقات وحزم من الخشب. وأشعل الجنود المحارق الأولى التي ألقوا فيها أولاً الصناديق السوداء والدمى ذات الحجم البشري.

ثم ربطوا المحكوم عليهم بالأعمدة. ووفق منطق غامض لم يستوعبه الكيتونيون، فقد خنقوا بعضاً منهم قبل أن يلقوا بهم في النيران - وقد شرح لهم الشاب الخجول أن هذا كان من باب الرأفة- لكن البعض الآخر أحرقوا أحياء، ولا بد أن جرائمهم كانت أكثر خطورة. ثم رسم الجميع تلك العلامة التي رأوا كاتالينا

تفعلها، وهي تحريك يدها على وجهها وصدرها.

لم تكن التضحيات بالبشر غريبة على الإنكا. لكن يمكننا القول إن أتاهاوالبا قد صُدم -وإن لم يظهر ذلك- بمشهد الجثث وهي تتلوى وتحترق، وبصرخات المعذبين.

وقف الحشد هناك يحدقون في الحرائق حتى وقت متأخر من الليل.

والآن لم يعد من الممكن تجاهل وجود الكيتونيين، فجاؤوا للبحث عنهم لتقديمهم إلى الملكة.

كان اسمها إيزابيلا، وكانت أخت جواو، ملك البرتغال، غير أنها تحدثت بالقشتالية، مثل كاتالينا، لتتمكن هيغويناموتا من فهمها. والحق يُقال، كانت تتفوق في الجمال على أخت زوجها، وتبدو من زينتها أكثر ثراءً أيضاً. وكان زوجها يحكم بلاد إسبانيا ومنطقة نائية أسمتها «الإمبراطورية الجرمانية المقدسة»، التي كان عليه أن يسيّرهما من البلد الذي ولد فيه، في أقصى الشمال، وأن يدافع عنها ضد إمبراطورية منافسة، في الشرق.

وكان شقيقها قد كتب لها يحذرهما من قدوم هنود من الغرب. لكنّها أرادت أن ترحب بمن ظنّت أنهم سفراء من جيبانغو أو كاثاي⁽¹⁾، الأمر الذي أجبرها -كما قالت ضاحكة- على الاعتراف بكروية الأرض.

وظن أتاهاوالبا أنّه لاحظ نفاد الصبر، أو على الأقل بعض التحفظ، لدى بعض الحليقيين الذين كانوا يستمعون إلى هذا

(1) هو الاسم الذي أطلقه الأوروبيون على الصين في القرون الوسطى.

الخطاب، لا سيما المومياء ذات الرداء الأحمر. ثم سألهم أحدهم، واسمه فالفيردي، وقدّم نفسه على أنه أسقف وقاضي محكمة التفتيش، إن كانوا يعرفون الثالوث المقدس. فأجاب أتاهاولبا أنه لا يعرفه. وتبع ذلك صمت طويل.

أُنزل الكيتونيون بقصر، واعتُيَ بحيواناتهم.

وفي اليوم الموالي، تجولوا في الشوارع، وأثاروا لدى السكان فضولاً غير مبالغ فيه، ربّما لأنّهم كانوا متخمين، ولم يستيقظوا بعد من مراسم اليوم السابق.

كان من بين قوم أتاهاولبا حدّاد ذو شعر أحمر يُدعى بوكا أمارو، وجد أنّ الأسلحة التي يصنعها الحرفيون في طليطلة تضاهي في جودتها تلك المصنوعة في لمبايكة. فأبلغ رومينا هوي بملاحظاته، ليكلّفه هذا الأخير بصيانة أسلحتهم. فراح بوكا أمارو يجمع الفؤوس، والسيوف، والرماح، والهرافات ذات الرؤوس النجمية، وينقلها إلى الحدادين المحليين، الذين اهتموا ببراعة المصنوعات الحديدية. وراحوا معاً يزيّتون، ويشحذون ويقايضون. وأعجب بوكا أمارو أيما إعجاب بمدى توافر الأدوات الجيدة: فكانت المبارد، والأزاميل، والمنافيخ ذات جودة بارعة، وكان يمكنه ورجاله أن يطرقوا الحديد على سنادين جيدة. على الجانب الآخر، أثارت المطارق النجمية اهتمام أهل طليطلة، وأحبوا كذلك الفؤوس الطويلة، وكان لديهم ما يشبهها ويطلقون عليها اسم الألباردا⁽¹⁾. في المقابل، عرضوا سيوفاً مستقيمة ذات مقابض

(1) الألباردا (alabarda): المطرود (سلاح).

متقاطعة وسيوفاً منحنية تشبه المناجل الطويلة. وكان هذا -بعد اكتشاف المشروب الأسود المشوب بالحمرة- أحد أول التبادلات الثقافية بين الكيتونيين وسكان العالم الجديد. إلى جانب ذلك، لم يكن مشروب طليطلة الأسود أقل لذة من مشروب لشبونة. وروت لأتاهوالبا بضْعُ شابات من قومه عن الخوف الذي اعترى بعض الحليقيين حين اقتربن منهم في لشبونة. أمّا في طليطلة، فقد اختلط الرجال والنساء دون حرج.

لكن هذا الوفاق لم يدم.

بدا السؤال حول الثالوث المقدس مشكلة بالتأكيد بالنسبة إلى الكهنة المحليين، الذين اجتمعوا فيما يشبه مجلساً أطلقوا عليه اسم سوبريما. وأظهروا رغبة عنيدة في معرفة إن كان أتاهوالبا يؤمن أن يسوع هو ابن الرب، أم لا. وأجاب أتاهوالبا بأن فيراكوتشا قد خلق العالم منذ وقت طويل، لكن من جانبه، لم يعد يؤمن بباتشاكاماك، ابن الشمس والقمر. وبدا أن هذا الرد، الذي افترض أنه سيرضيهم، قد أخرجهم أكثر، لأنهم صمتوا، ونظر شزراً بعضهم إلى بعض.

واستقر الرأي على أن ينتظر الكيتونيون عودة الملك شارلكان، زوج إيزابيلا، وقد أرسل لإبلاغه على الفور بوجود أتاهوالبا والوفد المرافق له. ومع ذلك، رفض الكاهن ذو رأس المومياء، ويدعى تافيرا ويُلقب بالكاردينال، استدعاءً الملك، فعلى حد قوله، كان للملك أمور أكثر أهمية ليسويها في رقعة من الشمال تُدعى هولندا.

لم يكن هذا رأي الملكة إيزابيلا، فقد كانت تريد عودة زوجها. وطلبت من مجلس السوبريما، وبالأخص القس فالفيردي، التوقف عن مضايقة ضيوفها. ورغم أن طلبها جاء بكثير من اللباقة، بدا مجلس سوبريما متردداً في الموافقة عليه. واستمرت الأسئلة حول عدد الأسرار المقدسة وعزوبة الكهنة. وجاء رد أتاهاوالبا أنه في بلده، أوكلت الأمور المتعلقة بالآلهة إلى الكاهنات. وقد كُرست نساء مختارات لعبادة الشمس وخدمة الإمبراطور. فهاج المجلس بالكامل. وحتى يستميلهم، أرسل أتاهاوالبا من حاشيته كاهنة ورعة، تشرح لهم دينهم، بعد أن أظهروا اهتماماً شديداً به. لكنهم رفضوا استقبالها.

بعد مدة، جاء رجال كويزكويز بخبرٍ ذاع في المدينة مفاده أن هؤلاء الزوار هم من الموريين⁽¹⁾ أو من الترك. وترددت كلمة hereticos⁽²⁾ كثيراً، وفهم كويزكويز أن الكلمة ليست مجاملة. وذات ليلة، جاءت امرأة عجوز لتحذر هيغويناموتا من أن مجلس السوبريما قد قرّر اعتقالهم جميعاً عند فجر اليوم التالي، وبعد ذلك سيحاكمونهم ويحرقونهم مثل الكونفرسو. وكانت العجوز يهودية رأت أفراد عائلتها يُحرقون، ولم يبق لها سوى ابن واحد. سارعت هيغويناموتا لتبلغ أتاهاوالبا بتحذير المرأة العجوز.

(1) المصطلح مشتق من الكلمة اللاتينية "Maurus"، وقد استخدم في الأصل لوصف البربر وسكان موريتانيا، المقاطعة الرومانية القديمة، ما يعرف الآن بشمال إفريقيا. ومع مرور الوقت، التصق الاسم أكثر بالمسلمين الذين يعيشون في أوروبا. ومنذ عصر النهضة، استخدمت كلمة "مور" أيضاً لوصف أي شخص ذي بشرة سوداء أو سمراء.

(2) هراطقة.

واجتمعوا مع الجنرالات وكويا أسارباي ليعزموا على خطة العمل. وقد أدرك الكيتونيون أنّ أمراً خطراً كان يدور هنا حول مجموعات مختلفة من الأديان: اليهود والكونفرسو، والمور المحمديين، واللوثريون، والمسيحيون القدامى والجدد. غير أنهم لم يفهموا تماماً ما الذي كان على المحك خلف هذه القصص عن الإله المسمر والطهي بشحم الخنزير، لكنهم كانوا يعلمون أن المشرقيين يأخذون كل شيء على محمل الجد، كما بدا جلياً من مراسم الحرق.

واتفقوا على خطة: كان لا بدّ من عزل مجلس السوبريما، والحراس، وحاشية الملكة، وحاشية تافيرا، وكل الجنود في البلدة. في الواقع، كان لا بدّ من عزل جميع السكان، إذ كان من المستحيل التنبؤ بردود أفعالهم، لكن أعين كويزكويز أفادت أنّهم قد يكونون معادين أيضاً.

اعترضت هيغويناموتا على أنّهم ليسوا جميعاً مذنبون، وأنّه كان من بين السكان، بالإضافة إلى اليهودية العجوز التي جاءت لتحذيرها، ضحايا محتملين لمجلس السوبريما مستقبلاً.

فأجابت كويا أسارباي أنّهم سيكونون ضحايا عاجلاً أم آجلاً، ولذا لا داعي لحل هذه المشكلة. بل أكثر من ذلك، سيكون في قتلهم الآن رحمة لهم، إن كان ينجيهم من المحرقة.

لكن تشاكلو شيماك لاحظ أنّ هؤلاء الأشخاص -الكونفرسو، أو الموريين، أو السحرة، أو المعدّدين، أو المتعصبين، أو اللوثريين، أو مهما كانت تعنيه هذه الأسماء- قد يكونون الحلفاء الوحيديين للكتونيين، الذين لا حليف لهم على هذه الأرض.

وسأل كويزكويز كيف يمكن للمرء، في مثل هذه الحالة، أن يتعرف على أولئك الذين يجب إنقاذهم.

ورأت هيغويناموتا طريقة بسيطة لمعرفة ذلك: المسيحيون وحدهم من يقومون بإشارة تمرير اليد على الوجه والصدر. وكانوا يفعلون ذلك طوال الوقت، وفي أي شأن. وبناءً على ما تتذكره عن الإسبان الذين عرفتهم حين كانت طفلة، فقد كانوا يفعلون ذلك أكثر حين يرون الموت يقترب. والآن، كان أولئك المهددون بالحرق، تحديداً، هم أولئك المتهمون بأنهم ليسوا مسيحيين صالحين.

قال رومينا هوي إنه في هذه الحالة، سيتعين فقط تجنب أولئك الذين لم يرسموا العلامة، وقتل أي شخص آخر. وقرر أتاهاوبا أن الأمر سيكون على هذا النحو، بقدر ما يمكنهم ذلك.

وزعوا الأسلحة وجهزوا الخيول في الخفاء. كان الجميع، بما في ذلك النبلاء والنساء والأطفال الذين تؤهلهم سنهم لحمل الفؤوس، مستعدين للقتال. لم يقطعوا هذه الرحلة برمتها، ولم يهربوا من انتقام هواسكار، ولم ينجوا من العواصف لينتهي بهم المطاف بأن يُشوّوا مثل القوارض، أو يخنقهم المتوحشون ذوو الشعر.

قبيل الفجر بوقت قصير، أعطى كويزكويز الإشارة. في البداية، حاصروا عمال الأسطبلات، ثم قتلوا حراس القصر، وسجنوا الكهنة والكاسيك. وحجزوا الملكة في غرفتها. ثم باغتوا الجنود، وقتلوا منهم الكثير قبل حتى أن يفكروا في

الدفاع عن أنفسهم. والتقطوا عصي النار من جثثهم. بعد ذلك، أخرجت الصيحات السكان من منازلهم، واندفع الكيتونيون على ظهور الخيل في الشوارع.

لقد كانت مذبحه عظيمة. وكانت سيوف طليطلة وفؤوس لامبايكة تشج وتقطع دون تمييز في المهنة أو العمر أو الجنس. وذهبوا ليذبحوا الناس في منازلهم. وقُتل، مثل الآخرين، كل من حاول الدفاع عن نفسه. ولجأ البعض إلى معبدهم الذي يطلقون عليه اسم الكاتدرائية، فأحرقه كويزكويز. ولم ينجهم إلههم المسمر. تعرّض الشاب الخجول، الذي سبق أن اقترب من هيغويناموتا، للهجوم؛ فلجأ إلى المداخل المسقوفة، وأراد الاختباء في الأفنية الداخلية للمنازل، لكن لحقت به مجموعة من الكيتونيين الغاضبين، فهرب عبر أسطح المنازل، لكنه انزلق ووقع على الأرض. وقد شعر بالموت في أعقابه، وتناهد إلى مسامعه صرخات الحرب. ووجد نفسه وجهاً لوجه مع بوكا أمارو، الذي حطّم كتفه بالفأس النجمية. لكن تمكن الشاب الجريح من النهوض، تدفّعه الرغبة في الحياة، ليستأنف سباق الطرائد هذا.

استمرت المذابح. وفي هذه الأثناء، توجّه أتاهاوالبا للبحث عن أعضاء مجلس السوبريما. وسألهم لماذا خططوا لإبادته وقومه، فصاحوا، مشيرين إلى تمثال لإلههم المسمر على الحائط. وراحوا يؤدون تلك العلامات بشكل محموم، حتى أن بعضهم هوى على ركبته، كأن البرق ضربه، أو أصابته الرعشة.

أراد أن يشرح لهم أنّ الإله الذي يطالب بإحراق الرجال أحياء، مهما كانت جريمتهم، هو إله سيئ، لأنّه لا بدّ من الحفاظ على

جثث الموتى حتى يتمكنوا من الاستمرار في الحياة بعد الموت.
وأن مثل هذا الإله لا يستحق أن يُعبد.

بيد أنه في ذلك الوقت لم تكن هيغويناموتا معه لتعمل ترجماناً
له، لذا رأى أنه من الأسهل إعدامهم. وسيعرض رؤوسهم كمثال
للآخرين. ومات القس فالفيردي وهو يتلفظ الشتائم التي لا يمكن
لأحد أن يفهمها.

كانت الأميرة الكوبية قد خرجت لتتأكد من أن السيدة العجوز
التي حذرتها لم تُصب بسوء. وكانت هذه الأخيرة تعيش مع ابنها
في حي استثنائي من الهجوم، بعد أن لاحظ الكيتونيون أن لا أحد
هناك يؤدي علامة اليد.

في تلك الأثناء، سمعت صيحات تلاها ما يشبه صخب موكب
من الناس. ثم اتجهت نحوها هيئة بشرية ملطخة بالدماء وارتمت
عند قدميها، وفي أعقابها مجموعة من الكيتونيين، يقودهم
الحدّاد ذو الشعر الأحمر. فتعرفت على الشاب الخجول وأمرت
ملاحقيه بتركه. لكن بوكا أمارو، الذي تردّد في الاعتراف بسلطة
أميرة أجنبية، قال إن الأوامر كانت واضحة ولا بدّ من تنفيذها.
حينها تقدمت هيغويناموتا نحوه حتى لامس رأس السيف الذي
كان يمسكه صدرها، وكان يعلم أن في لمسها حتفه. فتراجع ومن
معه على مضض.

انحنى هيغويناموتا على الشاب الذي كان لا يزال يتنفس،
وسأله: «como te llamas؟ فهمس: «بيدرو بيزارو»⁽¹⁾. وقررت
حينها أن تتخذه خادماً لها إذا نجا من إصاباته.

(1) في التاريخ الحقيقي بيدرو بيزارو (1515 - 1602) هو مؤرخ إسباني وأحد غزاة أمريكا الجنوبية. وهو مؤلف كتاب "سرد اكتشاف وغزو ممالك بيرو"، الذي كتبه عام 1571.

في غضون ساعتين قتلوا أكثر من ثلاثة آلاف شخص.

لدى عودة هيغويناموتا إلى القصر، استدعاها أتاهاوالبا لتكون ترجمانه. واستدعى هذا الأخير الملكة والكاسيك الذين سجنهم وسألهم عن سبب رغبتهم في اغتياله. فأجابوا أنهم ليسوا هم ولكن قضاة محاكم التفتيش هم الذين جرّوهم إلى هذه القضية؛ وأن محاكم التفتيش المقدسة كانت خارجة عن سلطتهم، وأنّ الملك شارل كان لم يكن ليوافق على مثل هذه الجريمة، لو بلغه ذلك.

بعد أن عاتبهم على غدرهم، أطلق سراحهم. وفي اليوم التالي، امتلأت المدينة بالنساء والأطفال، كأن شيئاً لم يحدث.

طيلة الأسبوعين اللذين قضياهما في طليطلة، ساد المدينة وضواحيها شعور عميق بالسلام. وعمّ الصخب شوارعها حتى بدا كأنّه لم يُفقد منها أحد. واستمر البيع والشراء في الأسواق كالمعتاد. وحدها رؤوس الكهنة المعروضة في الساحة الرئيسة تُذكّر بالأحداث الأخيرة.

بيد أنّه كان على أتاهاوالبا، المسؤول عن شعبه وإن انخفض عددهم إلى أقل من مئتي نفس، أن يقرر المسار الذي ينبغي أن يسلكوه. فأمر بإحراق الصليب الأخضر الكبير الذي رافق مراسم قضاة التفتيش، لكنه ارتأى أنه من الحكمة في الوقت الحالي أن لا يأمر بإنزال تماثيل الإله المسمّر التي تعد ولا تحصى.

وجدّد للملكة ووزيرها تافيرا رغبته في لقاء الملك شارل. فأخبرته الملكة أن زوجها ذهب للدفاع عن مدينة شرقية كبيرة أمام تهديدات الإمبراطورية التركية المنافسة، لكن الساعة غادروا لإبلاغه بوجودهم.

كان عليهم الانتظار، لكن أتاهاولبا يعلم أن الانتظار هو زوجة أب تقرض معنويات الجنود، لا سيما إذا ما اقترن بالتقاعس عن العمل.

وأشار تشالكو شيماك إلى أنه ربّما من الأفضل أن لا يمكثوا في مدينة قتلوا ثلاثة آلاف من سكانها للتو.

واقترح كويزكويز الذهاب لمقابلة شارلكان لكن رومينا هوي اعترض على ذلك طالما في مقدورهم الاستفادة من زلزال لشبونة، والاضطراب الذي أحدثه لدى وصولهم، أمّا السير نحو حرب فلا يعرفون عنها شيئاً، ولا عن الجيوش التي تخوضها، ولا ميدانها، ولا يفهمون تفاصيلها، فهو أمر ينطوي على كثير من المخاطر والشكوك، لا سيما أن مجموعتهم كانت تتألف في الغالب من مدنيين، وإن كان عودهم قد اشتد بعد أكثر من عام من القتال من أجل حياتهم.

وهكذا، مثلوا أمام الملكة. وكانوا قد اتفقوا مسبقاً على أن تستقبلهم أمام الملء، إذ لم يرغبوا في تجريدها من مظاهر سلطتها الملكية، ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن آداب السلوك في هذه البلاد. وارتدى أتاهاولبا صدرية ذهبية وعباءة بيضاء طويلة من وبر الألبكة أثارت إعجاب الحضور المشرقيين، لكنه قرّر ألا يتكلّم. لذلك قالت هيغويناموتا إنهم جاؤوا لطلب جواز عبور.

فسألتها الملكة: Adonde؟

ردت الكوبية: «إلى شلمنقة».

نظرت الملكة بقلق إلى وزيرها ذي رأس المومياء. فسأل الكاردينال تافيرا لماذا اختاروا هذه الوجهة. ردت هيغويناموتا

أنَّهم يرغبون في استغلال الوقت الذي كان عليهم قضاؤه في انتظار عودة الملك شارل كان لدراسة تاريخ مملكة قشتالة وعاداتها، وتاريخ العالم الجديد عمومًا.

«Barbari qui studeant»⁽¹⁾ قال تافيرا وهو يقلب عينيه..

على أي حال، لم يكن المشرقيون، في هذه اللحظة، في وضع يسمح لهم بالجدال. وأصدر لهم جواز عبور، مع خطابات توصية موجهة إلى أبرز علماء اللاهوت في شلمنقة.

وجاءت العجوز التي حذرت هيغويناموتا للبحث عنها. وقد أرادت الانضمام إلى الكيتونيين، مع ابنها، ولكن أيضًا مع عشرين آخرين. ظلت تردد: «!Cubanos! Cubanos!». فأدرك أتاهاوالبا، الذي كان يستمع دون أن يفهم، أنه في نظر المرأة العجوز، وربما في نظر معظم المشرقيين الذين التقوهم، بمن فيهم الملكة والكاردينال، كانوا جميعًا كوبيين، مثل ترجمانته. وأراد أن يعرف السبب الذي يدفع هؤلاء الناس للرحيل معهم. فأخبرت المرأة العجوز هيغويناموتا أنه بعد مغادرتهم، سيأتي قضاة تفتيش آخرون، وسيواصلون اضطهادهم.

وهكذا تلقى أتاهاوالبا مدده الأول: عدد قليل من العائلات من الكونفرسو المنكوبين، وحفنة من الهراطقة الشاحبين والمتهورين إلى حد ما، وكذلك الشاب بيدرو بيزارو شبه الميت.

(1) باللاتينية، وتعني: برايرة يدرسون!

لطالما وجد الملك الشاب -إن لم يكن هدفًا يجعل قومه ينسون أنفسهم- فعلى الأقل وجهةً يقصدونها، أو طريقًا يسلكونه، أو دافعًا من شأنه أن يوحد جنوده ويمنحهم الزخم والقوة، حتى لا تتحول هذه الرحلة المستحيلة، وغير المسبوقة (التي قادتهم أولاً إلى بوابات كوزكو، لتأخذهم بعيدًا لاحقًا، ليلا مسوا سرّة العالم قبل أن ترسلهم إلى حدوده) إلى مجرد تيه، أو على الأقل كي لا تدرك عصابة الكيتونيون، الواحد تلو الآخر، أنه قد ألقى بهم إلى ضفاف الجنون. كانت دماء باتشاكوتيك تتدفق في عروق أتاهاوالبا، وكان هذا بلا شك هو ما يقود قراراته حتى هذه اللحظة، أكثر من أي شيء آخر، فهو لم يكن قد درس بعد الفلسفة السياسية لأحد مشرقى فلورنسا، الذي تؤكد مؤلفاته هبات الحكم التي أورثها له جده الأكبر، المعروف بلقب المصلح.

في طريقهم إلى شلمنقة، توقفوا عند بوابات بلدة تدعى مأكدة. ولمّا توجس أتاهاوالبا من أن تكون أخبار مذبحه طليطلة قد انتشرت في المنطقة، عسكر خارج البلدة، وأرسل كويزكويز، كما كان يفعل في عملياته الاستطلاعية، برفقة هيغويناموتا لمعرفة باللفة.

تجمع القرويون في معبدهم. ودخل كوزكويز وهيغويناموتا، التي اهتمت بإخفاء عريها تحت عباءة، وحضرا مشهدًا غريبًا. كان رجل حليق يتحدث في قُمْرة خشبية أمام جمهور مشّت إلى حد ما. وكان المشهد الذي حضره الزائران مختلفًا تمامًا عن

المراسم المهيبة التي انتهت بالمحرقَة في طليطلة، فقد كانت تتقصه الأبهة والجاذبية.

لكن فجأة، قاطع رجل يحمل سيفاً على حزامه حديث الحليق، وأطلق عليه سيلاً من الشتائم. فأدركت هيغويناموتا، دون أن تفهم التفاصيل تماماً، أنه كان يتهمه بأنه ليس كما يدّعي. وظلّ الرجلان يتبادلان الشتائم حتى سقط الحليق على ركبتيه في قُمرته، وشبك يديه ورفع عينيه للسماء، يتوسل إلهه أن ينصفه. وعلى الفور، كما لو أنّ البرق ضربه، انهار الرجل ذو السيف على الأرض وبدأ بالتشنج، وهو يرغي ويزبد. فذب الخوف بين جميع المشرقيين الحاضرين، وتملكهم ارتباك عظيم، وراحوا يتوسلون إلى الحليق أن يبطل تعويذته. فوافق هذا الأخير على النزول من قمرته واخترق الحشد ليذهب وينحني على جسد الرجل المتشنج. ثمّ وضع نوعاً من اللفافة على رأسه، ونطق ببضع الكلمات الغامضة، فتوقفت التشنجات على الفور.

سارع الرجل ذو السيف، الذي عاد إلى وعيه، إلى مبايعته وانسحب. ونتيجة ذلك، هرع الحشد إلى الحليق، وسلموه قطعاً صغيرة من النحاس والفضة. ورددوا كلمة لم تكن الكوبية تعرفها: «indulgencia»⁽¹⁾.

تأثر كويزكويز وهيغويناموتا بقوة الإله المسمر (إن كان هو بالفعل الذي دعاه الحليق لكي يُحل العقاب بخصمه، كما افترضوا). وعادا لإبلاغ أتاهاوالبا بهذه الحادثة، الذي لم يبدِ

(1) كلمة إسبانية وتعني في المعتقد الكاثوليكي الغفران.

كعاداته أي انفعال، غير أنه ارتأى أنه من المناسب أخذ هذا التهديد بعين الاعتبار، فقد كانت روح رجاله المعنوية متزعزعة، ولا ينبغي أن يتركها لقوى خارقة معادية تقوّضها. لكن كيف يكتشف حقيقة الأمر؟ بعد ما حدث في طليطلة، أراد أتاهاوالبا أن ينسى الناس الحادثة، لذلك لم يرغب في أن يأمر بإحضار الحليق الساحر إليه. لقد أراد أن يحد من الاحتكاك بالسكان المحليين مدة من الوقت. ثم تذكر أن بعضاً من المشرقيين قد انضموا إلى مجموعته.

تعافى بيدرو بيزارو، الشاب الذي أنقذته هيغويناموتا من المذبحة. وفي المساء، راح يروي قصصاً من بلده، وكانت هي تترجمها لنساء أتاهاوالبا وأخواته. ثم أخبرته عن الحادثة التي رأتها في معبد ماكدة، وسألته من أين يستمد هذا الحليق قواه. وبعد الإصغاء باهتمام لقصة مجيرته، راح بيدرو بيزارو يضحك بهدوء.

ثم قال: «ما رأيتماه كان وغدين اتفقاً مسبقاً على لعب مسرحية كوميدية، لغرض وحيد هو انتزاع الأموال من جيوب القرويين. فالكاهن يبيع صكوك الغفران. بعبارة أخرى، يبيع قرارات يخطّها بنفسه، بلا شك باللاتينية، التي من المفترض أن تسمح للمشتريين بإنقاذ أرواحهم من الجحيم، بالتكفير عن خطاياهم. أنا متأكد من أن الحاجب الذي تظاهر بالشجار معه سيحصل على جزء من الأرباح أيضاً».

ترجمت هيغويناموتا كلام الشاب دون أن يفهمه. لكن ما أراد الكيتونيون معرفته متعلق بالقدرة على صرع الخصوم من مسافة

بعيدة، والتي يبدو أنّ الحليق يستمدّها من إلهه المسمّر، وكيف جعل إلهه يطيعه. حينها أوضح لهم بيدرو بيزارو، الذي كان شاباً ولكنه ليس غيبياً، وجهة نظره من خلال صورة رسمها لهم على النحو الآتي: «إذا عدتم إلى القرية هذا المساء، بعد غروب الشمس، ستجدون بلا شك كاهنكم في منزله، يشرب مع صديقه نخب الجمهور الساذج الذي قدما أمامه عرضهما السخيف». وأضاف الشاب المنهك من جروحه، قبل أن يتقلب في سريره ليعود إلى النوم، وهو لا يزال يضحك: «كم من الحيل المماثلة فعلها هؤلاء المحتالون على البسطاء!». كان هذا درسهم الأول عن العالم الجديد.

14. شلمنقة

مروا عبر إسكالونا، الموروكس، ثيريروس، وآبلّة... وقرى أخرى، والتقوا أناساً آخرين. لقد كان عرضاً للكلاب الضالة والمتسولين والفرسان وموكباً للصليبان الخشبية. وعلى طول الطرق، كما هي الحال في تاهوانتينسويو، وقف الفلاحون المنكبون على الأرض لمشاهدتهم وهم يمرون.

في المساء، روى لهم بيدرو بيزارو قصة أورلاندو وأنجليكا، وقصة رينو على حصانه السحري المخلص، وبرادامانتي وهيبوغريف⁽¹⁾، وروجر، وفيراغوس في بحثه عن خوذته، وأوليمبيا التي تواجه سيموسك ملك فريزيا.

(1) حيوان أسطوري نصفه حصان ونصفه عقاب.

وكيف تمكّن غراداس، ملك سيريكانا، من القبض على الإمبراطور شارلمان شخصيًا، ولكنه هُزم بعد ذلك على يد أستولف، المسلّح برمّح مسحور. وكان أتاهاوالبا، الذي تذكر أسره على يد رجال هواسكار، ثمّ هروبه عند بداية الحرب الأهلية، يصفي باهتمام إلى هذا المقطع. وبالمثل، طلب أن يُعاد له وصف أصحاب القربينات في قصة أوليمبيا. وأراد أن يعرف كل شيء عن المدافع، والمدفعيات الصغيرة، والقنابل، لأنّ هذه الأشياء لم تكن خيالية. وأكد له بيدرو بيزارو أنّه على عكس الانتقام العشوائي للإله المسمر، يمكن التحكم بدقة في توقيت انبعاث البرق من هذه الأدوات، إذا ما عرف المرء كيف يستخدمها. حتى بيزارو نفسه، على الرغم من صغر سنه، تلقى بعض التدريب العسكري على يد أعمامه وأبناء عمومته. لذلك، كان الجنود خلال فترات التوقف، فيما ينهمك البقية في نصب المعسكر، يتدربون على إطلاق النار تحت إشرافه. ورأى كويكيز أنّها صاحبة أكثر من كونها فعالة.

أحبت هيغويناموتا هذا الشاب سريع البديهة الذي أخذته تحت جناحها. وأعرب أتاهاوالبا عن تقديره للمعرفة التي يمكن أن يقدمها له عن هذا البلد وهذا العالم. ومن خلاله علم أن إسبانيا كانت في حالة حرب مع دولة تدعى فرنسا.

في طريقهم، عثروا على طفل زنجيّ في نزل في حي تخارس، فأخذوه معهم. وكانت والدته خادمة تتعرض للمعاملة السيئة هناك، وأشفقت نساء أتاهاوالبا على الطفل.

وأخيرًا، ظهرت شلمنقة في الأفق. واكتشفوا مدينة تجاوز في جمالها جمال طليطلة. وأظهر روميناھوي جواز العبور لسلطة

المدينة التي رحبت بهم بكثير من الحفاوة، وإن شابها بعض التخوف. ومرة أخرى، عُهد بهم إلى عناية الحليقين، وهي فئة من السكان تتولى مجموعة واسعة من الأنشطة: عبادة إلههم، وصنع المشروب الأسود، وتخزين أوراق الكلام وحفظها. وكانوا قساوسة وأمناء حفظ، لكنهم كانوا أيضًا أموتا⁽¹⁾، لأنهم كانوا يخوضون في مسائل حول ألغاز العالم ويروون حكايات عديدة، وحتى هارافك⁽²⁾، لأن بعضهم أَلَف قصائد وفق أنظمة شعرية ومقاطع موزونة. فضلًا عن أنهم كانوا ينشدون في جوقة، بألحان بطيئة وجميلة، دون أن ترافقهم أي آلة أخرى غير أصواتهم. وكما هي الحال في لشبونة، كانوا يسكنون أفخم المباني، رغم أنهم قد نذروا أنفسهم للفقير كما يبدو.

على بوابة أحد تلك المباني، كان الطلاب الذين سكنوا المدينة يتسلّون بالبحث عن ضفدع حجري مخفي في التشابيك الزهرية للمنحوتات. لم يرَ أتاهاوالبا، الذي توقف للتحديق في العمل، الضفدع. وفي تلك الأثناء قال له رجل أعمى كان يتسول عند البوابة: «Quien piensa que el soldado que es primero del escala tiene mas aborrecido el vivir»⁽³⁾ لم يشعر الإنكا، الذي خرج من دون محفته، بالإهانة عند سؤاله على هذا النحو؛ وطلب من هيغويناموتا أن تترجم له (على الرغم من أنه بدأ يلتقط أجزاءً من اللغة القشتالية).

(1) الأموتا: مدرسو فتيان نبلاء شعب الإنكا في كوزكو. كما أنه مصطلح يستعمل للإشارة إلى أي رجل حكيم.

(2) الهارافك هم الشعراء.

(3) اقتباس من رواية «حياة لاثريو دي تورميس»، وهي رواية إسبانية قديمة مجهولة المؤلف، تعود إلى عام 1554.

تابع المتسول كلامه الغريب: «لا يجب إتلاف الكتابة أو التخلص منها إلّا إذا كانت بغیضة حقّاً؛ لكن بدلاً من ذلك، يجب عرضها على الجميع، خاصّةً إذا لم تتسبب في أي ضرر ويمكن استخلاص بعض الحكم منها».

حاول الحليق المرافق لهم إسكات الأعمى، لكن أتاهاولبا أوقفه بإشارة من يده. وهكذا استطاع الأعمى أن يواصل تتبع خيط أفكاره الغامضة: «لكن، إذا لم يكن الأمر كذلك، فلن يكون ثمة سوى قلة من الكتاب الذين سيكتبون لقارئ واحد، لأنّ الكتابة لا تخلو من العناء. لكن، لأنهم يتكبدون هذا العناء، فإنّهم يرغبون في أن يكافؤوا، لكن ليس بالمال، بل برؤية الناس أعمالهم وقراءتها، والثناء إن كانت تستحق الثناء. وفي هذا الصدد، يقول شيشرون: «إنّ الشرف هو الذي يرتقي بالفنون».

وأوضح بيدرو بيزارو، الذي كان قد تلقى بعض التعليم، بصوت منخفض أنّ شيشرون كان أموتاً عظيماً جداً عاش منذ مدة طويلة. «هل تعتقد أنّ الجندي الذي يخطو أولاً نحو الثغور يكره الحياة أكثر من غيره؟ بالتأكيد لا؛ إن رغبته في المجد هي التي تعرضه للخطر. نفس الشيء في الفنون والآداب».

ولمّا أحس بوجود الحليق، التفت إليه الأعمى العجوز وقال: «يلقي الواعظ خطبة جيدة، خطبة من يرغب بشدة في خلاص النفوس. لكن أسأل سيدي إن كان يتبرم حين يُقال له: «أوه، ما أجمل ما وعظت به سماحتكم!»

انفجر الأعمى ضاحكاً. وخلق أتاهاولبا أحد أقراطه ووضعها في يده. ثم تابعوا زيارتهم، فيما راح الحليق يحدثه عن الفهرس

وكان ما أدهش أتاهاوالبا، أكثر من هيغويناموتا نفسها، هو أمر واحد رأوه: لقد كان من بين السكان رجال يرفلون في النعم، وآخرون من أمثالهم يتسولون على أعتاب منازلهم، وقد هزلت أجسادهم من الجوع والفقر. ووجد أتاهاوالبا، وأكثر منه هيغويناموتا، أنه من الغريب أن يعاني هؤلاء المحتاجون هذا الظلم، دون خنق الأثرياء أو إضرار النار في منازلهم.

كان بيدرو بيزارو يعرف كيف يفك رموز الأوراق التي تتكلم. وكان قد وقع على عمل ترجمه سرًا أحد الحليقين، وتناقضته الأيادي خلسة، وقرأ منه مقتطفات لإمبراطور الإنكا ورفيقته الكوبية: «فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحدًا منهم ليصبح أميرًا يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم في ظل سلطانه»⁽²⁾.

كانت هذه رسالة سياسية وصلت حديثًا من بلد يُدعى فلورنسا، وشعر أتاهاوالبا الشاب، بحكمته الموروثة، أنها قد تكون ذات فائدة له في المستقبل، إذ ورد فيها أيضًا: «كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر سيرضي عامة الشعب بسرعة. فبينما العامة يرضون بالعدل يرغب النبلاء في التعسف والبطش».

لا يعني هذا أن الإمبراطور الشاب كان شديد الاهتمام بشأن

(1) - الأوتودا في (Auto Da fé): رسوم الإيمان. وهي مراسم للتكفير العلني كانت تنظمه محاكم التفتيش الإسبانية أو البرتغالية، التي تعلن من خلالها حكمها.

(2) العبارة اقتباس من كتاب الأمير، لمكيافيلي (ترجمة أكرم مؤمن).

سعادة الشعب. فقد سحق، دون تردد، ثورات جزر الكناري والتومبيس الكلاب، كما كان يحب أن يسميهم، ودون نسيان أهل طليطلة كذلك. لكنه شعر بالمسؤولية تجاه شعبه، ذلك الشعب الذي تقلص عدده إلى مئتي نفس، نجوا من تشينتشايسويو. وكان يعلم أنه لينقذهم سيتعين عليه مواجهة خصوم أقوى لا حصر لهم، وسيحتّم عليه وضع خطة سياسية بارعة ضدهم، باستخدام جميع مزايا التضاريس وفهم دقيق لموازن القوى. ولم يبد له نيكولا مكيافيلي مستشاراً سيئاً.

انكب كويزكويز على خرائط المنطقة: فقد أراد أن يعرف كيف ترتفع الجبال، وكيف تتساب الأنهار، وكيف تمتد السهول. لقد أراد أن يفهم طبيعة الأنهار والمستنقعات. وأولى كثيراً من الاهتمام لهذا الأمر.

وتعلم تشالكو شيماك النظام الذي يحكم تطبيق القوانين والعقوبات من رجل حليق ذائع الصيت يُدعى فرانثيسكو دي فيتوريا.

وتعلمت هيغويناموتا فك رموز الأوراق التي تتكلم من الشاب الذي أجارته، والذي أصبح أيضاً معلّمها، بل وأكثر من ذلك، حسب ما يُقال.

واكتشف أتاهاوالبا بافتتان تاريخ الملوك المحليين المتشابك. ظل الجميع في حيرة من أمرهم من تفسيرات الحليقين للخرافات الواردة في الصندوق المتكلم، وكانوا يقتبسون منه في كل مناسبة، ولا يفارقهم أبداً، وقد نذروا له عبادة متفانية. كما بدا التسلسل الهرمي الكهنوتي الذي ينتمون إليه ذا تعقيد لا

نهائي. غير أنّ الكيتونيين فهموا أمرين: كان هناك مكان يُدعى روما يَكُنّ له الجميع احترامًا بالغًا، وكان ثَمّة كاهن يُدعى لوثر يهيج هائجهم لدى سماع اسمه. بل وحتى فرانثيسكو دي فيتوريا⁽¹⁾ هذا، الذي بدا أكثر حكمة من غيره، لم يستطع أن يخفي هائجه لدى ذكر هذا الزميل. وعجز أتاهاولبا وشعبه عن فهم طبيعة النزاع، لكن لا بد أنّه كان كبيرًا لأنه كان سبب نشوب حروب في الشمال. مكتبة سُرْمَن قرأ

وأثارت حفظيتهم حكاية من بين الحكايات: وهي قصة راع أخذ منه إلهه كل شيء: الزوجة، والأطفال، والماشية، والصحة، والثروة، لأجل التسلي، بعد رهان مع شيطان، كما لو كان يطرد عنه الملل، أو بكبرياء، لاختبار تقوى الرجل البائس وإظهار مدى خضوعه له في جميع الظروف. لم يبد للكيتونيين أنّ هذا الإله جاد، وحقيقة أنه في النهاية أعاد للراعي الفقير جميع أملاكه وزوجته وأطفاله وماشيته، (وضاعفها، كما لو كان يكفر عن لعبته السيئة) زادت شعورهم بعدم الثقة به. لم يكن فيراكوتشا أبدًا ليأتي مثل هذه الأفعال الصببانية والقاسية. أمّا بالنسبة إلى الشمس، فإنّ مسارها الثابت جعلها أعلى بكثير من هذه التصرفات الصببانية. ومع ذلك، أثارت اهتمامهم مراسم القداس، فقد كانت آلات الأرغن تضرب آذانهم وتلامس قلوبهم. وتعلمت الصغيرتان كوزي ريماي وكيسبي سيسا رسم إشارة الصليب، وهما تلعبان كالأطفال، وقالتا إنّهما تريدان أن تُعمّدا.

(1) فرانثيسكو دي فيتوريا (1486 - 1546): كاتب وأستاذ لاهوت بجامعة شلمنقة التي كانت آنذاك منارة لعلم اللاهوت والفلسفة المسيحية.

مع مرور الأيام، أصبح حليقو شلمنقة أكثر ميلاً إلى مخالطة الشابات الكيتونيات، من أولئك الذين في لشبونة. وحبلت بعض الفتيات، واعتلت صحة بعض الحليقين.

أحب أتاهاوالبا الاستماع إلى فرانثيسكو دي فيتوريا وهو يحدثه عن القانون الطبيعي، واللاهوت العقائدي، والإرادة الحرة، بالإضافة إلى المفاهيم الأخرى التي استعصى عليه فهمها بسبب تعقيدها، بالإضافة إلى حقيقة أنه في ذلك الحين لم يكن الإنكا يتقن اللغة القشتالية، وبالتالي كان الحوار محدوداً.

ثم، ذات يوم، وصلتهم أخبار عن عودة شارلكان. وكان بيدرو بيزارو قد روى لهم كثيراً من قصص الفرسان التائمين حتى أنهم توقعوا مقابلة شارلمان، إمبراطور الفرنجة، وابن أخيه أورلاندو مع سيفه الدورندال المخلص. لكن شارل المقصود هنا لم يكن القادم الأول أيضاً، كما سيتحققون من ذلك سريعاً. فقد كان جيشه، الهائل كما افترضوا، يقترب من شلمنقة، وقد سبقته الشائعات عن انتصاراته في الأراضي البعيدة. (كان الواقع أكثر غموضاً، لكنهم لن يكتشفوا ذلك إلا لاحقاً).

وتقرر إرسال وفد لمقابلته. فاختر تشالكو شيماك وكويزكويز ممثلين عن السفارة. من ناحية أخرى، لم يسمح أتاهاوالبا لهيغويناموتا بمرافقتهم، خشية أن تفعل مع شارل هذا مثلما فعلت أنجليكا⁽¹⁾. واختار بدلاً منها واحداً من الحليقين كان قد بدأ بتعلم

(1) من القصيدة الملحمية "أورلاندو عاشقاً"، للشاعر الإيطالي "ماتيو ماريابوياردو". تدور قصتها حول أورلاندو، أحد أشهر فرسان شارلمان، الذي شغله عن واجبه في حماية الإمبراطور حبه للأميرة الوثنية أنجليكا التي تهرب في النهاية مع الفارس المسلم الجريح ميدورو الذي يقع في حبها.

لغة الكيتشوا ليعمل ترجماناً لهم. على أي حال، كانت السفارة مجرد ذريعة للقيام بمهمة استطلاعية. غير أن تشالكو شيماك كان يرى أنه من المناسب اصطحاب الكوجر الخاص بأتاهوالبا وعدد قليل من البغاوات معه، في حالة إذا ما احتاجوا إليها.

15. شارلكان

سار زهاء الثلاثين فارساً على الطريق. واعترض طريقهم نهر، فاجتازوه عبر المخاضة، ثمّ لاح لهم المعسكر. كانت الخيام الكبيرة تغطي السهل. هل كانوا يتوقعون وصولهم؟ تتحى جنود يرتدون سراويل قصيرة فضفاضة ليفسحوا الطريق أمامهم. وسارت الخيول عبر غابة من الرماح والرايات. واستقبلهم رجل أصلع ذو لحية بيضاء، يرتدي معطفاً من الفرو الأسود وسلسلة فضية حول رقبته وخاتماً مرصعاً بحجر أحمر في يده اليسرى، ثمّ دعا كويكويز وتشالكو شيماك إلى دخول خيمة كان يحرسها أربعة عشر جندياً مدججين بالسلاح. فترجل الجنرالان ودخلا برفقة الترجمان فقط والبغاوات والكوجر المقيّد.

في الداخل، جلس شارلكان، محاطاً بحاشيته، على مقعد خشبي. كان ذا لحية سوداء ويرتدي صداراً أحمر وجوارب بيضاء. ودهش الزائران بفكه الشبيه بفك التمساح⁽¹⁾ وأنفه الشبيه بأنف

(1) جاء وصف الكاتب لفك شارلكان إشارة إلى ما يعرف بفك هابسبورغ، وهو تشوه خلقي أصاب أفراد عائلة هابسبورغ الحاكمة لإسبانيا، نتيجة الإفراط في زواج المحارم بين أفرادها، الذي كان الهدف منه إبقاء التاج بينهم.

التايير. ولمّا أراد تشالكو شيماك أن يتقدم ليقدّم له البيغاوات، تدخل حارسان على الفور لمنعه. ثمّ أخذت الطيور بعيداً، فظن الجنرالان أن هديتهما قد قُبِلت، لكن الملك لم يتلفظ بكلمة، ولم يلق حتى نظرة على الريش متعدد الألوان. كان فم الرجل مفتوحاً لكنّه شارد. وكان يرقد عند قدميه كلب أبيض طويل، كان يداعبه بشكل تلقائي. واستمر صمتٌ لم يقطعه سوى جُؤار البوما، الذي رد عليه الكلب بهدير مكتوم، وكان هذا الحوار الوحيد لمدة طويلة. ووقف الجنرالان في حيرة من أمرهما ينتظران. ثمّ أخيراً، بإشارة من الإمبراطور، قُدّم لكل منهما كوباً من الآخا، لم يقبل به سوى تشالكو شيماك. وسكب شارلكان لنفسه في كأس ذهبية، أفرغها في جوفه في جرعة واحدة. ثمّ مسح الرغوة التي بقيت على شفّيته بظهر يده. كان المشروب مصحوباً بدجاج مشوي قُدّم في طبق فضي، مزق الإمبراطور فخذاً منه، وبدأ بقضمه على نحو منهجي، وكان الكيتونيّان يراقبان قطرات الدهن تتساقط على لحيته بافتتان. ثمّ ألقى القطعة إلى كلبه وتحدث بصوت غريب، ومنخفض يكاد يكون غير مسموع. وأراد أن يعرف إن كان قوم أتاهاوالبا قد جاؤوا من الهند عبر بحر المحيط، كما كتبت له زوجته. وكان مقتنعاً بأنهم لم يكونوا من جزيرة فيرا كروز التي استورد منها البرتغاليون خشبهم: لم يكن الرجال هناك، وفقاً لما أبلغته به أخته ملكة البرتغال، سوى متوحشين من أكلة البشر. ولمّا حاول تشالكو شيماك شرح تاهوانتينسويو وحرب أتاهاوالبا ضد أخيه، قطع الملك كلامه. وفضّل أن يذكر حروبه ضد ملك قوي جداً يدعى سليمان. وأكد له تشالكو شيماك أنه إذا رغب،

فإن أتاهاولبا ورجاله سيذهبون ليخضعوا سليمان هذا . فانفجر شارلكان ضاحكاً . وضحك معه الرجال من حوله ، لكن الكيتونيّين لم يكونا متأكدين من إن كانت هذه الضحكة ضحكة كياسة أم أن الفكرة قد بدت لهم أيضاً متهورة . وأخيراً ، نهض شارلكان من مقعده ، كاشفاً عن قامة متوسطة ، وصرخ أن أتاهاولبا يجب أن يدفع ثمن انتهاك حرمة طليطلة . فانتصب الكلب الأبيض الطويل على قوائمه وراح ينبح على الزوار ، وقد شجعه غضب سيده ، وحركته الرغبة المعتادة لدى نوعه في أن يقلّد صاحبه ، ويرضيه ويدافع عنه . لكن وهو يفعل هذا ، اقترب منهما كثيراً . فأطلق الكوجر صفيراً أجش ، وبسرعة البرق ضربه بمخلبه على وجهه . فتراجع الكلب وهو يئن . حينها قطع تشارل على الفور صراخه الصاخب وسارع إلى كلبه ، وراح يتحدث إليه بصوت ناعم وبلغة غير مألوفة . وظل يردد : «سمبيري ، سمبيري...» والكلب يلحق أصابع سيده . وقد سال خيط من الدم على الأرض .

قال تشالكو شيماك إنّ أتاهاولبا أراد مقابلة ملك إسبانيا ، وأنه سينتظره غداً في ساحة شلمنقة الرئيسة ، أمام كنيسة سان مارتين . فاحتج الرجل الأصلع ذو اللحية البيضاء على التقصير في ذكر ألقاب سيده بالكامل ، ثم بدأ بسردها إمبراطور الرومان ، وملك إسبانيا ، ودوق بورغوندي ، لكن شارلكان -الذي كان يميل باهتمام إلى كلبه- صرف الزائرين بتلوحة توحى بنفاد الصبر .

هل سيأتي؟ ومتى؟ وبدأ سكان شلمنقة بمغادرة المدينة ما إن سمعوا الشائعات.

جمع أتاهاوالبا مجلسه، وخلصوا إلى أن أفضل فرصة للكيثونيين، بالنظر إلى وضعهم الحرج، ناهيك باليأس الذي خيم عليهم، هي نصب كمين لملك إسبانيا هذا. ثم أنه لا مكان لهم ليذهبوا إليه، لذلك وافقوا على البقاء في مكانهم. وتذكر أتاهاوالبا كيف سبق له أن خاطر بكل شيء، في عديد من المرات، ضد شقيقه هواسكار، وأنه كان دائماً ينجو بطريقة ما. لكن لم يفكر أحد من جنralاته ونسائه ورجاله في مقارنة الخطر المميت الذي هم في مواجهته الآن مع أي خطر مروا به حتى ذلك الحين. لقد وصلوا إلى نهاية الطريق، وكان هذا هو الحال. ولم يعد عليهم التطلع إلى سوى موت مجيد. وكان العالم السفلي ينتظرهم.

ومع ذلك، تولى روميناھوي الاستعدادات. فأوكل إلى بوكا أمارو مهمة جمع الكرات الفولاذية للمقاليع، والسهام للأقواس، وجميع أنواع أسلحة الرمي، مع تفضيل الفؤوس القصيرة ذات النصل المزدوج، التي يمكن أن تخترق أقوى درع. ثم نصّب رجالاً على أسطح البيوت المطلة على الساحة وعلى أسطح الأزقة التي تقضي إلى هناك. ووضع أجراساً على الخيول لبث الرعب بين المشرقيين، ثم أخفاها في كنيسة سان مارتن. وأمر بأن تصوب جميع المدفعية المتاحة نحو العدو الذي يحتل السهل. وأوصى بأن يقبض على شارلكان حياً.

أراد تشالكو شيماك أن يؤمن بإمكانية التوصل إلى حل تفاوضي، لكن رومينا هوي اعترض عليه قائلاً: «على ماذا تريد أن تتفاوض؟ عن أيّ حل تتحدث؟ ليس لدينا ما نقدمه سوى استسلامنا. وما الشرط الذي تريد وضعه؟ الاختناق على المحرقة؟ لن يرحب العالم السفلي برمادك».

ثم عرف أتاهاوالبّا أنّ الوقت قد حان ليخاطب رجاله، دون حجاب، ودون رسميات، ودون وسيط، ففي النهاية سيموتون جميعاً معاً، بعد أن تقاسموا عديداً من التجارب. فكلهم كما يكلم أصحابه: «هل تعتقد أن الجندي الذي يخطو أولاً نحو الثغور يكره الحياة أكثر من غيره؟» قال لهم إنّ التاريخ سيسجل أنّ قلة من الرجال في هذه الأرض البعيدة قد وقفوا ضد جيش عظيم. ولم يضيع وقته في أديرة شلمنقة. وحدثهم عن أورلاند في معركة رونسفال، وليونيداس في معركة ثروموبيل. كما أخبرهم كيف انتصر حنبعل على الجحافل الرومانية في موقعة كان. وإن ماتوا، فسيرحب بهم العالم السفلي للإله الحية كأبطال. وإن انتصروا، فسيحتفي التاريخ بمئة وثلاثة وثمانين محارباً، تكللوا بالمجد والثروات، حين هزموا إمبراطورية عظيمة. وهتف الرجال المتحمسون، ملوحين بفؤوسهم. ثم ذهب كل منهم إلى موقعه. بحلول الصباح، كانت المدينة خالية من سكانها، باستثناء عدد قليل من المتسولين وحفنة من الكونفرسو. وفوجئت الكلاب الضالة بهذه الوحدة. كان الصمت الذي خيم على الشوارع يذكر بلشبونة قبل العاصفة. وكان الانتظار ثقيلاً على أكتاف الرجال. وبلغني أنّ عديداً من الكيتونيين تبولوا من الخوف دون أن يدركوا ذلك.

تصطف المباني في الميدان الرئيسي في سان مارتين في شكل نصف قمر، تقابلها الكنيسة على الجانب الجنوبي منها. وكانت مداخل الجانبين الشمالي والغربي مسدودةً بمنازل حجرية، تلك الموجودة في الجانب الشمالي فوق الأقواس. وكان الجانب الشرقي مفتوحًا أكثر، فلم تكن تسده سوى طاولات السوق وبرج تعلوه ساعة شمسية تقسم اليوم إلى اثني عشر جزءًا متساويًا. وهذا ما أثار قلق الجنرالات. فقد كانوا يفضلون ساحة مغلقةً تمامًا، بها مخارج ضيقة تحت الأقواس الحجرية، مثل تلك الموجودة في كاجاماركا، على سبيل المثال. لكن لم يكن هناك وقت للتفكير في الأمر. فقد أعلن جنود المراقبة عن وصول شارلكان.

سار الجنود المشاة المسلحون برماح طويلة أمام الإمبراطور، الذي كان يمتطي حصانه، يرافقه بعض من حاشيته، تحت مظلة كبيرة من القماش يحملها خدم يسرون على أقدامهم. على كلا الطرفين، سار في صفين جنود يرتدون الزي الرسمي الملون، ويحملون المطاريد والقربينات. وشكلت عربات تجرها الخيول مؤخرة الموكب. فكانوا في المجموع ألفي رجل تقريبًا. أمّا الجزء الأكبر من الجيش، الذي قدره كويزكويز وتشالكو شيماك بأربعين ألفًا، فقد بقي في السهل. لذلك، سيواجهون عددًا عده عشرة أضعاف عددهم. غير أنه على العكس مما حدث في طليلطة، حين باغتوا السكان في أثناء نومهم، كان أعداؤهم هذه المرة مسلحين في حالة تأهب.

كان شارلكان يرتدي درعًا أسودَ مذهبًا، ويمتطي حصانًا أسودَ مغطى بعباءة حمراء.

أُرسلت هيغويناموتا لمقابلته بمفردها. فخلعت الأميرة الكوبية معطفها المصنوع من فرو الخفاش وتقدمت عارية تحت شمس الظهيرة. فسرت مهمةً بين صفوف الجنود. واقترب منها رجل حليق جاء مع جيش المشرقيين وسلمها صندوق الكلام الذي جاء به، وقال: «Reconoces el dios único y nuestro señor Jesús Christ؟»⁽¹⁾ فأخذت هيغويناموتا الصندوق وأجابت، وقد أصبحت مثل هذه الحوارات مألوفة لديها: «Reconozco el dios único y vostro señor Jesús Christ»⁽²⁾. ثم رمقت الكاهن بنظرة ساخرة وفتحت الصندوق الثمين. وقرأت: «Fiat lux, et facta est lux»⁽³⁾. وأشارت بإصبعها إلى الشمس فوق رؤوسهم.

ثم سُمع صوت صفير يعبر الساحة، وانغرس سهم في عنق حصان شارلكان. تبعه آخر على الفور، أعمق وأكثر اهتزازًا، وضُرب الحصان في رأسه بكرة حديدية بالكاد أكبر من سمك الإصبع. وسرعان ما امتلأت السماء بالقذائف التي تركزت جميعها على الفرسان. وقد أُمر القناصة، على أسطح المنازل، بقتل الخيول أولاً. فكانوا يستهدفون حوافرها بأقواسهم ومقاليعهم. فانهارت الحيوانات تباغًا، وأطلقت أنينًا مأساويًا. ودوت صيحات قائلة: «Salva el Rey»⁽⁴⁾ وشكّل رجال الحرس طوقًا حول شارل. وكان هذا هو خطوهم الأول.

(1) وردت في النص الأصلي بالإسبانية وتعني: هل تعترفون بالإله الوحيد وربنا يسوع المسيح؟

(2) نعترف بالإله الوحيد وربكم يسوع المسيح.

(3) هو سفر التكوين، وردت باللاتينية، وتعني: "ليكن النور، فكان النور".

(4) تعني بالإسبانية: "أنقذوا الملك"

أمّا الخطأ الثاني، فقد ارتكبه أصحاب القربينات الذين استهدفوا الرماة على الأسطح، لكن من موضعهم ذلك، ومن تلك المسافة، أفرغوا أسلحتهم دون أن يصيبوا منهم أحد.

ثم انفتحت أبواب الكنيسة، التي انطلق منها الكيتونيون وعلى رأسهم أتاهاوالبا. وقد جعلهم فن ركوب الخيل المتوارث عن أسلافهم فرساناً استثنائيين. وحدّد حَسَّهم التكتيكي والجرأة التي تشكّلت لديهم خلال رحلتهم هذه توقيتَ الهجوم. كانت حوافر الخيول تطلق على الأحجار المرصوفة بالحصى، في أثناء تطويقها مجموعة المشرقيين، الذين حوصروا حتى أنه لم يعد لدى رماة القربينات المساحة اللازمة لإعادة تحميل أسلحتهم، وقد التصق بعضهم ببعض، وتعثروا في جثث الخيول، ولأنّهم في الوقت ذاته كان عناصر الحرس الملكي الذين شكلوا الطوق الخارجي قد أنزلوا رماحهم لحماية أنفسهم والاحتماء من أي توغل، بدا الجميع كأنهم جيش من القنافذ المنكمشة، وقد أصابها الصرع.

كان على الفرسان الاستمرار في الالتفاف حولهم لخلق أي محاولة لكسر الحصار. وما إن حاول حامل رمح أن يطعن أحد الأحصنة لإفساح الطريق، ضربه فارس من خلفه بالسيف على قفاه. وظلت السهام والكرات الحديدية تهوي على الجنود العُزّل من الدروع، ضاربة قلب القنفذ. «Dios salve al Rey!» وأحاط بشارلكان جنرالاته وحموه بأجسادهم.

كان الإسبان يسقطون، لكن ذخيرة الكيتونيين بدأت تنفد. والتقط أولئك الذين ما زالوا صامدين الأبواق من جثث رفاقهم

وراحوا ينفخون فيها طلباً للمساعدة. سيتحرك الجيش الذي ظل في السهل، ولا بد من حل الوضع، وإلا فقد انتهى أمرهم. لا بد من وضع حد لهذا الأمر بأسرع ما يكون. لذلك ضرب رومينا هوي جواده وانطلق نحو رماة الرماح، وقفز فوقهم قفزة غير عادية ومذهلة، ليحط خلف النطاق الذي شكلته الحراب، فداس الحصان على الرجال وراح رومينا هوي يضرب بمطرقة الكبيرة، يميناً ويساراً، على دروعهم مثل طاه يُلين اللحم.

انفتحت الثغرة واندفعوا من خلالها. وفي هذه اللحظة، أصبح الكيتونيون شياطين مسكونة بالرغبة في القتل، فحضروا بفؤوسهم خندقاً بشرياً، ليقودهم إلى الملك الذي لم ينسوا أنه كان هدفهم. غير أنه بالنظر إلى جنون القتل الذي تملكهم، لا يمكن الجزم بأنهم يتذكرون الأوامر بالإتيان به حياً.

لذلك اندفع أتاهاوالب، وراح حصانه، كباقي الأحصنة، يدوس الأحياء والأموات، لينضم إلى المعركة حيث ميّز درع الملك الذي لا يزال يضيء تحت أشعة الشمس الحارقة ولكنه كان يتلوى تحت الضربات. وطفق أتاهاوالب في ضرب كل ما يعترضه، مشرقين كانوا أم كيتونيين، دون تمييز، لأنه يعلم أن حياته وحياة رجاله تعتمد على حياة شارلكان.

قاتل شارلكان بشجاعة، وقاتل معه دوق ألبا ومات على وقع ضربات السيف، وقاتل دوق ميلان وسقط تحت ضربات الفأس، ومات الشاعر الإسباني غارسيلاسو دي لا فيغا وهو يحاول أن يحول بين ملكه والنصال التي تضرب الهواء بحثاً عن ثغرات بين الدروع، وكان شارلكان على وشك الموت أيضاً لأنه سقط

بدوره ومنعه وزن درعه من النهوض، مثل سلحفاة مقلوبة، وألقى الكيتونيون بأنفسهم عليه لتمزيقه مثل الكلاب التي تتقاتل على الجيف، واقتلعوا أطراف ترسه كما لو كان غنيمة. لكن شارل كان يكافح، إذ لم يمت بعد، وراح يتلوى مثل حيوان جريح ووجد مهاجموه صعوبة في القضاء عليه.

وأخيراً، التحق بهم أتاهاوالبا ولكن في هذه اللحظة لم يعد ثمة أي إمبراطور، لا في هذا المعسكر، ولا في المعسكر الآخر، ولم يسمعه رجاله حين صاح عليهم بالتوقف، لذلك كان عليه أن يسدد ضربات بنصل فأسه، ويركل حصانه للتقدم. وعندما وصل أخيراً إلى الملك، دار حوله وقفز من مطيته والتقط الإمبراطور. أصيب الملك في خده وفي يده، وكان الدم ينزف تحت قفازه، وتمزقت ملابسه، فأصبح نصف عارٍ، لكن يد أتاهاوالبا التي وضعها عليه كانت بمثابة بلسم سحري وقائي: وفجأة سُحب المهاجمون من جنونهم القاتل، وجُمِدَت أذرعهم المنتقمة. وانتهى القتال. كانت الشمس لا تزال تحرق الساحة. وعلى ساعة البرج، عاد عقرب الساعة الكبير إلى نقطة البداية.

17. الإنكاد، الأغنية الأولى، مقطع 11

أترى الوعود غدت وعودًا كاذبة؟
بل إنها كانت وقائع من خيالٍ
يخدعن بالإلهام كل ذي لب فريدٍ
يضيف فوق القبح آيات الجمالِ

تلك الحقيقة فاقت أنواع الحكايا
هي كالعجائب لم يكن لها يوماً مثالٌ
ولو أنّ أورلاندو يُبعث من جديدٍ
أو سار خلف خطاه ذو الأبطال

18. غرناطة

ادعى البعض أن أتاھوالبا قد ارتكب خيانة كبيرة بنصبه هذا
الكمين، لكن ينبغي ألا نغفل التهديدات التي وجهها شارلكان إلى
مبعوثي الإنكا بشأن قضية طليطلة. بالإضافة إلى ذلك، كان
الكيثونيون قد لاحظوا كيف تعامل أتباع الإله المسمر مع أولئك
الذين لم يتشاركوا معهم تماماً معتقداتهم، وبدا هذا الموضوع
مهمًا جدًا لهم حتى أن الخضوع لأساطيرهم كان كذلك أول ما
طلبه الكاهن من هوغويناموتا خلال لقاء شلمنقة.

على أي حال، أغرق أسر ملك إسبانيا هذا الأخير في وهن
تام، وأصاب العالم الجديد الذهول.

كان أتاھوالبا يدرك أنّ خلاص الكيثونيين يعتمد فقط على
حياة رهيبتهم. وقرر مغادرة شلمنقة إلى مكان محصن أفضل.
عبر موكب الكيثونيين إسبانيا، يرافقهم جيش شارل الذي كان
يحيط بهم كظل معادٍ. وبدا المشهد كقارض صغير يراقبه كوجر
كبير مستعد للانقضاض عليه. وواجهوا محاولات هرب عدة
نُظمت من الخارج، لكن المزاج الكئيب الذي غرق فيه الملك،
وحرمة من إرادته، ساعد في إفشالها جميعًا.

وحين بلغوا نهاية رحلتهم، استقروا في قصر أحمر، بناء ذات مرة على نتوء صخري أتباع ديانة منافسة، احتلوا المكان مدة طويلة قبل طردهم منذ عهد قريب. ومن الآن فصاعداً، سيكون قصر الحمراء في غرناطة لهم بمثابة قلعة ساكسايهوامان.

خلف أسوار هذا الصرح، كان ثمة قصر شُيّد خصيصاً لشارلكان، لكن لم تطأ قدمه قط. وعلى الرغم من أن العمل لم يكتمل، أصلح أتاهاوالبا هذا الوضع الشاذ بوضع الملك هناك مع خدمه وحاشيته وكلبه وجميع وسائل الراحة التي تليق بمنزلته. غادرت زوجته وطفلاه طليطلة للالتحاق به. وشيئاً فشيئاً، خرج الملك من خموده وبُعث مجدداً من رماد الرجل المكسور. ومنحه أتاهاوالبا، ليُعينه، كل مظاهر السلطة، وأبقاه مشغولاً بشؤون إمبراطوريته. وسمح له باستقبال مبعوثين من كل بقاع العالم الجديد الذين توافدوا للاستفسار عن الوضع الجديد غير العادي، والعواقب السياسية التي ستترتب عليه. وبعد ذلك، استقبلهم الإنكا بدوره. وهكذا، استطاع أتاهاوالبا رسم الخريطة السياسية للقارة، وفي مركزها صاحب السيادة الذي هو الآن تحت سلطته.

بدأت إمبراطورية شارلكان شاسعة مثل تاهوانتينسويو تقريباً، غير أنها أكثر تقسيماً: ففي الجنوب الغربي تقع إسبانيا، وفي الشمال هولندا وألمانيا، وفي الشرق النمسا وبوهيميا والمجر وكرواتيا، التي تقع تحت تهديد سليمان، الغازي العظيم على رأس إمبراطورية أخرى بعيدة. وفي الجنوب، بالقرب من إسبانيا، غير أن البحر يفصل بينهم، كانت تقع المنطقة التي بدأت محط

كل الأطماع، إيطاليا، أرض الحروب الدائمة، حيث يعيش رئيس الرجال الحليقيين، ممثّل الإله المسمّر على الأرض. وكان المنافس الأكبر لشارل على الهيمنة على العالم الجديد هو ملك الدولة التي قسمت إمبراطوريته إلى قسمين، فرنسا، التي كانت أراضيتها نفسها مهددة من جزيرة تقع في الشمال تدعى إنجلترا. ويقع اتحاد صغير في قلب القارة، يعمل على تزويد جميع الجيوش بالجنود: سويسرا. وكانت البرتغال المجاورة مملكةً من المستكشفين الذين ركبوا البحار بحثًا عن عوالم أخرى.

في الطرف الجنوبي الغربي لإسبانيا، كان ثمة مضيق أطلقوا عليه اسم «أعمدة هرقل» يفتح على بحر المحيط، الذي نجح الكيتونيون في عبوره. وعلى الضفة الجنوبية للمضيق، تبدأ أرض الموريين، الذين طُرد ملوكهم من إسبانيا قبل أربعين حصادًا. (حسب هيغويناموتا فقد تزامن هذا مع وصول الإسبان إلى جزيرتها). وبقي بعض هؤلاء الموريين في غرناطة، حتى بعد هزيمة قادتهم؛ وكان يُطلق عليهم اسم المورسيكيين. وكانوا يعيشون على تلة تطل على قصر الحمراء، تعرف بحي البيازين، وتعني في لغتهم «البائسين».

خارج غرناطة، استقر الجيش الإمبراطوري في مدينة محصنة تدعى سانتا في، حيث اجتمع البلاط الإسباني لمحاولة التوصل إلى استراتيجية لمواجهة الأزمة التي تسبب فيها أسر ملكهم. اجتمعت أقوى شخصيات المملكة، باستثناء الملك: المستشار ذو رأس مومياء خوان باردو تافيرا، ونيكولاس بيرينو دي غرانفيل العجوز الذي استقبل تشالكو شيماك وكويزكويز في معسكر

شارلكان، وفرانسييسكو دي لوس كوبوس مولينا، وزير خارجيته، الذي كان يرتدي حول عنقه صليباً أحمر كبيراً مرصعاً بياقوتة ضخمة، وأنطونيو دي ليفا، دوق تيرانوفا وأمير أسكولي، الذي نجا من مذبحه سان مارتين، لكنه فقد القدرة على السير على قدميه في المعركة، وتُرك هناك ليموت. وطالب هذا الأخير بشن هجوم فوري، لكن آخرين اعتبروا قصر الحمراء منيعاً، على الأقل طالما الإمبراطور شارلكان رهينة هناك.

صحيح أن انقلاب شلمنقة قد سمح للكيثونيين بالخروج من وضع كان ميؤوساً منه. غير أنه لا يزال وضعاً غير مستقر. وإن كان هذا النصر قد منح أتاھوالبا هيبه ومكانة، إلا أنه كان يدرك أن الفوائد التي جلبها له ستكون عابرة ما لم تُعزّز. وعمّا قريب، لن يكون عنصر المفاجأة في صفهم، لأن تفاوت القوى سيبقى معضلة: فهم مجرد حفنة قليلة، في مواجهة عالم برمته.

وطمأنه الاحترام الذي أظهره المبعوثون الذين توافدوا من جميع الجهات إلى أسيره: فمع وجود ملك إسبانيا تحت رحمته، كان يعلم أنه يمتلك سلعة ثمينة. وحتى شارل نفسه أراحه بهذه الفكرة عندما عرض إبقاء طفليه كرهائن، ولي العهد الصغير فيليب الذي كان يبلغ من العمر خمس سنوات، وشقيقته ماري التي تصغره بسنة واحدة، مقابل إطلاق سراحه. وقد أضحك هذا الاقتراح أتاھوالبا. وضحك شارل أيضاً، محرّجاً، وهو ينظر إلى زوجته.

وكلما استقبل شارل زائراً في قصره غير المكتمل، كان يُنقل هذا الأخير بعد ذلك إلى القصر المجاور، قصر الملوك

القدامى، حيث أقام أتاهاوالبا مسكنه. وكان الزائر يسير عبر
الغرف المظلمة التي نُقش فيها شعار شارلكان، ملك إسبانيا
والإمبراطور الروماني، على عمود أبيض مرصع بالخزف الأزرق:
Plus ultre، وتعني في لغة العلماء الأموتا في هذا العالم «دائماً
أبعد»، الذي أعجب أتاهاوالبا وقرّر أن يتخذه شعاراً له. ثمّ كان
الزائر يمر أمام حوض طويل محاط بالسياج، وتنعكس على
صفحة مياهه أقواس المبنى كقوارب مقلوبة، يحرسها برج ضخّم
من الحجر الأحمر على شكل مكعب مرصع. وأخيراً، يدخل الزائر
قاعة السُفراء، التي نصفها مغمور في ظلام دامس، وحُفر عند
طرفها ثلاثة تجاويف، تطل على السهل وجبال غرناطة المغطاة
بالثلوج، لكن نوافذها كانت مغلقة جزئياً. وكان أتاهاوالبا يجلس
على مقعد النافذة المركزية. إلى يمينه يقف العملاق روميناھوي،
وإلى يساره، تستلقي الأميرة هيغويناموتا على نمارق.

وما إن يغادر الزائر الفناء المشمس ليلج القاعة، كان يطرف،
منبهراً بأشعة الشمس التي تتسرب من خلال الفتحات المثقوبة
في النوافذ، وبالكاد يستطيع تمييز هيئات الملك ومستشاريه
الاثنين، المضاءة من الخلف، فتبدو له ظلالاً غير متكافئة. وفوق
رأسه، كان السقف الخشبي المصنوع على نحو جميل يمثل السماء
المرصعة بالنجوم؛ ما يجعله يشعر بضالة شديدة.

حين رأى شارلكان لأول مرة هذه القاعة التي شهد فيها أسلافه
استسلام الملوك القدامى في الأيام الماضية، صاح قائلاً: «تعيّس
من ضيّع كل هذا الجمال». لقد أمضى إقامة رائعة هنا بعد
زفافه من الملكة، وأجبرته شؤون الإمبراطورية على قطعها، ولم

يعد إليها منذ ذلك الحين. ولما سمع أتاهاولبا هذا الكلام، قال لشارلكان: «تعييس من كان له أن يتتعم بهذا الجمال، ولم يفعل لما سنحت له الفرصة». وقد عزاه على ما هو فيه من محنة بأنه يمكن الآن للإمبراطور، بفضلله، أن يستمتع بروعة القصر الذي غزاه أسلافه.

كان أحد الزوار الأوائل هو سيد غرناطة السابق، أبو عبد الله، الذي طُرد منها منذ أربعين حصاداً، وجاء على أمل أن يكون قادراً على أن يطالب بأي شيء، لكنه لم يُؤتَ سؤاله. فعاد الرجل العجوز ذو العمامة إلى منفاه ليموت هناك بعد مدة وجيزة. لكن شارل، الذي أربكته الزيارة، قال لمرافقيه (ونقلت كلماته إلى مضيفه): «بل أنا هو المشؤوم».

كان من بين الذين استقبلهم أتاهاولبا فتى شاب من فلورنسا، مدينة الأموتا مكيافيلي، الذي درس أعماله في شلمنقة. كان الشاب يدعى لورنزينو⁽¹⁾، وكان فرداً من عائلة مديتشي الكبيرة⁽²⁾. وبدا مفعماً بشغف متقد حين صرخ على نحو غريب قائلاً: «لو أن الجمهوريين كانوا فقط رجالاً، فأى ثورة ستكون غداً في المدينة!» لم تفهم هيغويناموتا ولا بيدرو بيزارو شيئاً من هذه

(1) لورنزينو دي مديتشي، المعروف أيضاً باسم لورانزاتشيو، سياسي وكاتب، وكاتب مسرحي إيطالي. اشتهر باغتيال ابن عمه، أليساندرو دي مديتشي، دوق فلورنسا عام 1537. وقد قُتل بدوره عام 1548 انتقاماً من عمله.

(2) عائلة مديتشي (Medici بالإيطالية) هي عائلة أرسقراطية من فلورنسا، ظهرت قوتها في بداية عصر النهضة الإيطالية. وتشكلت ثروتهم في البداية من الأعمال المصرفية، حتى أصبحوا أحد أثرى العائلات في أوروبا، وكان لهم تأثير سياسي واقتصادي وثقافي كبير.

العبارة، لكن الشاب راح يحدث الإنكا عن القصور الهائلة والكنوز الرائعة، لجّره إلى حروب معقدة. وقبل كل شيء، طلب مساعدته للإطاحة بابن عمه، ملك فلورنسا، الفاسق الذي طغى على شعبه. وحلم كوزيركويز، الذي أثاره وصف هذا البلد الرائع، بالذهاب لاستكشافه، لكنه لم يحصل من أتاهاوالبا، الذي لم ترقه فكرة نظام سياسي قائم على نوع من الزمالة السلطوية التي تتبع سلطتها من الناس وليس من الشمس، سوى على الوعد بمنح اللجوء والحماية للشاب الفلورنسي.

جاء رجل من بلدة في ألمانيا تدعى أوغسبورغ، أرسله آل فوغر⁽¹⁾، الذين لم يكونوا لوردات أو كوراكا⁽²⁾ على وجه التحديد، لكنهم كانوا على رأس ما يشبه الأيلو⁽³⁾. وكانوا تجاراً يتاجرون بالذهب والفضة. كان المبعوث يرتدي ثياباً بسيطة جداً، واستقبله شارل بازدرء. ومع ذلك، أدرك الكيتونيون وجود اختلال غريب في التوازن. ففي مجتمع المشرقيين، لا يقتصر استخدام الذهب والفضة على الزخرفة أو كمزينة ملكية فحسب، بل يمنحان الشخص الذي يمتلكهما قوة كبيرة، إذ تتيحان له (في شكل عملات معدنية صغيرة مستديرة) اقتناء جميع أنواع السلع والتجارة فيها. وهكذا،

(1) عائلة فوغر هي عائلة من التجار والمصرفيين اليهود، أُسست في نهاية العصور الوسطى في أوغسبورغ، التي هيمنت على التمويل الأوروبي في نهاية العصور الوسطى وفي أثناء عصر النهضة. ويعود إليهم أصل الممارسة الحديثة للأعمال المصرفية والتمويل.

(2) وتعني الكلمة رئيس، وهو منصب إداري في إمبراطورية الإنكا، أقرب إلى الوالي أو الحاكم.

(3) الأيلو (ayllu): مجموعة من أفراد أقارب وأسر يتناوبون في العمل ويتعاونون في معاشهم وأنشطتهم الطقسية.

كان مبعوث آل فوغر يستعجل الإمبراطور للوفاء بالتزامات معينة كانت مكتوبة في أوراق الكلام التي كانت بمثابة الخيـبو⁽¹⁾، وإلا فسيقطعون عنه إمدادات الذهب والفضة. ويبدو أنّ هذا الاحتمال قد وضع شارل في حرج كبير. أمّا أتاهاوالبا، فقد انغمس في الخيال وابتسم وهو يفكر في جبال الأنديز التي كانت تعج بهذه المعادن.

جاء أيضًا من أوغسبورغ أموتا للحديث عن الوجود «الحقيقي» للإله المسمّر خلال الاحتفالات الدينية التي تتضمن شرب المشروب الأسود وتناول الخبز. وكان اسمه فيليب ملانكتون⁽²⁾ وكان يرتدي قبة مسطحة من القماش الأسود. وتظاهر أتاهاوالبا بأنه يستمع إليه باهتمام، لأنّه رأى أن شارل لا يحب هذا الرجل، ولا أفكاره، ومع ذلك فقد استقبله مطوّلًا وبدا أنّه ما لم يكن مصدر قلق (فقد كانت لديه أشياء أخرى ليقلق بشأنها، بالنظر إلى وضعه الحالي)، فإنه يغذي لديه على الأقل انشغالًا حقيقيًا بهذه القضايا. كان ميلانكتون مبعوثًا من شخص كان يرى فيه شارل كان شيطانًا: لوثر الذي أثار ثورة دينية، لأنّه أراد إصلاح جوانب العبادة المسيحية والتشكيك في بعض نقاط العقيدة التي وجد الكيتيونيون صعوبة في فهم أهميتها.

وجاء من باريس حليق كان قد ذهب إلى هناك للتعلّم، وطلب

(1) الخيـبو (Khipu): أداة من خيوط معقودة كان شعوب الإنكا يستخدمونها لتدوين الحسابات، وكانت الخيوط تصنع من صوف اللاما أو الألبكة.

(2) فيليب ملانكتون (1497 - 1560) لاهوتي الألماني، وصديق مقرب لمارتن لوثر وأحد أبرز شخصيات الإصلاح البروتستانتي.

مقابلة شارل، للتحادث في أفضل طريقة لإحباط تأثير لوثر المتزايد. وقد أدى الوضع الجديد الناجم عن اقتحام أتاهاوالبا المشهد إلى بعض التغييرات في الأولويات السياسية. غير أنه في نظر ممثلي الديانة المحلية، التي أراد ملك إسبانيا أن يكون مدافعها القوي، لا تزال قضية محاربة هؤلاء المتمردين الإصلاحيين من الشمال قضيةً ملحة. واستمع أتاهاوالبا باهتمام إلى تفسيرات الحليق، واسمه إغناسيو لوبيز دي لويولا⁽¹⁾. وكان رجلاً ضئيلاً بعينين متقدتين، اختلط فيهما المكر واللفظ، وكان يحب الحديث عن معتقداته بوضوح، وهو ما ساعد الكيتونيين في فهم أساطير العالم الجديد أكثر.

كان أهل المشرق يؤمنون بعائلة آلهة تتكوّن من أب وأم وابن. وفيما كان الأب يعيش في الجنة، أرسل ابنه إلى الأرض لخلاص البشر، ولكن بعد مغامرات عديدة وسلسلة من سوء الفهم، ترك الرجال الذين أرسل لمساعدتهم والذين لم يعترفوا به يسمرونه على الصليب. ثم عاد الابن إلى العالم السفلي وانضم إلى أبيه في الجنة. ومنذ ذلك الحين، بعد أن اكتشفوا ذلك وشعروا بالخزي بسبب أخطائهم، راح المشرقيون ينتظرون ويأملون عودة الابن إلى الأرض. وفي الوقت ذاته، واصلوا الصلاة والتعبد للأُم، التي كانت تتمتع بخصوصية وهي أنّها ظلت عذراء عندما حبلت من الأب. كان هناك أيضاً إله ثانوي أطلقوا عليه اسم الروح القدس وكان يُخلط بينه وبين الأب أحياناً، وأحياناً بينه وبين

(1) راهب إسباني ومؤسس الرهينة اليسوعية.

الابن، وأحياناً كليهما. وتمثل علامة اليد التي كان يقوم بها أتباع الديانة المسيحية في جميع الأوقات الصليب الذي سمر عليه الابن. وهكذا يُزعم أن جميع أفعالهم تملئها الرغبة في إصلاح الجحود الذي أظهره أسلافهم تجاه إلههم، حين عذبوه وسمروه على صليب خشبي نصبوه على قمة جبل، في أرض بعيدة، طردوا منها لكنهم ظلوا يحلمون باسترجاعها.

وكان سبب كل هذه الحرب مع الموريين هي رفض هؤلاء الآخرين تقديم الولاء للإله المسمر، رغم علمهم بوجوده. فهم يعترفون بالإله الأب ولكن ليس الابن. ولهم كذلك عادات أكل مختلفة ولغة مختلفة. وكان ذلك كافياً بالنسبة إليهم، على ما يبدو، لشن حرب بلا رحمة على مدار مئات مواسم الحصاد. وكان ثمة قبيلة ثالثة، هم اليهود، الذين على الرغم من أنهم الأقدم، كانت عاداتهم مماثلة لعادات الموريين. فعلى سبيل المثال، كانوا ينزعون قطعة من الجلد من طرف أعضاء الذكور بعد ولادتهم بقليل، ويرفضون أكل الخنازير، ولا يأكلون اللحوم إلا عندما يكرسها كهنتهم وتذبح وفق طقوس معينة. (ومع ذلك، كان بإمكانهم شرب المشروب الأسود، الذي كان الموريون يحرمونه). كما أنهم لم يعبدوا الإله المسمر، الذي كان ذات يوم واحداً منهم. ولكن على عكس الموريين الذين سُمح لهم بالبقاء بعد الهزيمة ونفي آخر ملوكهم، أبو عبد الله، فإن اليهود، الذين لم يكن لهم ملك ولا مملكة، طُردوا بوحشية من إسبانيا، ما لم يؤمنوا بالإله المسمر ويتخلوا عن عاداتهم الخاصة. أما الذين بقوا مقابل هذا الثمن، ويُطلق عليهم اسم «الكونفرسو»، فقد تعرضوا لسوء

المعاملة، وكانوا محلّ اشتباه دائم في أنهم ظلوا أوفياء لمعتقداتهم القديمة. وقد اضطهدتهم محاكم التفتيش، إلى حد حرقهم في كثير من الأحيان. ولم يوافق الحليق لويولا على هذه السياسة، ولا على ما أسماه *limpieza de sangre*، وهو نقاء الدم الذي يجعل الانتقال من قبيلة إلى أخرى غير ممكن. وقال: «ربّنا يسوع ليس في عروقنا، إنّهُ في قلوبنا».

بناءً على هذه المعلومات، قرر أتاهوالبا أنّ الوقت قد حان للبحث عن حلفاء. فاقترح على شارلكان سن قانون يجيز مختلف العبادات في جميع أنحاء مملكته، وسيكون من المناسب ببساطة أن يضيف عبادة الشمس إليها. ففغر شارلكان فاه، وبدا أنّه لم يفهم في البداية عمّا كان يتحدث، على الرغم من أن هيفوينا موتا قد أتقنت دورها، ونقلت إليه اقتراح الإنكا كما ينبغي. ثمّ راح الإمبراطور ذو الفك البارز يصيح غضبًا، ويصق مثل اللاما. ورفض في النهاية ببساطة.

لم يكن أتاهوالبا في وضع يسمح له بفرض قراراته عليه على نطاق الإمبراطورية، أو حتى على مستوى إسبانيا، غير أنّه أمر تشالكو شيماك وبيدرو بيزارو بالذهاب وإعلان اقتراحه هذا لسكان غرناطة، على الأقل. وقد أثار هذا البلبلة في الأزقة البيضاء من حيّ البيازين، وحتى تلة «الجبل المقدس» القريبة، حيث زرعت محاكم التفتيش الخوف والفرع بين السكان. وقد بدؤوا بحرق اليهود، فعلم الجميع ما يعنيه ذلك: عمّا قريب سيحرقون الموريسكيين. غير أنّ أصحاب ديانة الموريسين لم يسرهم احتمال زيادة عدد آلهتهم، وراحوا يرددون: «الله أكبر».

في البداية، لم تكن لديهم نية لتوسيع معابدهم. غير أنّ مثال اليهود الكونفرسو الذي كان أمام أعينهم (وقد كانوا يعيشون على وفاق معهم) دفعهم للتفكير: ألم يضطر الكونفرسو إلى تبني طقوس السادة المسيحيين ومعتقداتهم؟ علاوة على ذلك، ألم يضطروا كذلك إلى التخلي عن عاداتهم تحت طائلة الموت؟ وبدأ بعضهم ينظر إلى الشمس بمنظور مختلف.

19. مارغريت

لم يستطع شارل، المسجون في قصره غير المكتمل، التخلي عن حزنه، وقد بدت له استدارته كشيء ساخرٍ ومريّرٍ (دون أن يعرف السبب بالضبط)، لكن أعصابه هدأت وتعافى من إصاباته، بفضل لعبة تشبه لعبة الهنّفاتافل⁽¹⁾، توضع فيها تماثيل صغيرة سوداء وبيضاء على لوح خشبي مقسم إلى أربع وستين مربعاً. ولم تفته المفارقة في هذه الحالة: فقد كان هدف اللعبة هو إسقاط الملك.

علّم الإمبراطور جنرالات الإنكا قواعد اللعبة، وبينما أصبح تشالكو شيماك خصماً قوياً في وقت قياسي، كان كويزكويز، حين تسمح له مهامه، يمضي الأمسيات مع الإمبراطور، يخوض معه عدة مباريات، ويخسرهما جميعاً تقريباً.

في أحد الأيام، أعلن حراس كويكويز عن وصول زائرٍ. لقد

(1) الهنّفاتافل (hnefatafl) أو لعبة التافل، وتعني لعبة اللوح، هي لعبة نورديّة تشبه إلى حد ما الشطرنج.

كانت ملكة، وأخت ملك فرنسا، جاءت إلى قصر الحمراء تطلب مقابلة الإمبراطورين. وكانت ترافقها حاشية كبيرة، وتمتطي عربية تجرها أربعة خيول بيضاء. كان شعرها مصفّاً بعناية فائقة، وكانت ترتدي معطفاً من قماش فاخر. كان وجهها ولونها القشطي أكثر نعومة، على الرغم من أن بشرتها كانت شاحبة، ولهجتها مختلفة عن الناس هنا.

وخاطبت الملكة شارل بلغة غير معروفة، فلم يستطع أي من الكيتونيين أن يعرفوا ما الذي كانا يتحدثان فيه. لكن الحضور لاحظوا كيف امتقع وجه شارل مرة أخرى من الغضب، فيما كانت مارغريت (كان هذا اسم الملكة) تحدّثه بأبرد نبرة.

ومع ذلك، كان الشاب لورنزينو، الذي لم يكن قد عاد بعد إلى مسقط رأسه في فلورنسا، قادراً على تنوير الكيتونيين: لم تكن هذه المرة الأولى التي تزور فيها الملكة الإمبراطور. إذ يتذكر لورنزينو، حين كان طفلاً، أنّ ملك فرنسا قد خسر معركة أمام القوات الإمبراطورية وأُسر فيها. ثم جاءت أخته مارغريت لتطلب من شارل مكان إطلاق سراحه، ولكن دون جدوى. وفي نهاية المطاف، لم ينل الملك فرانسوا حريته إلا بالتنازل عن أجزاء كبيرة من مملكته لمنافسه.

الآن، من المرجح أنّ هذه الأراضي هي التي طالبت بها الملكة مارغريت اليوم، باسم شقيقها وفرنسا. ولما علم أتاهاولبا بالأمر، وافق على استقبالها في قاعة السفراء.

على الرغم من أنّه بدأ يفهم لغة هذا البلد بشكل أفضل وأفضل، فإنّه تمنى أن تستمر هيغويناموتا في العمل ترجماناً له،

لأنّها تتيح له التفكير فيما تترجم كلام المشرقيين، وأيضاً لأنّ حضورها كان عزيزاً عليه، وكانت دائماً ما تجلب له الحظ، وكان عُريها يخيف محاوره.

إلى يمينه، اتخذ لورنزينو مكان رومينا هوي هذه المرة لتوضيح أي نقاط غامضة في خطاب الزائرة. وقد كان ثمة كثير منها.

كانت مملكة الملكة، نافارا، واقعة بين إسبانيا وفرنسا، وكان أحد طلبات مارغريت هو أن يتخلّى شارل عن كل مطالباته بأراضيها.

أراد ملك فرنسا استعادة أراضي الشمال، أرتوا وفلاندر، التي فقدتها خلال معاهدة سلام كامبري، قبل أربعة مواسم حصاد. وأراد من ملك إسبانيا أن يتخلّى عن بورغوني للأبد، وهي منطقة بدت ذات أهمية خاصة لكلا الطرفين.

كما طالب بالسيادة على مدينتين في دولة إيطاليا، ميلانو وجنوة.

كان الأمر متعلقاً أيضاً ببلد يدعى بروفانس ومدن نيس ومرسيليا وتولون.

لم يكن كل هذا ذا أهمية كبيرة بالنسبة إلى أتا هوالبا. فما الذي سيهمه في بورغوني أو أرتوا؟ ما الذي تعنيه له ميلان أو جنوة؟ لا شيء. إنّها مجرد فكرة. بل أقل من فكرة. إنّها كلمة. إنّها أماكن لم يكن يعلم بوجودها قبل عام، قبل اكتمال قمر، قبل أسبوع، وقبل يوم. كان أفق أتا هوالبا هو الأندلس: وقد تجاهل ادعاءات أبي عبد الله الذي أراد استعادة ممتلكاته. لكن يمكنه أن يبيع دون

ندم قطعاً من إمبراطورية لا تخصه. ويمكنه رميها للكلاب، ما مدى أهمية ذلك! لقد كانت مجرد نقاط على الخريطة. لكن لما قد يفعل ذلك بالضبط؟

خففت مارغريت ملكة نافارا صوتها. لقد فهمت أن أتاها البيا قادم من وراء البحار، وليس من الشرق أو الجنوب بل من الغرب. ربما من الهند، أو جزر الملوك، أو جيبانغو، أو ربما من مكان آخر. وعلمت أنه بعيد جداً عن موطنه. ولكن بعد تقلبات في الأحداث، كان الحظ إلى جانبه، ووضع تحت رحمته شارلكان، إمبراطور الرومان، ملك إسبانيا، ملك نابولي وصقلية ودوق بورغندي. لقد كان وضعاً مذهلاً جداً.

تحدثت بصوت ناعم ولكنه حازم. لن يتسامح العالم المسيحي أبداً مع وضع كهذا. ولن يتسامح البابا مع ذلك. وسيأمر بحملة صليبية للسيطرة على غرناطة، على الرغم من أن علاقته مع شارلكان لم تكن الأفضل. وستعلن محاكم التفتيش حتماً أن عبدة الشمس هراطقة. وسرعان ما سيأتي فرديناند، أرشيدوق النمسا، لمساعدة أخيه، على رأس جيش هائل. لكن يمكن للملك العظيم الذي جاء من البحر - عند هذه الكلمات انحنت مارغريت انحناء تبجيل صغيرة - أن يعتمد، إذا رغب، على دعم ملك فرنسا. ألم يعتقد شقيقها، فرانسوا، تحالفاً مع سليمان، إمبراطور الباب العالي، زعيم الكفار؟ على عكس شارلكان، لم يكن فرانسوا «المسيحي جداً» دائماً مدافعاً شرساً عن العالم المسيحي. وقد أظهر في الخلافات الدينية التي توجب الشمال، الاعتدال والتفهم تجاه اللوثريين. ومن خلال هذا يمكن للمرء أن يستتج

أنه إذا وافق إمبراطور البحار، فإنه يمكن تشكيل تحالف لا ينفصم بين البلدين. وقدم فرانسوا الأول، ملك فرنسا، صداقته ودعمه لأتاهوالبا. لأنه بعد كل شيء، من يريد أن يتخذ من الشمس عدوًا؟

أصغى أتاهوالبا بانتباه شديد. وجعلته بلاغة ملكة نافار، وما فهمه من توازنات العالم الجديد، يمنحها كل ما جاءت تطلبه، مقابل مساعدة عسكرية ثمينة. لقد كان اقتراح ملك فرنسا التحالف عنايةً إلهية. لكن كانت ثمة عقبة يتعذر تجاوزها: فعلى عكس ما أرادت مارغريت تصديقه، كان يمكن لأتاهوالبا التصرف في الملك ولكن ليس في المملكة. إذ لا يزال شارلكان ملكًا وإمبراطورًا حتى وإن كان رهينة، ويمكنه وحده التنازل عن أراضي إمبراطوريته. كان أتاهوالبا يعلم أنه لا أي ضغط أو تهديد يمكن أن يجعله يوافق على ذلك.

غادرت مارغريت إلى فرنسا مع ببغاء ووعود.

اجتمع الإنكا بمجلسه في ساحة الأسود. واقترحت كويا أسارباي قتل شارلكان أو دفعه للتنازل عن العرش لصالح ابنه، الذي كان صغير السن - لم يكن قد بلغ من العمر ستة مواسم حصاد بعد- ما يضمن سهولة انقياده. وعارض كويزكويز قتل الملك، فسيعرض ذلك الكيتونيين لانتقام رعاياه. أمّا بالنسبة إلى شارلكان، فلم يكن لديه أي مصلحة في التنازل عن العرش، بل على العكس من ذلك، كان يعلم أن سيادته هي أفضل حماية له وأنه، إذا ما حرم منها، فلن يعود ذا جدوى لأحد. لذلك لم يكن الكيتونيون في وضع يمكنهم من تلبية مطالب ملك فرنسا.

وطالما أن شارل على قيد الحياة، فلن يتمكنوا من منح أرضه دون موافقته. وإذا مات شارل فسيتركهم عزلاً ضد الجيش الإمبراطوري. وكما هي الحال، كان الضمان الوحيد الذي يمكنهم تقديمه هو عدم شنّ أي هجوم ضد مملكة فرنسا.

وهكذا، ظلت المسألة العسكرية دون حل. فقد كان يلزمهم الرجال للدفاع عن أنفسهم، والذهب لتجنيد الرجال. فتقرر استدعاء مبعوث آل فوغر، الذي لم ير أي اعتراض على تقديم الأموال، لكنه طالب بضمانات عجز الإنكا عن تقديمها.

لذلك كلف هذا الأخير هيغويناموتا بمهمة سرية. كان من المقرر أن تعود الأميرة الكوبية إلى لشبونة. وسيرافقها، بناء على طلبها، الشاب بيدرو بيزارو. وأخذاً معهما عدداً قليلاً من الكونفرسو، الذين حملوا على البغال حمولة من المشروب الأسود وسيوف طليطلة الجيدة، والبنادق، والصناديق التي تتكلم، والقمح واللوحات وخرائط العالم الجديد. ووافق شارلكان على إرسال رسالة إلى صهره الملك جواو الثالث، يحثه فيها، حباً بالإمبراطور، على تزويدهم بسفينة جيدة وأفضل قبطان يمكن أن يجده. كما أسر أتاهاوالبا لصديقه الكوبية بخيبو مكوّن من مجموعة من الخيوط التي رتب عُقدها بدقة أمين الحفظ الشخصي، ولم يكن يعلم محتوى الرسالة أحد، ولا حتى هيغويناموتا التي كان يثق بها ثقة عمياء.

كان هذا الخيبو رسالة لا بد أن تسلم فقط لأخيه هواسكار.

كان من بين حاشية شارل كان أموتا عهد إليه بتدوين أحداث عهده، وبتعليم ابنه فيليب الصغير كذلك. وقد أظهر هذا الرجل اهتمامًا بالكيثونيين بدا اهتمامًا صادقًا. وكان حريصًا دائمًا على تبادل الحديث معهم، وطرح عليهم أسئلة كثيرة حول تاريخهم وعاداتهم ومعتقداتهم، وأظهر لهم فيما يبدو أعمق تعاطف. لذلك كان هو أول من فهم من أين جاؤوا، وما الذي أوصلهم إلى إسبانيا.

كان اسمه خوان جينيس دي سيبولفيدا⁽¹⁾.

وكان لديه مُعلِّم كثيرًا ما يأتي على ذكره، يدعى أرسطو، واثنان من الأعداء لا يفوت فرصة لمهاجمتهما: إراسموس ولوثر. في الواقع، كان هذا الرجل مخادعًا، وكان بارعًا في المداينة لدرجة أنه نال ثقة الكيثونيين، فعينوه على رأس وفد سفارة إلى سانتا في. وكان عليه أن يؤكد للإسبان أن ملكهم يحظى بمعاملة جيدة، مثله مثل زوجته وأطفاله، وأنه يتمتع بجميع صلاحياته باستثناء حريته في التنقل، وأنه سيظل كذلك طالما لم يتعرض قصر الحمراء إلى أي هجوم. ونتيجة لذلك طلب الملك من قادة جيشه بأن لا يقدموا على أي فعل، من أجل إطلاق سراحه.

لكن بدلًا من ذلك، راح سيبولفيدا يثير حميتهم، ويقسم لهم إنه ما لم يتدخلوا فقد يُقضى على ملكهم في أي لحظة، وإنَّ

(1) خوان جينيس دي سيبولفيدا (-1494 1573) عالم إنساني وفيلسوف ولاهوتي إسباني في عصر النهضة.

الملكة والرضيع سيصيبهما الهزال بسبب سوء المعاملة التي كانا يتعرضان لها، وأنهما يستحمان في قذارتهما، وما لم يتحركوا على وجه السرعة، فهذا يعني نهاية العائلة المالكة والملكية الإسبانية. وأضاف أن أتاهاوالبا ورجاله كانوا كفارًا وفاسقين، شياطين قدموا من الجحيم، ووثنيين ينكرون حتى اسم المسيح، زناة وعاهرات، يسIRON عراة دون أن يعتريهم أي شعور بالحياء، فيهينون بذلك أعين المسيحيين الطيبين وأرواحهم.

ثم كرّر ما تعلمه عن أولئك الذين اتّمنوه بتهور: فأخبرهم بأن زعيمهم قد طرده شقيقه من بلده، وأنهم، في المجمل، ليسوا سوى مجموعة من الفارين الذين جابوا العالم لمدة طويلة مثل اليهود.

وأكد لهم أنه لم يكن هناك أكثر من مئتين من البرابرة، بينهم نساء وأطفال، وأضاف أنهم، حسب ما لاحظته، بالكاد كانوا يجيدون استخدام القربينات، أو المدفعية عمومًا.

تلقى أنطونيو دي ليفا، الكسيح من شلمنقة، هذه الكلمات بحمية. لكن البقية (تافيرا وجرانفيلوكوبوس) كانوا أكثر حذرًا. فإذا كان الجانب برابرة متعطشين للدماء، فهذا لا يعني أن عقولهم منغلقة، كما تشهد بذلك الأخبار عن رحلتهم وأفعالهم منذ أن رسوا في شبه الجزيرة الإيبيرية. وهم يعلمون أن خلاصهم منوط بخلاص شارلكان، وأنه لا قيمة لرهينتهم سوى حيّ. فضغفهم وقلة عددهم تضمن حياة الإمبراطور.

ومع ذلك، رجحت عوامل أخرى كفة التدخل السريع، فقد كان لا بد من دفع أجور الجنود وكانوا في عوز للمال. وقد

رفض آل فوغر إقراضهم المزيد طالما أن الوضع لم يتضح بعد . وفي غضون ذلك، كان السويسريون يتذمرون، وقد نفذ صبر اللاندسكنيشت⁽¹⁾. ووصلت أنباء انتهاكات ونهب وتمرد في فلاندر وغاليسيا وإيطاليا. ولم يكن أحد يرغب في إعادة إحياء أحداث نهب روما. وإذا انهار الجيش الإمبراطوري، فسيمنح ذلك فرنسا فرصاً للهجوم، وهو ما كان يخشاه المجلس الإسباني أكثر من أي شيء آخر.

ثم ذكر تافيرا اسمًا، بنبرة مهددة، لم يكن الآخرون متأكدين من كان يُخاطب: «سوف يأتي فرديناند». فمن غير المرجح أن يوافق على مثل هذه المماطلات.

ولذا، تقرر أن يعود سيبولفيدا إلى الملك للتجسس على الغرباء، ورصد أخبارهم وأفعالهم. وكان عليه أن يُعدّ خطة لهروب شارل، أو أخذه إلى مكان آمن تمهيداً للهجوم. وفي الوقت المناسب سيفتح أبواب قصر الحمراء. وحتى ذلك الحين، سيستمر في المداينة والتظاهر بالصدقة.

21. الإنكاد، الأغنية الأولى، المقطع 20

اليوم آلهة الأولمب مقبلةٌ

حتى تقرر أقداراً وتمحوها

في مجلس الملأ العالي تجمّعها

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) فرقة من المرتزقة الألمان.

فضلاً لتكتب للدنيا مجاريها
وفي مدار السنا فوق المدى ركضت
تضيء للأرض أقماراً وتطفئها
إذا أتاها المنادى تستجيب له
وإن نادى ثور نداءاتٍ، تلبىها

22. قصر الحمراء

مر القمر تلو القمر. وتحسّر أتاهاولبا على رفقة هيغويناموتا،
وإن كان قادراً الآن على الاستغناء عن الوساطة. كانت كويا أسارباي
حاملاً منه. وأصبح يتحدث مع شارل ويتقن اللغة القشتالية.
فوضعا معاً خططا للانتصار على الباب العالي، واستعادة
القدس وغزو أرض الموريين. وراح أتاهاولبا يحلم بهذا البحر
الجنوبي الذي سماه شارل البحر الأبيض المتوسط. وقد شرح
له سيبولفيدا سر القربان المقدس وفي المقابل أخبره أتاهاولبا
قصة سلفه مانكو كاباك. وكان كويزكويز يلعب مع الأمير الصغير
فيليب وشقيقته ماري. وكان رومينا هوي يتفقد دفاعات القلعة.
توسلت كيسبي سيسا وكوزي ريماي إلى لورنزينو ليصطحبهما إلى
إيطاليا، فوعدهما، ضاحكاً، بأجمل الفساتين. وزرعت الطماطم
في حدائق جنة العريف، على مرتفعات قصر الحمراء. في تلك
الأثناء، كان تشالكو شيماك يراقب سيبولفيدا الذي لم يكن يثق
به. وكان محقاً في ذلك، فقد كان هذا الأخير يخطط لتهديب
سيده.

تأرجح شارلكان بين لحظات التخاذل والعزيمة. وعكف يصلي لساعات في قاعة الملوك في قصر الأسود، القاعة ذاتها التي أقامت فيها جدته إيزابيلا وجدّه فرديناند القداس الأول، بعد الاستيلاء على قصر الحمراء. لم تكن القاعة جزءاً من قصره غير المكتمل، بل كانت في الجزء الذي كان يشغله أتاهاوالبا وحاشيته. وقد منحه الإنكا هذه الحرية بسخاء، دليلاً على التقدير والاحترام من حاكم إلى آخر.

في الواقع، لم يكن شارلكان محبباً للحد الذي يجعله يشعر بالحاجة إلى الصلاة لأمسيات بطولها. لقد كانت هذه فكرة من سيبولفيدا. فقد كانت قاعة الملوك تتيح له الوصول إلى قصر الأسود، الملحق بقصر قمارش. قبل ذلك بزمان بعيد، كان الشاب أبو عبد الله، الذي احتجزه والده في زنزانة بيرج قمارش، قد فر من النافذة بحبل مصنوع من أوشحة معقودة أعدته له والدته.

كان على شارل أن يسلك المسار نفسه. وكان رجال أتاهاوالبا يحرسون، لكن لم يكن عددهم كافياً لحراسة قصر يمثل هذا الكبر، ولم ير أحد أنه من المجدي حراسة سجن فارغ.

لكن محاولة الهرب باءت بالفشل، ففي اليوم المقرر لذلك، تعرض شارل لنوبة نقرس أرقدته بالفراش.

لم يثبط هذا الداهية سيبولفيدا. ففي كل صباح، كانت أبواب قصر الحمراء تفتح لاستقبال الكونفيرسو والمحمديين من حي البيازين، الذين جاؤوا لزيادة القوى العاملة لزراعة الحدائق والطهي وغسل الملابس والاضطلاع بجميع أنواع المهام غير العسكرية، التي لم يكن عدد الكيتونييين ولا مددهم من طليطلة

كافيًا لإنجازها. وفي المساء، كانت تفتح الأبواب مرة أخرى للسماح لهم بالرحيل. ففكر سيبولفيدا في أن يلبس شارل كان زياً تنكرياً لكي يتمكن من الخروج معهم. وأطلع سكان سانتا في بذلك، وستقف مفرزة من الرجال في كمين عند المخرج، تتولى ملاقاته الملك وأخذه إلى مكان آمن.

في ذلك اليوم، عند غروب الشمس، اختلط الرجلان بالعمال العائدين إلى منازلهم. ولكي يمرّ دون أن يلحظهما أحد، ارتديا أبسط الملابس مع غطاء للرأس لإخفاء وجهيهما. لكن كان تشالكو شيماك، المرتاب بطبعه، كان يراقب كل مساء فتح البوابات من الأسوار. فتعرف على شارل كان من أنفه الشبيه بأنف التايير والذي كان يتجاوز غطاء الرأس. وعلى الفور أطلق الإنذار وأمر بإغلاق الأبواب. فسمعه الذين كانوا في الكمين بالخارج وهبوا إليه وهم يصرخون «سانتياغو!». واقتحم المسلحون الإسبان قصر الحمراء. وأطلق الكيتونيون النار، وردّ عليهم المهاجمون. واستحوذ الذعر على العمال وتحول الوضع على الفور إلى حالة من الفوضى. وراحت السهام والمقاليع تتطاير في الهواء. وألقى الرجال بأنفسهم على الأرض، أو راحوا يصرخون من الألم. انسحب الإسبان، الذين كانوا قلّة. وأراد سيبولفيدا أن يأخذ شارل، الذي كان يمسك بذراعه، إلى بر الأمان، لكن الملك سقط بطلقة من نيران القربينة. كان لدى سيبولفيدا الوقت الكافي لعبور البوابة قبل إغلاقها. وتمكن بذلك من الفرار مع الناجين. لكن شارل بقي في الداخل، ممدوداً بين الجثث. وهرع تشالكو شيماك إليه. كان ملك إسبانيا يتنفس بصعوبة.

استغرق الأمر ثلاثة أيام ليموت. ولم تُفهم كلماته الأخيرة.

كانت هذه كارثة بالنسبة إلى الكيتونيين. ومهما كان الثمن، ينبغي التستر على موته. فدفنوا الجثة ليلاً في حدائق قصر الحمراء، بين نباتات الطماطم، دون أي مراسم. لكن سبولفيدا كان قد رآه حين سقط، وأخبر أمراء سانتا في أن ملكهم قد أصيب بجروح قاتلة وأنه لم يعد هناك شيء يقف في طريق شنّ الهجوم على قصر الحمراء. صحيح أنّ الملكة والطفل فيليب وأخته الصغيرة ماري لا يزالون خلف الجدران، في أيدي البرابرة، لكن القلب الجريح لأي مسيحي صالح لن يرضى بسوى الانتقام. وصرخ «Represalia».

لكن كيف لهم أن يتأكدوا من موت شارل؟ لأجل ذلك، أرسل الإسبان وفوداً عادت جميعها. ومع كل ذلك، ظلوا يأملون في حدوث معجزة، ولم يتمكنوا من تحمّل موت ملكهم. فضلاً عن أن الأحداث مثلما رواها سبولفيدا والشهود الآخرون لم تكن واضحة، ولم يكونوا على يقين حتى من مصدر الطلقة القاتلة. وأقسم سبولفيدا إن الطلقة جاءت من الأسوار، لكن تحيزه جعل حكمه مشكوكاً فيه. إلى جانب ذلك، لم يغير هذا شيئاً من الأمر. فإما أن تشارل لا يزال حياً وإما أنه مات.

استغل الكيتونيون هذا الوقت من التردد لدى خصومهم لوضع استراتيجية. وكانوا يشكون في أن يكون للملكة وطفليها وزن كافٍ لكبح الإسبان، وأن الهجوم وشيك. وإن كان قصر الحمراء محصناً ومنيعاً، فدون رهينة يُستفاد منها، كانوا يدركون أن عددهم غير كافٍ لتحمل الحصار. واقترح تشالكو شيماك صنع دمية للملك

والسير بها على طول الأسوار، كما لو أنّ الملك لا يزال حيًا. لكن اقتراحه رُفض، وإن أشاد الآخرون ببراعته.

في الواقع، كان الموقف يتطلب قرارًا واحدًا فقط: لا بدّ من محاولة الخروج. وحين أعطاهم قادة سانتا في إنذارًا أخيرًا يطالبونهم فيه بإثبات أن شارل لا يزال على قيد الحياة، قرر أتاهوالبا أنهم سيغادرون في ذلك المساء في هدوء قدر الإمكان. وإذا تمكنوا من الوصول إلى الجبال، فربّما سينجون. ومن باب الحيلة، أخذوا الملكة وطفليها معهم.

ما إن تجاوز آخر لاما في الموكب عتبة قصر الحمراء حتى فقد كلّ أمل في أن تتحقق هذه الخطة. فقد كان الإسبان ينتظرونهم، وانقضوا عليهم. وقُطع أمام الكيتونيين الطريق الجبلي، ودُفعوا إلى أسفل التل، حيث يتدفق نهر صغير، وهناك شرع الإسبان في ذبحهم. وبدأت كويا أسارباي تشعر بانقباضات الولادة.

على المنحدر الآخر، اعترض تل البيازين طريقهم، ووجدوا أنفسهم في الأسفل على وشك الموت، لكن حي البيازين لم يكن نائمًا، بل على العكس من ذلك، كان يبدو كأنّه ينبض بالحياة مثل البحر، وكان سكانه يتأملون مشهد مقاومة الغرباء البطولية في وجه المسيحيين، وقد سُحقوا تحت نيران المدفعية وهجمات سلاح الفرسان الإسباني. وارتفعت الأصوات في الأزقة البيضاء. وراح الموريسكيون يرددون عبارة، بلغتهم، يؤمنون بالقول: «كيفما تكونوا يولّ عليكم». لا شك في أنّهم رأوا في الوضع الحالي فرصة سياسية وسمائية وعاطفية. وانحدرت موجات من الرجال أسفل التل وألقوا بأنفسهم في المعركة. من أين جاؤوا بالأسلحة؟ من

المطابخ والمحلات التجارية والورش والحقول. أو ربّما احتفظوا بها أو سرقوها أو صنعوها بأيديهم تحسبا لوقوع حدث مماثل. كسرت المفاجأة زخم الإسبان. وقد كانوا مجهزين تجهيزاً جيّداً وكان عددهم كبيراً بحيث لا يمكن تفريقهم، لكنهم استسلموا، وتراجعوا، لكن تراجعهم كان دون كسر الصفوف. غير أنّ هذا كان وقتاً كافياً للكيثونيين للهرب من الوادي الذي كانوا عالقين فيه، وضاعوا في متاهة الأزقة البيضاء حيث لن يبحث الإسبان عنهم.

23. غادش

انتشرت الثورة المورسكية في جميع أنحاء الأندلس. واستغل أتاهوالبا الارتباك الذي أحدثته الثورة للفرار مرة أخرى. كان حي البيازين ملجأً مناسباً لمعالجة الجرحى فقط، لكنه لم يكن ملاذاً يمكنهم البقاء فيه إلى أجل غير مسمى، ففاجلاً أم آجلاً سيعود الإسبان. وسيأتي فيردناند هذا، الذي قيل إنّ لديه جيشاً هائلاً، للانتقام لمقتل أخيه.

بعد قرطبة وإشبيلية... تجنبوا الآن المدن. وتركوا خلفهم ببغاواتهم واللاما والقوارض وحتى كوجر أتاهاوالبا، وأخذوا فقط رهائنهم الثلاث الأخيرة، الملكة وطفليها، كل ما تبقى لهم، في ذلك الوقت، من تاج إسبانيا. وامتنطى أولئك الذين يستطيعون ركوب الخيل الأحصنة؛ ولم يكن هناك محفات، فقط عدد قليل من العربات لحمل الجرحى. وتبع هذا الموكب المثير للشفقة مسارَ الشمس وهو يئن، بينما تحلق النسور (طيور الكندور لهذا البلد) فوق رؤوسهم.

لو كانت نية أتاهاوالبا هي ببساطة بلوغ البحر، لكانوا اتجهوا جنوبًا. لكنّه كان يتوق إلى الغرب، كان دائمًا يتجه غربًا، من مطلع الشمس إلى مغربها، دون أن يحيد عن مساره، دافعًا الرجال والحيوانات لاستنفاد آخر طاقتهم، كما لو كان يركض وراء الشمس، أو يريد اللحاق بها، أو بلوغها، أو تجاوزها، ولكن دائمًا ما تفلت منه الشمس، «إنتي»، سلفه وإلهه، إلى أن وصلوا إلى غادش.

بدت المدينة مهجورة. لكنّ سكانها، الذين لم يعرفوا ما الذي ينتظرهم، كانوا مختبئين في منازلهم، وأغلقوا المصاريع. وتقدم الكيتونيون بخطى بومًا، وهم يستشعرون وجودهم المكتوم. كان معبد غادش -الذي بني تكريمًا للإله المسمّر- صرخًا هائلًا آخر أرادوا التوقف فيه والاستراحة. لكنّ أتاهاوالبا كان يريد بلوغ الميناء بأي ثمن. وبدأ رجاله يشتبهون في أنه كان يبحث عن سفينة للعودة إلى الديار. واعتقد البعض أنها لم تكن فكرة سيئة. لكن لسوء الحظ، كان المرفأ خاليًا، باستثناء عدد قليل من القوارب، وكانت كل السفن قد غادرت. وعندها فقط وافق أتاهاوالبا على حط الرحال بالمعبد.

مضت الأيام. وذهب الكونفيرسو والموريسكيون، الذين ظلوا مع الكيتونيين، إلى المدينة ثمّ عادوا بالطعام. وفي أحد الأيام، جاء ابن العجوز، اليهودية من طليطلة، بأخبار مقلقة: ثمة فرقة من الجنود تقترب. إنهم يبحثون عن الكيتونيين للقبض عليهم أو قتلهم على الفور. وهم بلا شك مجرد طليعة، فجيش شارلكان في الطريق، وربما جيش فرديناند أيضًا. ولا بدّ من الفرار دون تأخير.

لكن أتاهاولبا لم يعد يرغب في الفرار. ولم يعد الرجال قادرين على ذلك بعد الآن، وكانت زوجته الشقيقة على وشك الولادة. لقد كانوا في نهاية الطريق. وأخبره أولئك الذين كانت ربتهم تسمح لهم بمخاطبته أن كل ساعة يقضونها في الانتظار كانت خطأ قد يكون له عواقب لا يمكن إصلاحها، لكن الإنكا الشاب ظل هادئاً. وأصدر تعليماته إلى كويزكويز لتنظيم دفاع المدينة. كانت غادش محاطة بأسوار، وكان بإمكانهم الاعتماد على دعم الموريسكيين من حولهم، لكن إذا كان الأمر يتعلق بتحمل الحصار، فلماذا غادروا قصر الحمراء؟ تساءل جنرالاته. ولا يمكن مقارنة الأسوار التي تحيط بمدينة غادش بأسوار القلعة الحمراء العملاقة المتربعة على صخورها. وبالطبع، لم يجرؤ أحد على قول هذا أمام أتاهاولبا. فقط كويا أسارباي، التي كانت تقترب من وضع مولودها، اشتكت وهي تنن.

وسرعان ما تدهور الوضع. وكان كويكويز قادراً على صد الطليعة الإسبانية، ولكن بعد ذلك بدأ حصار جديد، في ظل ظروف أكثر غموضاً. فقد كان السكان الذين بقوا في المدينة عدائيين تجاه الكيتونيين وجعلهم الميناء عرضة لهجوم بحري. وكان هذا هو المكان الذي ركز فيه أتاهاولبا كل انتباهه، فيما ترك الدفاع عن الأسوار لجنرالاته. ويمكن القول إن هذا هو المكان الذي ألقى عليه أثقل وزن في كفتي الميزان.

ذات صباح، حين شعر الكيتونيون أن انتهاء الحصار هو مسألة أيام فقط، وربما ساعات، لاحت خمس سفن في الأفق. وبعد الحصار، اعتقد الكيتونيون أن قصتهم هذه المرة قد انتهت

إلى الأبد. ووحده أتاها والبا فكر في احتمال آخر. راحت عيناه
تفحصان مقدمة السفن. وبينما انتظر رفاقه المذعنون طلقات
المدفع الأولى، تعرف هو على هيغويناموتا، وبيدرو بيزارو،
وتوباك هوالبا، شقيق هواسكار وشقيقه. حينها، عرف أنهم نجوا،
وأن هذا العالم سيكون له.

24. الإنكاد، الأغنية الأولى، مقطع 24

يا قاطني إمبراطورية النور
من السماء ومن قطب بها عظمًا
تذكروا كلكم أن تسمعوا كلمًا
عن كيتونيين يعلو قدرهم همما
لهم من المجد تاريخ إذا غنما
من ساحة القدر الموعود جائزة
ستمحي عن التاريخ ذاكرة
للفرس والروم واليونان، ما ظلما

25. الفتح

لم تكن ألمانيا تهمة، ولا إنجلترا، ولا سافوا، ولا فلاندر. لكن
الأندلس كانت مهمة له. قشتالة. إسبانيا. لقد أصبحت الأندلس
أرضه الآن، وهو مستعد للموت من أجلها، إذا كان عليه ذلك، لكن
ليس اليوم.

كانت مخازن السفن مليئة بثلاثة أشياء: الذهب، والفضة، وملح البارود.

باستخدام ملح البارود، شحن كويزكويز مدافع الأسوار وفرّق المحاصرين. ولم يكن الأمر يتعلق بالتصدي للجيش الإسباني، بل فقط لإرسال رسالة مفادها: لقد تغير الوضع. وعالمكم لن يكون هو نفسه مرة أخرى. فأنتم الآن الربع الخامس.

بالذهب والفضة يمكن شراء الرجال. وما إن ذاع خبر المخازن المليئة بالذهب حتى ركض المرتزقة. وهجر كثيرون الجيش الإسباني للانضمام إلى قوات الإنكا.

وأعلن أتاهاوالبا أنّ الكونفرسو واليهود والموريسكيين واللوثريين والإراسموسيين والسدوميين والسحرة هم من الآن فصاعدًا تحت حمايته.

كل يوم، كان يفد المئات على جيشه، مثبتين بذلك صدق إعلانه.

بينما كان يرسل مبعوثًا إلى نافارا، كان مبعوث آخر يركض نحو أوغسبورغ.

استولى أتاهاوالبا على إشبيلية دون طلقة مدفع. وأسكن الملكة والرضيع معه في قصر المورق.

ومن إشبيلية أقام رابطًا بحريًا مع تاهوانتينسويو، الذي سيمر عبر كوبا، وبذا سيضمن توفير الذهب والفضة، وسيقدم له الآن فوغر المال بقدر ما يريد.

لقد كان لدى أتاهاوالبا احتياجات كبيرة بقدر الخطط الكبيرة التي كان يمتلكها.

واستدعى أعضاء الكورتس على الفور ليقرّوا تعيين الطفل فيليب ملكاً مستقبلياً لإسبانيا، ويصدّقوا، تبعاً لذلك، على وصاية أتاھوالبا عليه. ففي هذا العالم، يبدو كل شيء ممكناً بالذهب؛ أو على الأقل لم يكن هناك شيء ممكن دونه. لقد سهّل الذهب والفضة كل شيء.

لم يعد لدى حزب تافيرا وجرانفيل، الذي كاد يقضي عليه، أي وسيلة لمعارضته: فقد ماتت الشرعية مع شارلكان، ونفذ الذهب، ودمّر جيشهما مرض مجهول.

وسارع الإنكا إلى تقديم إقليمي فلاندر وأرتوا إلى ملك فرنسا، وذهب جيش فرديناند للدفاع عن مقاطعات أخيه، تاركاً له الساحة فارغة.

الآن، يريد أن يتولى الملك. أو بالأحرى، بما أن تاج إسبانيا لم يكن شاغراً تماماً، فقد أراد أن يتولى الحكم.

ما الذي عرضه على هواسكار لعقد السلام؟ المشروب الأسود، القربينات، قليل من القمح، الأوراق المتكلّمة واللوحات. وفكرة أن العالم كان كبيراً بما يكفي لكليهما. واحتمال ثروات جديدة، مقابل ما تزخر به تاهوانتيسويو: الذهب والفضة.

وهكذا اكتشف الإنكا التجارة، هذا النشاط المتمثّل في تبادل البضائع باستخدام العملة.

لقد أنجزت هيغويناموتا مهمتها على أتمّ وجه. كان من الممكن أن تبقى في كوبا مع أسرتها ولن تعود أبداً. لكنها قررت خلاف ذلك، ربما بدافع حب أتاھوالبا، على الرغم من أنها لم تخف علاقتها بشاب بيزارو. لكن مما لا شك فيه، وبالتأكيد، أن حب المغامرة، والفضول قد انتصرا في اختيارها. لقد أحببت عالم

الغضب والوعود هذا؛ وأرادت أن تعرف إلى أين سيفضي بهم كل ذلك. ثم إنها أرادت أن ترى إيطاليا أيضًا. إلى جانب ذلك، شعرت بالحزن عندما علمت أن لورنزينو قد عاد إلى بلاده. ولم تكن تعرف بعد ذلك المصير المخصص لشاب من فلورنسا. لم يكن لديها أي فكرة عما سيأتي.

26. الإنكاد. الأغنية الأولى. مقطع 74

قدري قضى ظلمًا ونصري
مضى لابن الغريب وضاع قصري
وإن لسوطه وقعًا يخيفُ
بواسل أرض أوروبا في كل شبر
وأنا ابن من كان الجليل مهابةً
ورثت عنه إذا ورثت ثياب فخرٍ
ولكنّ الزمان طغى وولى أمري
غريبًا صار يدعوني لكفرٍ

27. مانكو الشاب

كان توباك هوالبا قد أحضر معه خيבו يضم رد هواسكار على رسالة أتا هوالبا.

غفر هواسكار لشقيقه وكان على استعداد لنسيان جرائمه السابقة منذ أن تخلص عن المطالبة بعرش الأرباع الأربعة. وأرسل

له، بناء على طلبه، ثلاثمئة رجل وكميات كبيرة من الذهب والفضة وملح البارود. وتوقع، في المقابل، مزيداً من المشروب الأسود، وعصي النار، واللوحات السحرية التي توهمك بالعمق. وشكر شقيقه لإرسال المهندس بيدرو بيزارو لشرح كيفية عمل هذه الأسلحة الجديدة. وكما بدا له، فقد عرف الإنكا كيف يصنعون بنادقهم الأولى، وقد زدوا بها السفن التي استأجروها من كوبا. تخلى هواسكار، بطيبته اللامتناهية، وبناءً على طلب أخيه وبدافع حبه له، عن غزو الجزيرة التي كانت تتحدر منها الأميرة هيغويناموتا (مقابل جزية بسيطة).

نُسج الخييو في توميبامبا، حيث كان هواسكار يقيم مع حاشيته، لأنّه لم يعد يرغب في العودة إلى كوزكو، ربما لأنّه شعر أنّ مسار الأحداث سيستمر في التحرك شمالاً (كان الجنوب محظوراً على أي حال بسبب شعب الأوروكانوس المتوحش). لم يكن الوصول إلى الإمبراطور سهلاً على هيغويناموتا، لكن الأميرة الكوبية، كما هي الحال دائماً، تترك انطباعاً حيثما حلت. وفي لشبونة، لم تنجح في الحصول على سفينة واحدة فقط من جواو، بل على ثلاث سفن، وقد ساعدها في ذلك حقيقة أنّ إيزابيلا، أخت الملك وزوجة شارلكان، كانت بين يدي أتاهاوالبا. ولدى عودتها إلى كوبا، قام التاينو، الذين اكتسبوا المعرفة الفنية اللازمة، ببناء سفينتين أخريين، في أثناء ذهابها للبحث عن هواسكار في قلب الإمبراطورية.

فك الإمبراطور رموز الخييو، وقد أعجب بالهدايا التي أحضرتها هيغويناموتا معها، وكان لطيفاً بما يكفي لتلبية طلبات

أتاهوالبا، ذلك لأنّ الأرباع الأربعة لديها كمية كبيرة من المنتجات التي طلبها. وكان قد كلف شقيقه القائد توباك هوالبا بمهمة تسليم البضائع. وكان أتاهوالبا قد قرر، بالاتفاق مع هيغويناموتا، بعد فحص الخرائط التي أصبحوا يجيدون قراءتها، أنّ السفن لن تنزل في لشبونة، ولكن في غادش، بالقرب من غرناطة.

جاء توباك هوالبا مع أخ آخر غير شقيق، أصغرهم مانكو كاباك، الذي كان يتمتع بشرف حمل اسم سلفهم الأول. وغادر توباك هوالبا بسفن محملة بالأسلحة والنبذ واللوحات، لكن الشاب مانكو كاباك بقي. وسيكون سفير هواسكار في إشبيلية، أو بعبارة أخرى جاسوسه، وهو ما سيتظاهر أتاهوالبا من باب الكياسة بجهله.

28. قصر المورق

كان استقبال إشبيلية للكيثونيين مختلفاً تماماً عمّا سبق. في هذا اليوم، امتطت الملكة إيزابيلا حصاناً أبيض وكانت ترتدي الساتان الأبيض كعلامة على الحداد. وبجانبها، ارتدى أتاهوالبا التاج القرمزي للسابا إنكا على جبينه.

جاء أعظم أمراء المدينة، دوق مدينة شذونة، ودوق أركوس، وماركيز طريفة، لمقابلتهم مع العمدة (وهو الكورাকা المسؤول عن إدارة المدينة)، وانحنوا جميعاً أمام الملكة والإنكا.

تبعهم فيليب الصغير وأخته، بالإضافة إلى جيش من ستة آلاف رجل.

عندما دخلوا المدينة، تبادل تشالكو شيماك وكويزكويز النظرات، ومن السهل تخمين أنهما تذكران ذهابهما إلى خيمة شارلكان، في ريف شلمنقة، وهما يقيسان المسافة التي قطعها لأجل المراسم الرسمية، وقد استُغني عنها الآن.

كان كويزكويز يشاهد أمامه قفزات سمبيري، كلب الإمبراطور الأبيض الطويل، الذي تبع فيليب الصغير منذ هزيمة غرناطة. ولا تزال آثار مخالب كوجر أتاهاوالبا على خطم الحيوان. وعندما رأى حدائق القصر الأندلسي وانبهر بروعتها، فكر كويزكويز في أن الوحش كان سيرغب في البقاء هنا، وتسلق أشجار النخيل، والاستحمام في البرك، وصيد الطيور، وتساءل أين يمكن أن يكون الكوجر الآن.

وفي هذه الحدائق، أنجبت كويا أسارباي ابناً، أطلق عليه والده اسم شارل كاباك، تكريماً لمنافسه التيس. وسُمح لفيليب الصغير أن ينحني على المهد وأن يكون عرابه. وبناءً على إصرار إيزابيلا، التي كانت شديدة الورع، رُش كاهن محلي الطفل بالماء، تحسباً لأي سبب. ورأى أتاهاوالبا في هذه المعمودية سياسة رشيدة. حتى أنه عرض على إيزابيلا أن يتخذها زوجة ثانوية، لكنها رفضت العرض.

عاد لورنزينو من إيطاليا برفقة فنان مشهور يدعى مايكل أنجلو، كان قد ذهب للبحث عنه في روما. في البداية، تناقشوا في بناء قبر لنقل جثة شارلكان التي تُركت في قصر الحمراء بين زروع الطماطم. ثم عهد إليه بمهمة إنجاز منحوتة لفيراكوتشا، خالق الشمس والقمر والنجوم. وكان أتاهاوالبا يود منه أن يصور

زوجته الشقيقة وابنه المولود حديثاً، ولكن لأنّ الفنان كان يكره رسم الأشخاص الأحياء، فقد اضطر أتاهاوالبا إلى التخلي عن الفكرة. وكُلّف لورنزينو بالبحث عن رسام آخر يعيش في مدينة تدعى البندقية، سبق أن عمل مع شارلكان. ومع ذلك، وافق مايكل أنجلو على استثناء الأميرة هيغويناموتا، التي صنع لها التمثال الرائع الذي يقف الآن في المعبد الكبير لإشبيلية، حيث تزوج شارلكان وإيزابيلا ذات يوم.

في الواقع، كان أتاهاوالبا يفضل العودة إلى غرناطة لأنّه كان يفضل التربع على مرتفعات قصر الحمراء، لكنّه بحاجة الآن إلى مكان إقامة متصل عن طريق البحر بموطنه، وكان نهر الوادي الكبير الذي يعبر إشبيلية (وإن كان ضحلاً وصعباً على السفن ذات الحمولة الكبيرة التي أرسلت إلى كوبا أن تبهر عبره) يحقق هذا الشرط. وسرعان ما تدرجت براميل المشروب الأسود والطحين، ليلاً ونهاراً، على طول أرصفة الميناء، وهي تتقاطع مع براميل الملح الصخري والكوكا التي كانت تتدحرج في الاتجاه المعاكس، وأنزلت مع صناديق الذهب والفضة التي أرسلها هواسكار، فيما كانت الجرار المليئة بزيت الزيتون والعسل والخل تُشحن، وقد أولع بها الإنكا في ما وراء البحار.

اتسعت المبادلات إلى حد أن أتاهاوالبا أمر بإنشاء مؤسسة مخصصة، أطلق عليها السكان المحليون اسم «مقرّ التاجرة المركزي»، لإدارة العلاقات التجارية بين تاهوانتينسويو والربع الخامس. ولم يُسمح لأي شخص، في إسبانيا أو في أي مكان آخر على جميع أراضي بلاد المشرق، بالتجارة مع دول الغرب دون

المرور عبر إشبيلية، باستثناء لشبونة، التي حصلت على إعفاء عرفاناً على المساعدة التي قدمتها إلى هيغويناموتا، والتي دونها كان من الممكن أن ينتهي أمر الكيتونيين في إسبانيا، وكانت القصة بكاملها ستأخذ مساراً مختلفاً. (ومع ذلك، كان من المقرر التبرع بخمس كل شيء تأتي به السفن البرتغالية إلى تاج إسبانيا).
كان هذا شكلاً من أشكال التعويض للملكة إيزابيلا، أخت جواو الثالث، عن فقدان زوجها الحبيب.

29. الكورتس

تعويض آخر كان ترقية ابنها البكر إلى منصب ملك إسبانيا. كان العرف ينص على أن تأتي مجموعة من اللوردات والكهنة والتجار من جميع أنحاء قشتالة لتقديم ولائهم للملك الجديد. وهذا هو الكورتس. وكان الاحتفال الرسمي مخيفاً لفيليب الصغير. لكن لتجنب أي إحراج، تولّى تشالكو شيماك كتابة خطابه، وعمدت هيغويناموتا إلى ترجمته إلى اللغة القشتالية بمساعدة بيدرو بيزارو. وقد تفضل دوقات أركوس ومدينة شدونة بمراجعة الخطاب، وإثرائه بمعرفتهم بالمؤسسات والبروتوكولات المحلية. وهكذا، يمكن لفيليب الصغير أن يثبت أنه على قدر المهمة التي أقيمت على كاهله، فقد أَرْضَى الرب أن يعهد إليه بمصير إسبانيا في مثل هذه السن المبكرة. ورأى اللوردات الإشبيليون، الذين راجعوا الخطاب، أنه من المناسب الإشارة إلى أن الرب قد دعا والده في سن الثالثة والثلاثين، فأورد تشالكو شيماك هذه

المعلومة عدة مرات في نص الخطاب، رغم اشتباهه في أهميتها الرمزية.

غير أنّ الرب الرحيم لم يشأ أن يترك الملك الصغير ضعيفاً وحيداً لتولي مثل هذه المهمة العظيمة، وأرسل إليه من وراء البحار ابن الشمس، ليرشده وينصحه.

فضلاً عن ذلك، كان من الصعب تمرير هذا الدور الاستشاري دون أن يلاحظه أحد: فكلّما تردد فيليب الصغير أو فقد تسلسل خطابه، ركع تشالكو شيماك، الذي كان بجانبه، ليهمس في أذنه بالكلمات التي كان عليه أن يتلفظ بها. غير أنّ الأمر لم يترك انطباعاً طيباً لدى المجتمعين. ثم تذكر الأكبر سنّاً بينهم أن الأمر كان كذلك، فمنذ وقت ليس ببعيد، كان هذا هو حال شارل الشاب وسيدة العجوز لورد شيفر. صحيح أنّ الوضع كان مختلفاً بشكل كبير، لكنه في النهاية لم يكن أقل استثنائية من وصول ملك شاب لا يتكلم كلمة واحدة بالإسبانية. فعلى الأقل ولد فيليب في بلد الوليد وليس في فلاندر. أمّا بالنسبة إلى السيد من وراء البحار، فقد كان لديه الذهب ويبدو أنه مستعد لمشاركته.

وهكذا يمكن للملك الصغير أن يباشر أولى مراسم حكمه، مستوحياً من حاشيته الجديدة.

ونص أول مرسوم على حل المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش والإلغاء التام للمحكمة التابعة للديوان المقدس. وحين سمع أتاهوالبا اللفظ الذي دار بين المجتمعين، بمن فيهم بعض ممثلي الكهنة، أدرك أنّ هذا الإجراء سيتلقى ترحاباً شعبياً.

أمّا المرسوم الثاني، فنص على التنازل عن أرتوا وفلاندر لمملكة فرنسا، مقابل معاهدة تحالف مدعمة بوعده بالمساعدة المتبادلة. ولم تكن المقاطعات الشمالية موضع اهتمام الإسبان، وقد قوبل هذا الخبر بلا مبالاة يشوبها شيء من الارتياح. أخيراً، عُيّن السيد الآتي من وراء البحار، أتاهاوالبا ابن الشمس، في منصب مستشار الملك، بدلاً من نيكولاس بيرينو دي غرانفيل، الذي، على غرار باقي المتمردين، وضعت مكافأة مقابل رأسه.

وكانت المكافأة المقدمة مقابل رأس سبولفيدا، الذي أُعلن أنّه مسؤول عن وفاة الملك شارلكان، ألف دوقية.

وعُيّن بيدرو بيزارو وزيراً للخارجية ليحتل محل فرانسيسكو دي لوس كوبوس إي مولينا، المدرج أيضاً ضمن قائمة الخارجين على القانون، إلى جانب خوان باردو تافيرا وأنطونيو دي ليفا. أنشئت وزارة للأديان، وكان أتاهاوالبا يود أن يعهد بها إلى إينيغو لوبيز دي لويولا، لكن الأخير رفض، فكان أن تولى هذا المنصب خوان دي فالديس⁽¹⁾ الكونفرسو الإنساني، الذي جاء به لورنزينو من روما.

ألغي مرسوم قصر الحمراء المتعلق بطرد اليهود، الذي وقعته أجداد شارلكان في غرناطة بتاريخ 1492 من العهد السابق.

(1) كان خوان دي فالديس، (-1490 1541)، باحث إنساني إسباني. كان أحد الدعاة الرئيسيين لأفكار إيراسموس في إسبانيا. هرب من محاكم التفتيش الإسبانية وذهب إلى المنفى في نابولي، حيث طور أطروحاته.

30. رسالة من مور إلى إيراسموس⁽¹⁾

من توماس مور إلى إيراسموس دي روتردام، سلام عليك،
أيها العزيز إيراسموس، إنك تعلم أنني مستمتع بتقاعدي منذ
أن سلمت الختم وتخليت عن منصب المستشار الذي شرفني به
صاحب الجلالة الملك هنري.

وقد بلغني أنك غادرت بازل لأنّ تردي صحتك قد جعلك تتوق
إلى الراحة أكثر. وفي هذا الصدد، أمل من كل قلبي أن تكون آلام
داء الحصى قد خفت عليك.

وإن كنت قد تناولت ريشتي اليوم، يا إيراسموس العزيز،
فلكي أناشدك لتساعد صديقك القديم في أمر يتجاوز وضعي
الشخصي ليمس، لا أخشى أن أقول ذلك، مصير العالم المسيحي
بأسره.

لا شك في أنك تعلم أن جلالة ملك إنجلترا قد ركب رأسه
لفسخ زواجه من الملكة كاثرين للزواج بالسيدة آن بولين، وأنّ
البابا قد رفض هذا الفسخ، ما جعله، حالياً، متزوجاً بامراتين
في نظر الكنيسة.

(1) السير توماس مور (1478 - 1535)، محام وقاض، وفيلسوف اجتماعي، ومؤلف،
ورجل دولة، وعالم إنساني إنجليزي. كان مُستشاراً لدى هنري الثامن بصفة
مستشار أعلى للورد إنجلترا من أكتوبر 1529 إلى مايو 1532. وإيراسموس دي
روتردام (1466-1536) هو فيلسوف هولندي وعالم لاهوت كاثوليكي يُعدّ أحد
أعظم علماء عصر النهضة. وكان يُلقب بـ“أمير الإنسانيين”، و“تاج مجد الإنسانيين
المسيحيين”. وكانت تربطهما صداقة، وتبادلا كثيراً من الرسائل، التي تناولت فيها
مسائل فلسفية ولاهوتية.

لا بدّ أنكَ قد سمعت أيضًا عن هذا الدين الجديد الذي ينتشر في جزء من إسبانيا، والذي يسميه البعض دين الإنتي وآخرون دين الشمس، وهو دينُ هذا السيد الجديد أتاهوالبّا، الذي تسبب في موت الإمبراطور شارلكان، ويقال إنه الآن سيد إسبانيا الحقيقي.

الآن، هل يمكنك أن تتخيل ما الفكرة التي خطرت لجلالة الملك؟ إنه يهدد باعتناق دين الإنكا، ومعه كل إنجلترا، ما لم يمنحه البابا رضاه، لأنه سمع أنه في هذا الدين، يمكن للمرء أن يضاعف الزوجات كما يضاعف ربنا الخبز.

قد هدد الأب الأقدس الملك بالحرمان الكنسي، لكن هذا لم يجد نفعا. فصاحب الجلالة مسلوب العقل وعنيد أيّما عناد حتى أنه بدا عازمًا على تجاهل أحكام الحبر الأعظم نفسه.

أيمكنك تخيل كفر أكبر من هذا؟ كان ينبغي لنا أن ندافع عن أنفسنا ضد تقدم لوثر هذا وهرطقته المستهجنة. والآن نحن أمام خطر أكبر وأكثر شيطانية: إنهم هؤلاء الوثنيون البرابرة، الذين خرجوا، على ما يبدو، من الجحيم مباشرة.

أتوسل إليك، عزيزي إيراسموس، أن تكتب رسالة إلى الملك تظهر له فيها كل عواقب هذا الجنون، الذي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى تقويض أسس كل إيمان حقيقي برّبنا. وكما ترى، لم يعد الأمر يقتصر على محاربة أولئك الذين يسعون جاهدين لإنكار المطهر، أو أولئك الذين يرفضون الامتناع عن تناول اللحوم يوم الجمعة المقدسة. ولم تعد وحدة كنيستنا المقدسة في خطر فحسب، بل يوشك العالم المسيحي نفسه على الفرق في الكفر والإلحاد.

في الحقيقة، أفضل ما يمكنك فعله هو نشر نص تذكر فيه ارتباطنا بالإيمان الحقيقي وتدين هذه الخرافات الوثنية. إنك وحدك من يمتلك السلطة الكافية لوضع حد لهذا الجنون، وكلمة واحدة منك يمكن أن تعيد أوروبا كلها إلى طريق الرب. من يدري؟ ربما أرسل الرب أتاهوالبا هذا إلينا، ليصالح الكنيسة مع خرافه الضالة، ويعيد أتباع لوثر إلى رشدهم، لنقف معاً ضد هؤلاء الوثنيين الجدد. تعلم أنني لطالما كنت أتوق إلى أن تصدر من قلبك أنت، أنسب عضو لتحري الحقائق، رسالة تُظهر بما لا يقبل الجدل أنّ إيماننا صحيح. وأعتقد أنه ليس ثمة لحظة في التاريخ أفضل من اليوم، وأتمنى ألا يصرفك شيء عن هذه المهمة النبيلة. اعتنِ بنفسك، إيراسموس، الأعز من بين جميع البشر. من تشيلسي، في 21 يناير 1534 للأستاذ إيراسموس دي روتردام، رجل الفضيلة والمعرفة. من صميم قلبي، توماس مور

31. رسالة من إيراسموس إلى مور

من إيراسموس إلى توماس مور، سلام عليك، لم تخطئ يا صديقي حين شعرت بتعبي وإرهاقي. في الحقيقة، يخونني جسدي ولم يعد يمر يوم لا أشعر فيه بالأم جديدة.

غير أنني بدافع الصداقة التي بيننا، ولأنك تتناول أموراً مهمة تستحق التوقف عندها، فسأتجشم عناء الرد عليك في عجلة قدر ما أستطيع.

بادئ ذي بدء، لا بد أن تعلم أن الافتراءات قد أضعفتني كثيراً حتى أنني لم أعد أمتلك لا القوة، ولا الحماس، لدخول الساحة مرة أخرى: هذا فيما يتعلق بالرسالة التي تطلبها مني.

فضلاً عن ذلك، تجعلني هذه الافتراءات وفقدان المصداقية التي ألحقت بسمعتي أشك في أن ملك إنجلترا يستمع إلى رجل عجوز قد دفن نصفه وطواه النسيان، الذي رفض في مناسبات عديدة الدعوات الكريمة التي وجهها ملكك إليه.

أمّا بالنسبة إلى البابا، فأعتقد أن أفضل حليف لك في هذا الأمر، والذي سيمدك بأفضل إعانة في مسعاك النبيل هو أتاهاوالبا نفسه الذي أرى أنك تستعجل كثيراً في تشويه سمعته. في الواقع، إن أتاهاوالبا إذ تسبب في موت شارلكان (ابن شقيق الملكة كاثرين الذي هدد روما بالانتقام إذا طُلقت الملكة من زوجها بمباركة من الأب الأقدس)، قد أزال بذلك التهديد الذي كان يمثلته الإمبراطور، والذي كان يقف عقبة لفسخ هذا الزواج. وما إن يُعلن عن فسخه، لن يقف شيء في وجه إضفاء الطابع الرسمي على زواج الملك هنري بالسيدة آن. وحين يُمنح الرضا الكامل، فلن يبقى أمام ملكك أي سبب للتخلي عن الكنيسة الكاثوليكية.

لكن بعيداً عن هذه الاعتبارات، أطلب منك التفكير في ما قلته بشأن الإنكا ودينه. هل تعتقد حقاً أنه أسوأ وأخطر من الهراطقة اللوثريين الذين تشتمهم؟ وهل يضر بكنيستنا أكثر من

الرهبان الجشعين ذوي الأخلاق الفاسدة التي كنت تتدد بها؟ من المؤكد، أنَّ لوثر قد سحب السيف لتمزيق الكنيسة، عن معرفة تامة بالقضية. لكن أتاهاولبا بريء من هذا. هل الذنب ذنبه أن رسالة الإنجيل لم تصل بعد إلى جزيرته، أينما كانت؟

يبدو أنَّك مقتنع بأن أعداء الكنيسة مصيرهم الجحيم، ولا يمكنني أن أعارضك في هذا، لكن تذكر، يا صديقي، أنه ليس بمقدور الجحيم التصدي للوثنيين.

بالإضافة إلى ذلك، إذا أردت إلقاء نظرة على دين الشمس هذا، فسترى عديداً من النقاط المشتركة مع عقيدتنا. ألا تشبه فيراكوتشا والشمس قليلاً الأب وابنه يسوع؟ ألا يستحضر القمر، أُمُّ الشمس وزوجها، بطريقة تصويرية بعيدة بالتأكيد، صورة مريم العذراء؟ ألا يمثل البرق الذي يعبدونه الروح القدس لدينا؟ فكثيراً ما رأيت الروح القدس مُمثلاً في كنائسنا في هيئة طائر، فلماذا لا يكون مثل صاعقة البرق؟

واحذر يا صديقي من أن ترى الهراطقة حيث لا يوجد سوى مخلوقات الرب. ولأن اسم الهرطوقي طالما كان مقيتاً على أسماع المسيحيين، وجب علينا أن نتجنب تلطيخ معناه حتى لا يستخف به أحد. وأنت تعلم أنني أستكر لدى لوثر رغبته في الدمار وشغفه القتالي. حسناً، كما ترى، يا صديقي، أنا أتفق معك في نقطة واحدة: ربما يكون أتاهاولبا هذا فرصة للسلام.

اعتنِ بنفسك، يا صديقي، وبلغ سلامي للسيدة أليس والسيدة

روبر.

من فريبورغ، 28 فبراير 1534

إلى توماس مور، المدافع الأكثر حكمة وحماسة عن الرب.
ديديه إيراسموس دي روتردام

32. رسالة من مور إلى إيراسموس

من توماس مور إلى إيراسموس دي روتردام، سلام عليك،
مرة أخرى، أصابت بصيرتك كبد الحقيقة، يا أحكم الحكماء:
لقد علق الأب الأقدس تهديداته بالحرمان الكنسي وأذن في
النهاية بفسخ الزواج. ولا شيء يمنع الملك هنري من الزواج
بالسيدة بولين بعد الآن.

لكن حتى حصافتك المذهلة لم تصل إلى حد تخمين ما لا
يتوقعه أحد غير الرب.

قد تعتقد أن إنجلترا قد نجت، لأنه لم يعد لدى الملك دوافع
للوقوع في المعصية. لكن، لا بد أن تعلم أن الخطر أكبر من أي
وقت مضى.

هل يمكنك أن تتخيل أن جلالة الملك قد اقتنع بفكرة أن يفتح
معبدًا للشمس مليئًا بالعذارى اللواتي يخترهن بعنايته ويضعهن
تحت تصرفه؟ لقد بلغ به الجنون حدّ إعلان نفسه ابنًا للشمس،
على غرار هذا البربري أتاهاولبا.

لكم أود أن أقاسمك هذا التعاطف مع هذا الدين الكافر، لكن
لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أرى أي صلة بالإيمان الحقيقي.
وماذا لو حدث ذلك؟ بالتأكيد بشر العهد القديم بالعهد الجديد،

مثلما ذكرتني، وقد حمل بلا شك نبوءات مجيء المسيح. لكنني
أسألك يا عزيزي إيراسموس: هل يدفعك الاعتراف بأن موسى
قد مهد لمجيء يسوع، لأن تصبح يهوديًا؟

على كل حال أشكرك على رسالتك إلى البابا، ولا أشك في
أنها لعبت دورًا في قراره فسخ الزواج، حتى وإن لم يأت في
النهاية بالنتائج المرجوة.

حفظك الله يا إيراسموس أعز أصدقائي.

تشيلسي في 23 مارس 1534

إلى إيراسموس دي روتردام، الوداع.

توماس مور

33. رسالة من إيراسموس إلى مور

من إيراسموس دي روتردام إلى مور العزيز، سلام عليك،
ألم أقل لك إن هذا الغريب، هذا البريري، كما تسميه، كان
فرصة لأوروبا؟ في الحقيقة، أنا لا أستحق الثناء على البصيرة في
هذا الصدد، على الرغم مما تقوله، فبفضل رسالة من صديقنا
العزيز غيوم بودي تمكنت من تكوين هذا الرأي.

في الواقع، استقبل الملك فرانسوا الشهر الماضي في
باريس سفيرًا للتاج الإسباني برفقة عديد من هؤلاء الهنود أو
الإنكا، لا أعرف كيف أسميهم. (ربما هم من بلاد فارس، لأنهم
يعبدون الشمس هناك). يبدو أنهم كائنات ذات أدب عالٍ وجمال
رائع، لا سيما أنهم عملوا من أجل توقيع معاهدة السلام بين

فرنسا وإسبانيا، من خلال منح مملكة فرنسا أجزاء كبيرة من ميراث الملك فيليب. في المقابل، أعلن الملك فرونسوا، بحكمته العظيمة، عن تخليه عن ميلانو، الأمر الذي قد يسمح لإيطاليا، أرض الحروب المستمرة، أن تشهد أخيراً فجر سلام دائم. لكن هذا ليس كل شيء. في الحقيقية، إنني أرتجف من السعادة والرضا وأنا أكتب هذه السطور لأبلغك، عزيزي مور، بآخر الأنباء من إسبانيا، إذا لم تكن قد وصلتك بعد.

تخيل أن الملك الشاب فيليب، وعملاً بنصيحة مستشاره الجديد، أصدر مرسومًا في إشبيلية ينص على حرية المرء في اختيار دينه وكذلك ممارسته في جميع أراضى قشتالة وأراغون. والالتزام الوحيد المطلوب هو الاحتفال بعيد الشمس مرتين في السنة. (وحتى أكثر المدافعين عن العالم المسيحي تعصبًا لا بد أن يوافق على أن هذا الإجبار طفيف، وآمل أن تشاطرنى هذا الرأي)

هل تفهم ما يعنيه هذا، عزيزي مور، يا أغلى أصدقائي؟ إن هذا هو الباب الذي سيفتح أخيراً لأوروبا على ذلك التسامح الذي كنا قد يؤسنا من بلوغه، وربما حتى الطريق إلى السلام العالمي، بمشيئة الرب. أتمنى أن يكون مرسوم التسامح هذا مثلاً يحتذى به الملوك والأمراء، ولعله في الوقت ذاته يجرد غضب لوثر من سلاحه.

هل ترى، يا مور العزيز، ما الدرس من كل هذا؟ إن حكمة الوثنى، إذا كان الرب هو من يوجهها، وإن كانت عن غير قصد منه، يمكن أن تقدّم للبشرية أكثر من المسيحي المتعطش للدماء.

بعد كل شيء، ألم يكن سقراط أيضًا مبشرًا برينا يسوع؟ هل تقول إن سقراط وأفلاطون كانا بربريين كافرين؟ من ناحية أخرى، هل تقول إن الراهب سافونارولا الذي جلب الرعب إلى فلورنسا باسم ربنا كان مسيحيًا صالحًا؟

عزيزي توماس، أتطلع إلى رأيك بشأن كل هذا، وحتى ذلك الحين تقبل مني أحر التحيات.

من فريبورغ، في 17 أبريل 1534

إلى توماس مور، أخي الإنساني.

إيراسموس

34. رسالة من مور إلى إيراسموس

عزيزي إيراسموس،

لقد تلقيت رسالتك متأخرة قليلاً، إذ لم أكن في العنوان الذي أرسلت إليّ فيه. لذا، أرجو أن تعذر تأخري في الرد.

كنت أود أن أشاطرك فرحتك وحماسك تجاه سير الأحداث، لكن للأسف، لم تسر الأمور هنا كما كنا نأمل.

كما أخبرتك في رسالتي السابقة، أصدر الملك هنري قانوناً يقضي بأنه ابن الشمس، تمامًا مثل صديقك الجديد، مستشار ملك إسبانيا.

في جميع أنحاء مملكة إنجلترا، عمد الملك إلى استبدال معابد الشمس بالأديرة، التي لم تكن سوى بيوت دعارة يديرها

ما يسميه الأكثر تساهلاً عذارى فستال، ولكن بالنسبة إلى الأكثر وضوحاً منا هنّ عاهرات.

وكما لو كان كل هذا غير كافٍ لعارنا ومحنتنا الكبيرة، فقد طلب من جميع رعاياه أن يعترفوا أن ملكهم هو حقاً ابن الشمس، ببركة الرب، وأن يقسموا على ذلك.

وهذا هو السبب في أنني أكتب إليك اليوم من برج لندن، حيث أنني الآن محتجز، في انتظار محاكمتي وحكم الإعدام المحتمل، بعد أن رفضت، كما يمكنك أن تتخيل، أن أقسم هذا القسم وأقدم دعمي لهذه الهرطقة التي لا يمكن تصورها، والتي وجب على وجه العالم بهذا التجديف الذي لم يسمع له مثيل من قبل.

وداعاً لك يا إيراسموس دي روتردام.

من لندن، في 15 أغسطس 1534

توماس مور.

35. رسالة إيراسموس إلى مور

عزيزي توماس، وأخي الحبيب،

إذا أتيتُ على ذكر سقراط في رسالتي السابقة، فمن المؤكد أنه لم يكن ذلك لكي تتحو نحوه من خلال الذهاب عن طيب خاطر لمواجهة الموت.

أناشدك، باسم صداقتنا القديمة والحب الذي تحمله لأليس ومارغريت وجميع أطفالك، أن تؤدي القسم للملك وتحلف بما يشاء. فما الذي يهمك في نزواته، إن هو ادعى أنه سلطان الترك

أم الرب نفسه؟ أنت تعلم، وجميعنا يعلم، في أعماقنا، حقيقة الرب كما نقلتها رسالة الإنجيل.

ما ينبغي أن يهكم هو حب أهلك، وكذلك المهام التي لا يزال عليك إنجازها. والخير الذي يمكنك فعله على هذه الأرض. إن هذه الأشياء هي أكثر أهمية من صبيانية ملك متقلب، ألا تعتقد ذلك؟ أتوسل إليك يا صديقي القديم أن تتقذ حياتك. ما قيمة قسم يُقتلع تحت رحمة الموت؟ ما المعنى الذي يمكن أن يكون له أمام الرب وضميرك؟

دعني أذكرك بقصة، لم تحدث منذ عهد طويل، وربما لم تنسها، على الرغم من أنها تعود إلى حقبة كنت لا تزال فيها شابًا يافعًا. عندما طلب الملك لويس الثاني عشر، عند وصوله إلى العرش، الطلاق من زوجته، ابنة لويس الحادي عشر، الأمر الذي أثار استياء عديد من الأشخاص الطيبين، بمن فيهم جان ستاندونك وتلميذه توماس، اللذان لم يقولوا شيئًا في مواعظهما، سوى أنه كان لازمًا التوجه بالدعاء للرب أن يلهم الملك الصواب. فاكتمى هذا الأخير بنفيهما واستدعائهما بمجرد اكتمال الطلاق. والآن، دعني أطرح عليك سؤالًا: إذا كان ستاندونك الشديد قد تقبل موقفًا أساء إلى ضميره، ألا يستطيع مور الصالح أن يفعل الشيء ذاته؟ احذر يا صديقي من شيطان الغرور. هل نصحت زوجتك وأطفالك وأصدقاءك باتباع المسار نفسه الذي سلكته برفضك أداء القسم؟ لا، بالطبع، لأنك لا تتمنى موتهم، وأنت تعلم أيضًا أن هذا القسم لا يعرض خلاص أرواحهم للخطر. لم، إذن، لا يكون ما هو جيد بما يكفي بالنسبة إليهم، جيدًا بالنسبة إليك

أيضاً؟ ما هذا الجنوح إلى الاستشهاد الذي يملكك؟
أدعو الله أن يعيدك إلى رشدك ويهبك مزيداً من التواضع،
وسأكتب رسالة إلى الملك هنري على الفور لمناشدته بشأنك.
حتى ذلك الحين، حفظك الرب يا صديقي، ورافقك دعائي.
من فريبورغ، في 5 سبتمبر 1534
إيراسموس

36. رسالة من إيراسموس إلى الملك هنري الثامن

إلى ملك إنجلترا الذي لا يقهر هنري الثامن،
من إيراسموس دي روتردام، سلام عليك،
ثقةً مني بحكمتك الفريدة، أيها الملك العظيم، لا يساورني
أدنى شك في أنك قادر على تخمين الغرض من هذه الرسالة.
وإذا حملت ريشتي اليوم، فلكي أتوسل إلى جلالة الملك أن ينقذ
حياة صديقنا المشترك الجليل، السير توماس مور.
ولا بدّ أن أذكرك أنه ليس من قبيل المصادفة أنك، في وقت
ليس ببعيد، كنت قد أمطرته بالعطايا. وها أنت ذا اليوم تراه
خائئاً، غير مخلص ل صداقتك. لكن هل خانك لَمَّا تتحى طواعية
عن المهمة التي عهدت بها إليه؟ هل كان مخادعاً ومتآمراً، هو
الذي تخلى من نفسه عن أعلى منصب لدى ملك إنجلترا؟
وأنت تعلم، أيها الملك، أنّ صديقنا مور غير قادر على فعل
أي شيء يمكن أن يضر بجلالتك، للحب العظيم الذي يكنه لك.
صحيح أنّه فيما يتعلّق بالدين، يمكن أن يكون في ورعه ما

يثير الإزعاج بسبب سذاجته وميله في بعض الأحيان إلى التطير. لكن ألا يمكن للابن البالغ أن يغفر لوالده كما غفر الوالد يوماً لابنه؟ ما الذي سيجلبه لك قسم رجل تعيش لا حول له ولا قوة؟ أناشدك أيها الملك الحكيم الذي لا يقهر، أن تعيد سيفك إلى غمده، وتتنقذ رأس صديقنا الطيب مور. فبإنقاذ رجل يمثل هذه التقوى وهذا التبحر الفريد في العلم، الذي خلّد اسمه، يكون ملك إنجلترا قد أعز اسمه وأعلى مجده. وإن كنت ترغب حقاً في معاقبته، فأنفه من مملكتك، يا أعظم الملوك، وبذلك تظهر قوتك ورحمتك.

بالنسبة إليّ، ليس لدي أدنى شك في أنّ هذه الكلمات ستلمس قلب الشخص الذي علمته بلوتارخ حين كان لا يزال طفلاً يُنبئ بمستقبل واعد، وقد تجاوز أفضل التوقعات حين بلغ أشده.

فريبورغ، 5 سبتمبر 1534،

إيراسموس دي روتردام

37. إيزابيث

عصف مرسوم إشبيلية مثل إعصار بأوروبا (وكان هذا هو اسم عالمهم قبل أن يصبح الربع الخامس). في إسبانيا، كان من المنطقي والمعقول أن يكون الموريسكيون والكونفيرسو هم أول من رحب بالقانون الجديد، لأنهم كانوا المستفيدين المباشرين منه. وعرف أتاهاوالبا أن هذا المرسوم

قد أكسبه ولاءهم، لكنه حرص على أن لا يأخذه كأمر مسلم به، لأنه كان يعرف الشعوب ومزاجها المتغير.

في كل من ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا (كما تظهر الوثائق السابقة)، وحتى في سويسرا، حيث كان تأثير اللوثرية متنامياً، وحيثما تعرض أتباعها للاضطهاد، وحيثما كافحوا لاستبدال دين جديد متجدد بدينهم القديم (وإن كان ديناً قريباً من الدين القديم، فكلاهما يؤمن بالآلهة ذاتها، ولكن يرغب كل واحد منهما في عبادتها وفق عادات مختلفة)، استقبل مرسوم إشبيلية بالترحيب باعتباره بصيص أمل في عتمة دامسة. ولما كان الحلم بعالم بلا محاكم تفتيش قد بدأ يتبلور في إسبانيا، فربما أصبح كل شيء وارداً، إن لم يكن ممكناً، بما في ذلك السلام والوفاق.

لزم لوثر الصمت بشأن دين الشمس لأنه لم يستطع الموافقة عليه.

ولم يرغب ملك فرنسا، الذي تراجع عن تساهله الأول مع الأمر، في تحقيق السلام مع هؤلاء اللوثرين المتغطرسين، وكان يميل أكثر إلى حرقهم أحياء.

لكن، كان الآخرون قد سئموا من المجازر، وطالبوا بإصدار مرسوم يشبه ذلك الذي أصدر في إشبيلية.

ورويت قصص مروعة عن رجال ذبحوا أحياء، وشويوا، وأكلوا على طريقة الشيريهوانا، القوم الذين ثاروا على الكيتونيين. وذكرت رسالة من مارغريت دي نافارا أنه في فرنسا، التهم حشد من الكاثوليك الغاضبين قلب أحد اللوثرين. وقد بثت قصة هذه الجريمة، التي وصفتها الملكة نفسها بأنها «مجزرة مروعة»،

وتناقلها الناس في قصر المورق، الرعب في قلوب الكيتونيين. وعلى حد قولها، كانت هذه الأعمال المروعة ناتجة عن اعتقاد تعذر عليهم فهمه: فخلال طقوسهم التي يؤدونها في معابدهم، دعا المشرقيين قسيسُهم لتناول كعكة بيضاء صغيرة وشرب رشفة من المشروب الأسود. ولكن، من خلال معجزة التخيل التي وجد الكيتونيون صعوبة في فهمها، اعتقد أنصار الدين القديم أن الأمر يتعلق حقًا بالدم (لأن المشروب الأسود كان يشوبه لون أحمر في الضوء) وجسد إلههم، الذي شربوه وأكلوه.

لم يرغب أصحاب الدين الجديد في تصديق مثل هذا الشيء، غير أنهم ارتكبوا نفس الجرائم. فهم أيضًا أحرقوا الرجال أحياء. دهش أبناء الشمس من أن هذه الخلافات، التي تسببها مثل هذه الخرافات المذهلة، يمكن أن تتحول إلى صراعات مميتة، أحيانًا حتى داخل العائلات أو الآيلو.

وفي ألمانيا، على وجه الخصوص، احتدمت هذه الانقسامات، ووصلت أصدائها إلى إشبيلية.

تركت أميرة تحولت إلى اللوثرية زوجها، مارغراف براندنبورغ الكاثوليكي، لتلجأ إلى عمها، لاندغراف تورينغن، الذي أقر بنفس الحرية الدينية السائدة في إسبانيا في مملكته. وأرسلت خطابًا حارًا جميلًا إلى المستشار أتاهاوالبا لتظهر له إعجابها وتخبره عن الأمل بالسلام الذي بعثه في الشمال (هي نفسها جاءت من بلد صغير لم يسمع به الكيتونيون من قبل، هو الدنمارك). ثم اقترح تشالكو شيماك على سيده أن يقترح عليها الزواج في ضوء التحالفات الجديدة. وكان على كويا أسارباي أن تذكر القائد

بقواعد الزواج في العالم الجديد، التي كان على الأمراء أنفسهم الخضوع لها (مع استثناء ملحوظ، من الآن فصاعداً، لملك إنجلترا): كانت إليزابيث الدنماركية متزوجة بالفعل، وطالما أنّ زوجها حي، لا تستطيع أن تتزوج أي شخص آخر، حتى لو انفصلا ودب بينهما شقاق بطريقة لا يمكن التوفيق بينها. في الواقع، ما كانت تطلبه لم يكن زواجاً، بل جنوداً للدفاع عنها. وناشدت المستشار أن يمنحها الحماية. فمِنذ وفاة شارلكان، امتد ظل فرديناند فوق أوروبا وخاف الجميع من غضبه، وقد أدركوا أنّ غضبه هذا لا محالة نازل بهم، وصلى كل منهم لأجل أن يحلّ بجاره دوناً عنه. وذكرت إليزابيث الدنماركية تشكّل اتحاد شمالالدين، وهو تحالف من الدول اللوثرية الصغيرة، غير أن هذه الدويلات كانت عاجزة على مواجهة الجيش الإمبراطوري. وكان من المقرر تتويج فرديناند، ملك الرومان، وريث شقيقه شارلكان على رأس الإمبراطورية، في مدينة آخن عما قريب. وتوسلت إليزابيث إلى أتاهاولبا أن يمنع هذا التتويج الذي سيكون كارثة على الجميع. ومع ذلك، لم يكن الإنكا في تلك اللحظة مهتماً حقاً ببلدان الشمال أو بالإمبراطور الجديد، لأن انشغاله الرئيسي كان تعزيز موقعه في إسبانيا.

38- بلنسية

بالطبع، كانت الأندلس تنعم بالسلام بالكامل. وعاد رومينا هوي إلى غرناطة لتأسيس حامية هناك. وصنعت غادش سفناً. وشرع

في تشييد معبد للشمس صممه مايكل أنجلو في كاتدرائية قرطبة. وكانت إشبيلية تزدهار ثراء كل يوم، وكان عدد سكانها يتضاعف، ما جعلها أكبر مدينة في العالم الجديد. وتدفق اليهود، ووفروا قوة عاملة ماهرة زادت من ازدهار البلاد. وأخيرًا دفن فيليب الصغير رفات والده، المنقولة من قصر الحمراء، في قبر رخامي بديع نصب داخل الكاتدرائية التي تزوج فيها زوجته إيزابيلا. وجاء لورنزينو، كما وعد، برسام من البندقية، يدعى تيتيان، أثنى على موهبته، الذي عكف فوراً على رسم بورتريه لأتاهوالبا باعتباره ابن الشمس. وكما هو الحال، كانت صناديق الذهب والفضة تتقاطع مع براميل المشروب الأسود في مرافئ الوادي الكبير. ومع ذلك، لا يزال هناك بؤرتان مضطربتان في بقية شبه الجزيرة. إحداهما كانت طليطلة في قشتالة، والثانية بلنسية في أراغون.

كانت طليطلة تؤوي آخر المخلصين لشارلكان. وقد جعل منها موقعها، وكانت تتربع على تل صخري، مدينة منيعة. غير أن معقل أهل طليطلة لم يثر لدى الإنكا وحاشيته كثير من القلق: فدون مدد خارجي، لن يتمكن المتمردون من تحمّل الحصار طويلاً. أمّا بلنسية، فكان الأمر يتعلق بشيء آخر. لقد كانت هذه المدينة بوابة إيطاليا عبر البحر، فكانت السفن تغادر منها إلى جنوة، ومن هناك إلى نابولي وصقلية، التي ورثها فيليب الصغير بعد وفاة والده. وقد عرّضها موقعها ذاته لأطماع القراصنة البربريين وهجماتهم، لصالح سليمان التركي. وفوق ذلك، كان أكثر من ثلث سكان بلنسية من الموريسكيين، الذين اتهمهم المسيحيون

القدامى بالتواطؤ مع إخوانهم في إفريقيا، الذين يتشاركون معهم في الدين واللغة، ولا شك في رغبتهم في إعادة إسبانيا إلى أسيادها السابقين..

سيكون من الكذب قول إن مرسوم إشبيلية قد لقي استحساناً في جميع أنحاء إسبانيا، لأنه لم يفت أحداً بأنه أفاد اليهود والموريسكيين بشكل أساسي. غير أنه كان لنهاية محاكم التفتيش فضل في تقبل المسيحيين القدامى القوانين الجديدة، بعد أن خففت عنهم بإلغاء الجبايات التي أثقلهم بها شارلكان خلال حياته باستمرار لتمويل رحلاته وحروبه. فمع وصول الذهب والفضة إليه من تاهوانتينسويو، لم يكن أتاهوالبا بحاجة إلى هذه الجبايات. فالبؤس هو ما يخلق الفوضى. وهكذا، ازدادت إسبانيا رخاءً يوماً عن يوم.

لكن الخوف أيضاً خلق الفوضى. ففي بلنسية أكثر من أي مكان آخر، ظلّ الموريسكيون موريين، وبينما كان المسيحيون يصدون اعتداءات القراصنة، أحسوا بنصل الخناجر البارد في ظهورهم. وهكذا ولدت حركة تمرد، فنذرت أخوية من المسيحيين القدامى نفسها لمحاربة القوانين الجديدة، وقُتل الكوراكا الذين أرسلتهم إشبيلية.

عرف أتاهوالبا أنّ حل مشكلة بلنسية لم يكن عسكرياً بل سياسياً، وسيتطلب مهارة ومكرًا. ومرة أخرى، طلب أن يُقرأ عليه مكيا فيلي الفلورنسي.

من بين جميع لوحات أتاهاوالبا التي رسمها تيتيان، كانت أشهرها بلا شك تلك التي رسمت في حدائق القصر، والتي احتفظ بها التاريخ تحت عنوان «المجلس». وقد ظهر فيها الإنكا على أنه ابن الشمس، محاطاً بتاجه القرمزي، وقد أبرز الفنان أفضل جانب له (إذ حرص على إخفاء أذنه التي تشوهت في أثناء الحرب الأهلية مع شقيقه)، مع ببغاء أزرق على ذراعه، وسوار من الذهب على المعصم الأيسر. كان يقف أمام نافورة، وُضع على أطرافها سلال من البرتقال والأفوكادو، وكان ينام عند قدميه قط عتابي، ويلتف ثعبان حول ساقه. وفي الخلفية، ترتفع أشجار النخيل إلى السماء، حيث تشرق الشمس والقمر معاً، تحيط بأحدهما هالة ذهبية والآخر فضية. وطُرِّز بخيوط ذهبية على سترة الإمبراطور المصنوعة من فرو الألبكة، شعار النبالة الخاص به: حيث يمكن للمرء أن يميّز قلعة قشتالة، وشرائط أراغون الحمراء والصفراء، والصقربين الشجرتين، بالإضافة إلى سفينة بنفسجية غارقة في ظلال الغروب، تصور رحلته من كوبا. وفي الوسط، خمسة رؤوس كوجر تحت قوس قزح تحيط بفاكهة صفراء ذات بذر أحمر، رمز غرناطة والأندلس.

في الخلفية، نرى كوبا أسارباي تحمل طفلها حديث الولادة بين ذراعيها (وفقاً لعادات العالم الجديد التي تبنتها)، وهيغويناموتا، متفاخرة وعارية، وكويزكويز، وتشالكو شيماك، ومانكو كاباك، وبيدرو بيزارو، ولورنزينو دي مديتشي.

وغاب عن الصورة رومينا هوي وكيسبي سيسا وكوزي ريماي
أوكلو وفيليب الثاني وإيزابيلا.

في الحقيقة، يتيح لنا علم الأنساب في هذه اللوحة تتبع إحدى
أكثر نقاط التحول حسماً في تاريخ إسبانيا والعالم.

في الواقع، اعتاد أتا هوالبا جمع مجلسه خلال جلسات الرسم.
في إحدى هذه الجلسات، اتخذت سلسلة من الإجراءات التي
لم تحدد فقط مصير عدد من الأفراد المهمين، ولكن أيضاً
مصير بلدان برمتها.

كان أتا هوالبا المستشار الوحيد في ذلك الوقت. ولم يصف
الرسام شعارات النبالة الإسبانية إلى سترة الإنكا إلا حين انتهى
من اللوحة.

كان رومينا هوي في الموقع العسكري في قصر الحمراء، وكانت
كيسبي سيسا وكوسي ريماي تلعبان في مكان ما في الحدائق،
لكن غياب الملك الشاب فيليب ووالدته كان يعني شيئاً آخر.
والحقيقة هي أنهما لم يتلقيا دعوة.

ففي النهاية، كان متمردو طليطلة من أنصار الأب. وكان من
الأفضل توخي الحذر من الابن والأرملة.

تقرر إرسال كويزكويز لفرض حصار على طليطلة. وقد اختير
لشجاعته العسكرية، ولكن أيضاً لأجل إبعاده عن فيليب الصغير،
الذي علمه المبارزة بالسيوف الخشبية، وكان يحبه حباً شديداً.

وكُلف لورنزينو بالذهاب إلى جنوة للعثور على الأميرال دوريا
لإنشاء أسطول، من أجل الاستيلاء على المواني التي كانت بمثابة
قواعد خلفية للبرابرة، على الجانب الآخر من البحر الداخلي.

وستُرسَل إيزابيلا إلى لشبونة لتطلب من شقيقها جواو دعم البرتغال. وستذهب هيغويناموتا إلى باريس للعثور لتطلب دعم ملك فرنسا.

في الوقت نفسه، سيُهَجَّر موريسكيي بلنسية. واعتبر أتاهاوالبا أن هذه الإجراءات مناسبة لتهدئة غضب المسيحيين القدامى في أراغون.

غير أن هيغويناموتا رأت أنه من غير الحكمة إثارة غضب حلفائه وأن هذه الإجراءات لم تكن إشارة جيدة تُبعث إلى الموريسكيين. واقترح تشالكو شيماك إلباس الترحيل لباس المهمة القيّمة: سيعد إلى موريسكيو بلنسية مهمة الذهاب لتهدئة الولايات الألمانية المتقاتلة فيما بينها، فضلاً عن أنها كانت تطلب مساعدتنا. وسيمرّون عبر فرنسا، ويستقرون في هولندا، تحت حكم عمّة فيليب، ماري من المجر، حيث سيضمنون أولاً عدم تأثر السيادة الإسبانية بعد وفاة شارلكان. وسيقودهم مانكو كاباك.

كان من الضروري أيضاً تحديد مصير فيليب. وقد اعترض جواسيس تشالكو شيماك طريق رسائل من فرديناند، وقد أقسم الإمبراطور الجديد لابن أخيه إن الجيش الإمبراطوري سيتقدم نحو إسبانيا ما إن تهدأ حربه مع الأتراك. وقد كُشفت خطط الهروب والمتواطئون داخل القصر. وأثير السؤال مرة أخرى حول إن كان الملك الميت في نهاية المطاف أكثر فائدة من الملك الحي. وكان أتاهاوالبا قد وضع نصب عينيّه العرش، ولم يعد هذا يخفى على مساعديه.

دعت كويا أسارباي، التي كانت ترضع شارل الصغير، إلى الإعدام العلني، ليكونوا عبرة.

لكن لا أحد يعرف كيف ستكون ردود الفعل الإسبانية. لقد تعلموا أن يحبوا الأب، وكان يُخشى أن يدعموا الابن، لا سيّما أن الابن كان لا يزال صغيراً جداً، ولم يبلغ بعد من العمر ثمانية مواسم حصاد.

اقترح تشالكو شيماك أن يكون الاستبعاد أكثر سرية، وأن يبدو عرضياً. وكان لهذا الحل مزية عدم الاصطدام بملك البرتغال، الذي كان أيضاً خال فيليب، ولا والدته، ولا الشعب.

ومع ذلك، عارضه كويزكويز بشدة: «إنّه مجرد طفل!». لكن أتاهاوالبا، الذي ظل صامتاً، أجاب أخيراً: «لا، إنه ملك».

ثمّ حدث هذا المشهد الشهير: لم يفهم الرسام تيتيان عما يدور النقاش، فقد كان الحديث بلغة الإنكا، التي تعلمها لورنزينو ويبيدرو بيزارو وفهماها بشكل كافٍ. لكن ربّما بسبب نذير شؤم مبهم، ارتعدت يده وأسقطت فرشاته.

نهض أتاهاوالبا من جلسته، وتقدم إلى الأمام، وانحنى، والتقط الفرشاة وسلمها إلى الرسام.

كان هذا ما حدث وليس ما زعمه غومارا، الذي زعم أشياء أخرى كثيرة، لا أرى أنه من المناسب أن أذكرها.

وفي هذا الصدد أقول وأؤكد أن ما ورد في هذا الكتاب صحيح جداً. فهذه ليست حكايات وقصص قديمة عن الموتشيك والشيمو تعود إلى سبعمئة موسم حصاد: لقد حدثت هذه الأحداث بالأمس، يمكن القول، وقد حدثت مثلما رويت.

على أي حال، بقيت مسألة مصير الملك عالقة. لكن حياة فيليب كانت معلقة بخيط رفيع.

في الواقع، كان لدى أتاهاوالبا مشاريع إصلاحية كبيرة لإسبانيا، التي كان يعتقد أنه لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الاستثمار الكامل في السلطة الملكية، متخلصاً من جميع عقبات الأسرة الحاكمة.

وتفاجأ مستشاروه: إصلاح؟ ديني؟ مرة ثانية؟
لا يمكن أن يتعارض رد أتاهاوالبا مع فرانسيسكو دي غومارا أو أنطونيو دي غيفارا أو ألونسو دي سانتا كروز أو أي مؤرخ آخر من الربع الخامس. إذ قال: «ليس دينياً، بل زراعي».

40. فيليب

كان هناك اثنان، طفلان صغيران، تتولى رعايتهما مربية عجوز. لقد مات والدهما وأمهما بعيدة عنهما. كانا يلعبان على حافة الحوض الكبير في القصر الكبير بسفنهما الخشبية الصغيرة. ويحلمان بالمجد والعواصف والمغامرات. يرى فيليب نفسه على رأس أسطول عظيم، ويغزو أرض القراصنة، إلى جانب كويزكويز، لدى عودته. لكن ماري لا تريد أن يفوتها ذلك، فتقول: «أولاً، نأخذ تونس. ثم نأخذ الجزائر». ويتجادل الأخ والأخت حول أسر بريروس. تراقبهما بحنان المربية التي كانت ترتدي السواد. وصلتتهما رسالة من والدتهما جاء فيها أنها في طريق العودة، برفقة شقيقها الصغير لويس، دوق بيجا، خالهما، الذي أحضر

لهما ثلاثاً وعشرين سفينة شراعية. لكن الذي كان يحرك
مخيلتهما هو دوريا، الأميرال العجوز، يقود قوادس جنوة. وهؤلاء
الهنود المضحكون، أين هم؟

أحرق كويزكوز طليطلة.

وضاجعت هيغويناموتا ملك فرنسا، الذي سيرسل عشرة آلاف
رجل.

ووصل مانكو إلى بروكسل مع موريسكويي بلنسية بعد رحلة
طويلة.

وكان رومينهاوي في طريقه إلى برشلونة حيث كانت تحتشد
القوات.

في القصر ذي النسائم المنعشة، حيث تربع ذات يوم الملك
بيدرو القاسي على العرش، كان أتاهاوالبا، المحاط بمهندسيه،
منكباً على الخرائط يضع الخطط، مستغرقاً في مشاريع الحفر
الضخمة، لزراعة الذرة والبطاطا في جبال إسبانيا. في الجنوب،
كانت جبال سييرا نيفادا التي يعرفها بعد أن عبرها لدى هروبه
من غرناطة. وفي الشمال، كانت جبال البرانس موطن صديقه
مارغريت دي نافارا. لقد هرب طويلاً، والآن حان الوقت ليُشيّد.
كانت عيناه حمراوين كالعادة.

من إحدى نوافذ القصر، كان تشالكو شيماك يراقب الطفلين.
وعينه سوداء مثل قلبه.

لقد كان تشالكو شيماك شيئاً فظيلاً بحق.

نزل إلى الحديقة، واتجه نحو المربية ليهمس لها بشيء ما.
فشحب وجه المرأة العجوز، لكنها امتثلت. وأخذت ماري بعيداً

تحت ذريعة ما، فاحتجت الفتاة الصغيرة التي لم تفهم شيئاً لأنها لا تزال ترغب في اللعب، وفكرت في المقاومة لكنها خشيت أن تجعد فستانها الجميل. فأذعنت وتبعَت المرأة العجوز.

لم يكن لؤماً من فيليب، لكنه كان مسروراً، في أعماقه، لأنّ الحوض خلا له وحده. ولا أحد يناقش أوامرهِ. وهو وحده يقود القوارب الصغيرة من الأسطول. وبسعة نخيل التقطها من الحديقة، كان يحدث أمواجاً لتطفو ألعابه. فتنتشر الموجة وتبحر سفنه.

لم ينتبه إلى تشالكو شيماك الذي كان يقف خلفه، وكان كلبه سمبيري ينام بسلام.

كان فيليب الصغير خفيفاً، وكان منحنياً على حوض الماء. وكانت يد واحدة تكفي. لم يكن هذا الصوت أعلى بكثير من صوت وقوع حجر. أيقظت صرخات الطفل الكلب الذي فهم الأمر، وراح ينبج بلا حول ولا قوة. واستمر المشهد بشكل مرعب جداً. واندفع الحراس للتدخل، لكن حين رأوا قائدهم يقف بلا حراك أمام حافة الحوض، انسحبوا بحذر. ثمّ خمد الجسد الصغير وطفأ على بطنه. وتغير نباح الكلب إلى أنين حزين.

في ذلك الحين، كانت «إيزابيلا» تعبر مضيق جبل طارق، سعيدة لرؤية أشقائها مرة أخرى، ولم شملها مع أطفالها.

كان أتاهاوبا لا يزال منغمساً في مشاريعه الإصلاحية، يتحدث بحماس عن الزراعات المحلية وتربية اللاما البيضاء الصغيرة التي ستنتشر في الريف الإسباني.

حلّقت بجعة، وقد أزعجت الانفعالات غير العادية في الحوض، فوق الإنكا الذي لم يرفع رأسه.

كان تشالكو شيماك شيئاً فظيلاً، في خدمة سيده.

بعد وفاة فيليب، غدا كل شيء أسهل.

أعلن كورتس قشتالة وأراغون، المغمورتين بذهب تاهوانتينسيو، أتاهاوالبا الأول ملكًا لإسبانيا ونابولي وصقلية. ولتيسير الأمور، وافق على أن يُسلم نفسه لطقوس المعمودية، التي كان المشرقيون يولونها أهمية كبيرة. وأطلق عليه اسم أنطونيو، لكنّه ليس الاسم الذي احتفظ به التاريخ، لأنّ الجميع، أصدقاء كانوا أم أعداء، استمروا في مناداته باسمه الحقيقي، باستثناء بعض المسيحيين القشتاليين القدامى.

ما يتذكره التاريخ هو وعوده للكورتس. ومثل سلفه، أقسم إنّه مصمم على العيش والموت في إسبانيا. ولقد رأينا كيف حفظ كلمته.

تبع ذلك سياسة الزواج التي تهدف إلى تعزيز مكانة الإنكا في أوروبا.

لم يكن لدى إيزابيلا، التي دمرها موت ابنها، القوة لترفض طلب أتاهاوالبا للمرة الثانية. وهكذا أصبحت أرملة شارلكان زوجة الإنكا الثانوية. ولم يكن الاحتفال مبهجًا بسبب الحداد، بل كان مهيبًا. وحتى لا يزيدوا من حزن العروس، لم تُجرَ مراسم الزفاف في كاتدرائية إشبيلية، حيث ترقد رفات شارلكان الآن، ولكن في قرطبة. والتقت أبهة الإنكا بأبهة التاج الإسباني. وألبس ملك إسبانيا عروسه الجديدة صندلين، وذبح حيوان لاما قريبًا كما جرت العادة. وسُلّمت صناديق من الجواهر للملكة.

في ظروف أسعد، تزوجت كيسبي سيسا من لورنزينو وذهبت معه إلى إيطاليا. وكهدية زفاف، عيّن أتاهاوالبا الشاب دوقاً لفلورنسا بدلاً من ابن عمه ألكسندر. وكان هذا الأخير قد اضطر إلى مغادرة المدينة، بعد فقد دعم شارلكان، تحت وابل من الشتائم والحجارة.

وُعد مانكو بالزواج من ابنة مارغريت دي نافارا الصغيرة جين دي ألبريت.

يجب أن يتزوج شارل كاباك الصغير بماري، ابنة شارلكان وإيزابيلا من البرتغال، حفيدة خوانا المجنونة وفيليب الوسيم، حفيدة حفيدة الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناندو ملك أراغون.

سقطت طليطلة تحت وابل من حصى أحمر متّقد كالجمر. وتغلبت على المتمردين مقاليعُ كويزكويز وذخيرته التي لا تنضب من البارود. وألقي أنطونيو دي ليفا حياً من أعلى الأسوار. وحفظ كوبوس وجرانفيل حياتيهما بعد استسلامهما. ورفض تافيرا تقديم الولاء للملك الجديد وشُنق بعد جلده أولاً. وألقي الخائن سيبولفيدا في قبو مظلّم مليء بالثعابين، واستخدم جلده المنزوع من جثته لصنع طبلّة أُرسِلت إلى الإنكا.

بعد أن عمّد أتاهاوالبا، بارك البابا حملة تونس التي حطمت أسطول بريروس، الأقل من حيث العدد، وأغرقتة بالكامل، واستولت على ميناء حلق الوادي بعد شهر طويل ومؤلم من الحصار. كان أتاهاوالبا قادمًا من الشمال، ولم يسبق أن خبر صحارى تشيلي؛ لذا عانى الحرّ والعطش، لكنّه لم يظهر ذلك.

وما إن استولوا على حلق الوادي، انفتح أمامهم الطريق إلى تونس، حيث تحصن القرصان بربروس، الذي عينه سليمان قائداً عاماً للبحر، مع خمسة آلاف جندي من الجيش الإنكشاري. وبدا أنه في موقع منيع. ولمّا نالت الحرارة والمرض من الرجال، ونفذ صبر أتاهوالبا، اندلع تمرّد للعبيد وكان في صالحه. حيث انتفض عشرون ألف مسيحي، كانوا محتجزين في سجون المدينة، ضد جلاديهم وركضوا إلى مشارف الأسوار.

كان بيدرو بيزارو أول من دخل بوابات المدينة، على رأس كتيبة الموريسكيين من البيازين التي شكلها روميناھوي. وبجانبه، راح بوكا أمارو، الذي أصبح ملازمه الأكثر إخلاصاً منذ طليطلة، يحطم الجماجم بفأسه النجمية. رسم تتوريتو لوحة تمثل هذا المشهد، وقد صنعت هذه اللوحة شهرة الكيتوني ذي الشعر الأحمر.

دمّر العشرون ألفاً من العبيد المسيحيين، الذين أطلق لهم العنان ضد أسيادهم السابقين، المدينة البربرية الجميلة. وهكذا دخل أتاهوالبا مقبرةً جماعيةً مفتوحةً وسط الأنقاض المحترقة. ومع ذلك، لم يفته أن يحتفي بهذا النصر الرائع بترديد شعار شارلكان، ثلاث مرات، على أسماع قواته: «وأبعد! وأبعد! وأبعد!» فهتفت القوات مرردة الشعار ثلاث مرات.

غير أنّ النصر لم يكتمل، فقد تمكن بربروس من الفرار. وتونس وحدها لا تساوي كثيراً. إذ كان لا بد من تنظيف الساحل البربري برمته. وأصر الفتى البرتغالي لويس على اللحاق بالقرصان في مخبئه في الجزائر. كان أتاهوالبا يود أن يرضي صهره الجديد،

ولكن لأسباب تخصه، لم يرغب في الاستمرار إلى الأبد. بالإضافة إلى ذلك، مع ضعف سليمان وانشغاله بحرب جديدة ضد الفرس، قل الضغط على فرديناند على الجبهة الشرقية، وسيتيح له هذا الهجوم على الغرب. والآن، بعد أن عثر الإنكا على مملكة، لم يكن مستعداً لخسارتها. أعيدت إلى مولاي حسن، المور الذي كان سلطان تونس قبل أن يطرده بربروس، صلاحياته، مقابل أن تصبح مملكته بموجب معاهدة تابعةً لمملكة إسبانيا. ألم يحرر أتاواليبا المدينة من نير الأتراك؟ وتركت كتيبة مور البيازين في الحامية. ثم أبحر الأسطول متجهاً إلى صقلية. وتمكّن أتاواليبا من تقدير تأثير حملته المنتصرة من خلال الترحيب الذي لقيه في مدينة باليرمو. وفجأة، أصبح الإنكا بطلاً للعالم المسيحي. وشيّد قوس نصر على شرفه. ووجه البابا له التهاني. وشبّه الجميع بشخص ما يدعى شيبليون. ورسم ألونسو دي سانتا كروز، الذي لم يكن قد أصبح مؤرخاً بعد ولكنه كان رسام خرائط حينئذ، خريطة استخدمها الرسام فيرميان لنسج سجاد معلق ضخّم بعنوان «فتح تونس». وتدفق الشراب الأسود بوفرة.

42. الميتا⁽¹⁾

استنفذ أتاواليبا خيارات باليرمو قبل أن يعود إلى إشبيلية محملاً بصناديق النبيذ الصقلي.

(1) الميتا هي خدمة اجتماعية إلزامية تقدم لصالح إمبراطورية الإنكا.

أبلغته الأنبياء الواردة من مانكو أن سكان الفلاندرز قد قابلوا الموريين المرحلين بالعداء. ولم تبدِ ماري المجر، الوصية على العرش، ترحيبًا كما كان متوقعًا من منصبها، وخضوعها لملك إسبانيا. بعد ذلك، ذهب مانكو إلى ألمانيا، إلى المناطق الخاضعة لحكم اللوثريين. وكان الأمر أسوأ هناك: فبدعوة من لوثر نفسه «لمحاربة قوى الشيطان»، دُبح الموريون وهرب قلّة منهم. وكاد مانكو نفسه يلقى حتفه. واكتفى أتاهاوالبا بالإشارة عليه بالذهاب إلى نافارا لتقديم الهدايا إلى مارغريت، حماته المستقبلية. والواقع، لم تكن الاضطرابات المحترمة في الشمال حينها تثير اهتمامه، ولم يكن قد أدرك بعد مدى خطورة ما يجري.

وجاءت رسالة من لورنزينو من فلورنسا لتبث في قلبه الطمأنينة: فقد لمع الآن نجمه عاليًا في سماء الربع الخامس، حتى أن فرديناند نفسه لم يجرؤ على مهاجمة منقذ العالم المسيحي هذه الفترة، خوفًا أن يدينه الجميع ويُنبذ من أوروبا. وكان هذا كل ما أراد أن يعرفه.

وأخيرًا، يمكن أن ينغمس الإنكا في شغفه السري. بالطبع، كل ملك يجب أن يشمل بفتوحاته. لكن أتاهاوالبا فهم هذه الحقيقة: فالحكم أصعب من القتال. وقد كان سلفه كوسي يوبانكي قد قلّص حدود الإمبراطورية أكثر من أي ملك آخر. لكن الاسم الذي لقبته به الأجيال اللاحقة كان يعكس بما فيه الكفاية طبيعة الإرث الذي تركه: «باتشاكتيك»، وتعني مصلح العالم.

في الواقع، لم يقتصر طموح أتاهاوالبا على تصميم بعض الشرفات لتطل على جبال سييرا نيفادا. وكان شقيقه هواسكار

يرسل إليه سفناً كاملة من الرعاع -الكولا، التشاتشابويا، التشيمو، الكاناري، والكارا... كل حثالة الإمبراطورية- لأنه في حاجة إلى مزيد من اليد العاملة. وحيثما لم تُستغل الأرض بعد، على سفوح الجبال، وعلى القمم المغطاة بالثلوج، أو على الهضاب القاحلة، هناك حيث لم يكن أحد قبله يحلم بزراعة أي شيء، زرع الذرة والكينوا والبطاطا، التي أغرم بها سكان الربع الخامس جداً حتى أنهم أطلقوا عليها اسم «تفاح الأرض»⁽¹⁾. وأصبحت هذه الأراضي المقفرة الشاسعة مغطاة بالمحاصيل. وحُفرت شبكات من القنوات لري التربة التي كان يُعتقد حتى ذلك الحين أنها بور.

كانت الأغنام، تلك اللاما البيضاء الصغيرة المنتشرة في جميع أنحاء إسبانيا، قد أتت على الأرض لمدة طويلة. ورأى أتاهاوالبا أنها كانت المسؤولة عن هذه المناظر الطبيعية الجرداء والجافة والمغبرة. فأمر بذبح قطعان بكاملها. لم يكن ملك إسبانيا الجديد يريد شعباً من الرعاة، بل أراد أن ترسخ أمته هنا.

أنشأ مخازن للحبوب. وقطعت لحوم الضأن إلى شرائح، وملحت، وجففت. وحولت بذور الذرة والكينوا إلى دقيق. وجُمِّدت درنات البطاطا في الليل وجففت في أثناء النهار حتى يتسنى تخزينها لعدة أقمار. وكان الطعام يُحفظ في جرار أو يُطمر في حفر عميقة.

مع هذا المخزون، سيكون قادراً على إطعام الجياع، في أوقات المجاعة، والطاعون، وسوء الحصاد.

(1) الاسم الفرنسي للبطاطا هو تفاح الأرض (pomme de terre)

وبدأ فلاحو إسبانيا مضغ الكوكا، فزادت مقاومتهم للإرهاق واستفادوا من مفعولها الطبي. (وإن كان بعضهم قد أكثر منها حتى أصيب بالخبيل).

وضع أتاهوالبا حدًا لنظام استئجار الأراضي وكافأ التجار الذين مولوا الجيش بالقروض.

وألقى معظم الجبايات، ووزع قطع الأراضي على الفلاحين، المجتمعين في الأيلو، أو على التجمعات التي كانت قائمة مسبقًا ما يشبه الأسر، وترك لكل مجموعة أمر تقسيم العمل والسلع فيما بين أفرادها.

في المقابل، طور نظام السخرة الذي حل محل الضرائب والجبایات، على غرار الميتا السارية في تاهوانتيسويو. فكان على الفلاحين أن يكرسوا جزءًا من وقتهم للعمل في أراضي الإنكا، وكذلك أراضي الشمس (التي كانت هي الأخرى في عهدة الإنكا، بصفته ممثل الشمس على الأرض، لكنه فوض إدارتها للمسؤولين عن العبادات). وتميزت كل فترة من هذه الفترات بمهرجانات جديدة أبهجت السكان.

كان لهذا المشروع الهائل لإعادة التوزيع أصداء بين جميع أطراف المجتمع. وتخلّى عديد من القساوسة الكاثوليك عن الإله المسمّر لتحويل كنائسهم إلى معابد للشمس، من أجل الاستفادة من النظام الجديد. وللأسباب نفسها، حوّلت الأديرة إلى بيوت للنساء المنتخبات.

خضع الحرفيون لالتزامات مماثلة: كان عليهم تكريس جزء من وقتهم للمجتمع (أعمال البناء والحديد والجسور والقنوات، إلخ) أو

للخدمة الشخصية للإنكا (الفخار والأواني الفضية والمنسوجات، إلخ)، التي -في النهاية- كانت الشيء ذاته.

كان على الأيلو أو الجماعة أن يضمن للعجزة وللمسنين وللأرامل وللمرضى المأكل والمأوى والرعاية.

وكانت ثمار الأرض ملكاً لمن اشتغل عليها، حتى لو كانت الغلة وافرة، لكن الأرض نفسها لم تكن كذلك. وكان يُراجع توزيع الأراضي بانتظام ويُعدّل حسب الحاجة. وإذا انخفض عدد مجموعة ما، فإن مساحة الأرض المخصصة لها تنخفض بالتناسب. وعلى العكس من ذلك، إذا كبرت المجموعة، فستمح قطع أرض إضافية حتى تتمكن من إطعام أفواهاها الجديدة. ولما اختلف حجم المجموعات كثيراً، أعيد توزيع الرجال. واحتفظت جيوش من الخيوكامايوك بالحسابات في سجلاتهم: فكان الرجال والنساء والأطفال جميعاً يمثلون بعقد صغيرة معلقة من الحبال الملونة التي تشكّل أطراف الخييو.

كان ثمة بعض الممانعة هنا وهناك، وبعض الثورات، لكنها قُمعت بلا هوادة.

تمثلت مهمة مبعوثي الإنكا، ومحافظيه، والكوراكا، وحتى الهيدالغو⁽¹⁾ الذين جندهم خصيصاً لهذا الغرض، في نشر رسالته بين الناس في جميع أرياف قشتالة وأراغون، والقرى والبلدات، مفادها أن الأراضي التي استولى عليها لم تكن تلك التي يحتاج إليها المشرقيون، ولكن تلك التي لم يعرفوا ماذا يفعلون بها،

(1) الهيدالغو لقب يطلق على طبقة من النبلاء في قشتالة.

والتي لم يتمكنوا من العمل فيها . وأن الجزية التي فرضها عليهم كانت حصاد هذه الأراضي التي استصلحها على نفقته الخاصة، وأنه قد أعطاهم بالأحرى من ممتلكاته الخاصة، ووزع عليهم ما تبقى بعد أن وفر نفقات جيشه وحاشيته، وأن الخلافات غير المبررة والخلافات التي كانت تنشأ بينهم قد اختفت، وأنه يمكن لجميع من في المملكة أن يكون على يقين أنه في النهاية لن يتلقى أحد -لا الغني ولا الفقير، ولا الكبير ولا الصغير- أي إهانة. وأخيراً، أصدر أتاهاوالبا مرسوماً يقضي بأن يقدم لكل فلاح، في يوم زفافه، زوج من اللاما هديةً من ملكه.

43. الأمير

غير أنّ حكم الإنكا كان لا يزال فتياً، وكان يدرك أنّ هذه الفتوة هي ما يجعله هتّاً . فابن الشمس لم يحظ هنا بالاحترام ذاته الذي كان يحظى به في موطنه .

قال مكيافيلي في أوراقه المتكلمة: «لا شيء من شأنه أن يمنح الأمير التقدير بقدر الأعمال العظيمة، وتقديم أمثلة استثنائية» .

حرص الملك الجديد على عدم تقويض امتيازات نبلاء إسبانيا . فوزع أوسمة الصوف الذهبي، وهو تكريم عالي القيمة لم يكلفه شيئاً وكانت له مزية ربط من حصل عليه به . وعلى أي حال، كان عدد النبلاء الإسبان ضئيلاً، وكانوا يفتقرون إلى الموارد . ومع ذلك، كانوا يشكلون خطراً محتملاً، ولا بد من إلهائهم .

تشرّب أتاهاوالبا كلمات مكيافيلي هذا وقد شعر أنّه كان يروي

قصته هو من خلال قصة أخرى: «في عصرنا الحالي، لدينا كمثال فرديناند ملك أراغون، ملك إسبانيا الحالي. ويمكن تقريباً أن تدعوه أميراً جديداً، لأنه ارتقى بالشهرة والمجد من ملك ضعيف إلى الملك الأول في العالم المسيحي. وإذا أمعنت في أفعاله، فستجدها جميعاً عظيمة وبعضها استثنائياً. وفي بداية حكمه هاجم مملكة غرناطة وكان هذا المشروع أساس سيادته. وقد فعل ذلك، في البداية، في فترة هدوء ودون خوف من مواجهة العراقيل: حيث شغل، بهذه الحرب، الإقطاعيين في قشتالة عن التفكير في إحداث أي تغيير. وبذلك كان يكتسب مكانة وسلطة عليهم دون أن ينتبهوا لذلك».

وهكذا سار الإنكا، دون أن يدري، على خطى هذا السلف المجيد، جد شارلكان نفسه الذي احتل عرشه، وخطى فرديناند الذي يطالب بهذا العرش.

ومع ذلك، أثار باقي النص فروقاً، إن لم تكن تباينات، بين الملكين: «بأموال الكنيسة والشعب كان قادراً على إطعام القوات، وأن يضع من خلال هذه الحرب الطويلة، الأسس لجيشه الذي سيصنع مجده فيما بعد. إلى جانب ذلك، ولكي يتمكن من القيام بأمر أعظم، دائماً ما استخدم الدين، فقد لجأ إلى القسوة الورعة من خلال طرد المارانو من مملكته وتجريدهم: لا يمكن أن يكون هناك مثال أكثر إثارة للشفقة وأكثر استثنائية من هذا». ما فعله فرديناند دي أراغون، صحّحه أتاهاوالبا. ومع ذلك، شعر الإنكا بأنه أقرب إلى هذا الرجل أكثر من أي شخص آخر. وبفضول شديد اكتشف قصته: «تحت العباءة نفسها، هاجم

إفريقيا. فأغار على إيطاليا، وهاجم فرنسا في الأخير. وهكذا، كانت أفعاله دائماً عظيمة ومخططاً لها، ولطالما أثارت حالة تشويق وإعجاب في أذهان رعاياه، وأبقتهم في انتظار نتائجها. وكانت أفعاله ينبثق بعضها عن بعض، بطريقة لم يمنح بها للرجال وقتاً للتحرك بهدوء ضده».

بإشارة، أسكت أتاهاوالبا الخادم الذي كان يقرأ له، وعزم على مهاجمة الجزائر.

44- الجزائر

نصحه الأميرال دوريا بالتعجل للغزو ما لم يرغب في تعريض نفسه لعواصف الشتاء، وعمل الإنكا بهذه النصيحة. انتظر مرور مهرجانات الذرة والشمس، ثم جمع أسطولاً ضخماً، ولم يترك شيئاً للمصادفة. وكان ملك فرنسا، الذي أقنعتة هيغويناموتا بأنه يستحق نصيبه من المجد، حاضراً.

وبالمثل، انضمت صفوة النبلاء الإسبان تحت راية الإنكا. أوفد إليه البابا نفسه عالم الجغرافيا الخاص به، وهو موريّ اعتنق الدين المسيحي واسمه حسن الوزان، الذي كان يُدعى ليون الإفريقي لمعرفة الموسوعية بذلك العالم الإسلامي. لم يفت أتاهاوالبا أن يحشد كتائب كاملة من الموريسكيين الذين قدّم لهم الغزو على أنه مشروع تحرير من النير التركي، وكتيبة من اليهود، الذين عرض عليهم الفرصة للعثور على إخوتهم المطرودين سابقاً.

احتل الأسطول خليج الجزائر وسرعان ما حلت الشمس والصليب محل الهلال على أسوار حصن البنيون، تلك الجزيرة الصغيرة التي تحمي الوصول إلى الخليج.

وخشي المسيحيون أن لا يعثروا على بربروس، لكن القرصان كان ينتظرهم متحصناً بأسوار المدينة.

أُرسل بيدرو بيزارو لمقابلته للتفاوض على استسلام مشرف. ورافقه بوكا أمارو، على أمل أن يخلق شعره الأحمر نوعاً من التواطؤ، لكن هذه المبادرة لم تكن ضرورية: فقد كان شعر بربروس أبيض ويبدو أنه لم يكن أحمر من قبل.

ومع ذلك، لعب بوكا أمارو دوره. ورفض بربروس بازدراء عرض تسليم المدينة، وأظهر وقاحة لا تصدق في رده، مخاطباً بيدرو بيزارو بهذه العبارات الدقيقة: «أخبر سيّدك أنه لم يسبق لكلب مسيحيّ أن أخذ الجزائر، ولن يأخذها على الإطلاق. وإذا بلغت سيدي خططكم، فسيرسل أيّاً من عبيده، مع عدد قليل من القوات التي تُحشد على عجل، لاكتساح جيشكم البائس ورميكم جميعاً في البحر».

فانتفض بوكا أمارو قائماً، بعد أن سمع كلام الترجمان، وتحدث بهذه الكلمات التي تناقلتها الأجيال: «سيدي ليس مسيحيّاً، وأنت العبد».

وحين رأى بيدرو بيزارو أن ساعته الأخيرة قد حلت، وضع يده على قبضة سيفه، مستعداً للدفاع عن حياته. لكن، عملاً بالقواعد العالمية للحرب والدبلوماسية، تركهم بربروس يرجعون دون أن يمسه أذى.

دافع القرصان، وعدد قليل من الرجال، ببسالة عن المدينة. لكن في غضون أسابيع، سقطت تحت نيران المدفعية الكثيفة المتواصلة.

وقتل حصان فرانسوا الأول تحته في إحدى المناوشات، وأبهج هذا ملك فرنسا. مكتبة سُرْمَن قرأ

كان أتاھوالبا في البداية يفكر في تسليم المدينة لابن الأمير السابق سليم التومي، الذي طرده بربروس الأول، عروج ذي الذراع الفضية. وحين مات والده (الذي تعرض للخنق في حمامه)، لجأ يحيى التومي إلى إسبانيا. بعد كل هذا الوقت، رحب باقتراح أتاھوالبا على أنه نعمة من السماء. إلا أن الإنكا غير رأيه، حين أدرك أن الأب لم يكن يحظى بشعبية كبيرة خلال مدة حكمه. ولن يكفي أن تكون موريًا لتحل محل التركي. وكان بربروس الثاني محاطًا بهالة أسطورية أكثر من أخيه الذي سبقه. فأراد أتاھوالبا أن يكسر سلسلة القراصنة المكرسين لخدمة العثمانيين هذه، لكنه ارتأى أنه من الحكمة وضع خليفة لهم حفاظًا على الاستمرارية. لذلك قرر تعيين بوكا أمارو واليًا على الجزائر، وقدمه للشعب على أنه بربروس الثالث -بربروس الحقيقي. لم تكن كلمة بربروس تعني شيئًا في لغة البربر، وعلى أي حال، لم يكن بوكا أمارو بلحية، ومع أن سكان تاهوانتينسويو لم يكونوا على جهل باللحى، فإنهم اعتبروها دائمًا شذوذًا وعارًا جسديًا، وكثيرًا ما تناسب ذوي الشعر الأحمر. في المقابل، كان اسم «أمارو» يقترب في نطقه من كلمة «أحمر» لدى السكان المحليين. وقد جعله الإنكا يصنع ثعبانًا أحمر لشعاره، وعيّن له موريسكيين من بلنسية

لحراسته الشخصية. كما عيّن حسن الوزان وزيراً لمساعدته في مهمته. (في الحقيقة، كان ليون الإفريقي هذا من غرناطة). ورأى أتاهاوالبا أنّه من الحكمة أن يحكم هذه المناطق موريو إسبانيا، الذين ساندوه منذ مرسوم إشبيلية، والذين يشاركون السكان المحليين المعتقدات ذاتها. فعين رئيساً للحرس رجلاً موريسكياً يدعى كريستوبال، كان عبداً لدى سيدة من بورغوس، وهي بلدة في شمال إسبانيا، وقد التحق بالإنكا هروباً من وضعه.

علّقت لوحات تمثل مآثر بوكا أمارو عند أبواب تونس على جدران قصره. ولكي يفهم الجميع أن الجزائر قد بدلت أسيادها، وُضع رأس القرصان الذي خلفه على الأسوار.

مع القضاء على بريروس، لم يكن تنظيف الساحل سوى لعبة صبيان. من بجاية إلى تنس إلى مستغانم إلى وهران... راح الأسطول بقيادة دوريا يستولي على كل الحصون البربرية وكأنّما كان يقطف الأزهار. وبالنسبة إلى الإسبان، كان أتاهاوالبا الآن هو الكونكيستادور. وبالنسبة إلى الموريين، كان المحرّر. ولكن حين أراد أميرال جنوة استغلال هذا الزخم الذي لا يقاوم، والذهاب لاستعادة جزيرة رودس في الشرق، قرر أتاهاوالبا أنّ الوقت قد حان لوضع حد لهذه المغامرة. إذ لم يكن لديه أي اهتمام بطرد سليمان من البحر الداخلي، وفضل أن يترك لفرديناند ما يشغله في حدوده الشرقية. ولم تكن رودس قضية استراتيجية بالنسبة إلى إسبانيا. ومن نابولي إلى غادش، كان الطريق إلى كوبا حرّاً أمام سفن الربع الخامس، ولم يكن يريد أكثر من ذلك. ووافق فرانسوا الأول على هذا القرار، ولم يكن في السابق متحيّزاً ضد

الترك في حريهم مع شارل كان. وبعد مدة وجيزة، وقّع ملك فرنسا معاهدة تجارية مع الباب العالي.

45- الفلاندرز

كان يمكن للقصة أن تنتهي عند هذا الحد. لكن حركة البشر نهرٌ ليس لأحد أن يقطع مساره، إلا إذا انطفأت الشمس. كان فرديناند في طريقه لاستلام تاج الإمبراطورية المقدسة في مدينة آخن.

لقد قيل إن ألمانيا لم تكن موضع اهتمام أتاهاوالبا، وكان هذا صحيحاً حتى ذلك الحين. لكن طراً أمر غير من هذا الموقف. كانت ماري من المجر، الوصية على عرش هولندا، من منزل النمسا، أخت فرديناند. وكانت من عائلة هابسبورغ. وقد رأت في وصول شقيقها فرصة للانفصال عن التاج الإسباني الجديد للانضمام إلى حضن الإمبراطورية العائلية. وتحسباً لرد فعل من فرنسا، حليفة إسبانيا، فرضت ضريبة جديدة، بغية تجهيز جيش من المرتزقة. وحينها شعر برجوازيو غينت -المدينة التي ولد فيها شارل كان- أنهم قد دفعوا كثيراً لتمويل حروب لم تكن حروبهم. فتثاروا على هذه الضريبة الجديدة.

بلغت شائعة هذه الثورة إشبيلية، ومعها صدى مؤامرة آل هابسبورغ.

لم ينس أتاهاوالبا كيف استقبل مانكو وموريسكيو بلنسية هناك. وكان مستعداً لترك ألمانيا لفرديناند، وقد كانت مجموعة

من الممالك المضطربة التي لم يكن الإمبراطور يحكمها فعلاً. لكن هولندا كانت إرث شارلكان البرغندي، ومع مراعاة كل الظروف، ودون أن تطأها قدماء، شعر بالتعلق بها. وهكذا، قرر الإنكا الذهاب إلى هناك شخصياً. فتولى قيادة جيشه وعبر فرنسا إلى الفلاندرز.

46. غينت

حيثما مرّ، كان يمنع رجاله من التزود من قوت الأهالي، ما استلزم نقل مؤونة هائلة معهم. ومرة أخرى، كما في أيام الحرب الأهلية بينه وبين هواسكار، امتد الجيش الإمبراطوري وسط سحابة من الغبار. وكان هناك الآن عدد أقل من الببغاوات والقوارض في الأقفاص، وعدد أقل من اللاما، وعدد أقل من الجاغوار والكوجر، ومزيد من الأغنام والثيران، ومزيد من المدفيعيات والعربات المملوءة عن آخرها ببراميل البارود، ولا تزال الصقور تحوم في السماء والكلاب تسير بمحاذاة صفوف الجنود. وقد أمر ببناء ثكنات ومخازن كان قد زوّدها قبل كل شيء بالطعام الذي جلب من الأندلس، وبعضه من تاهوانتينسويو. وعند وصوله أمام غينت، أقام معسكراً ضخماً.

في وقت قصير جداً اجتاز كل الأرياف التي ثارت، فعين والياً على كل منها وأقام فيها حامية. ثم عاد إلى المعسكر لإراحة رجاله، ودون أن يأخذ وقتاً كافياً لتغيير ثيابه، دخل المدينة في موكب صغير، محاطاً بجنرالاته روميناھوي وتشالكو شيماك.

(وكان كويزكويز، المتأثر بوفاة فيليب، قد بقي في إشبيلية لمراقبة عاصمة المملكة).

اجتاز حصناً صغيراً كان جسره المتحرك مرفوعاً، ثمّ صعد طريقاً مهجوراً تصطف على جانبيه منازل بمصاريع مغلقة، إلى أن وصل إلى ساحة كبيرة ينتصب فيها أحد تلك المعابد الحجرية التي يرتفع برج جرسها نحو السماء. وأدهشته المباني متعدّدة الطوابق. هنا، كان الحجر بلون أحمر، كما هو الحال في غرناطة، لكن أسطح المنازل كانت مدبية ومثلّمة بشكل أكبر. فقد كان لكل منطقة أسلوبها الخاص، وقد أحب أتاهاولبا هذا التنوع.

كانت تعبر الساحة قناة ماء بدائية.

وتجمّع حشد هناك.

تقدمت النساء والأطفال نحوه، وفي أيديهم أغصان خضراء، وهم يهتفون بلغة الفرنسية: «أيها السيّد الفريد، ابن الشمس، عزاء الفقراء، سامحنا».

(لقد بلغ صدى الإصلاحات التي بدأها في إسبانيا إلى هذه المقاطعات).

استقبلهم الإنكا بكثير من الرأفة وأخبرهم بأنّ مبعوثيه إلى فلاندرز هم من كانوا سبب المصائب التي حلت بهم. إلى جانب ذلك، فقد سامح جميع المتمردين من صميم قلبه؛ وقد جاء لرؤيتهم شخصياً حتى يشعروا، عند سماع المغفرة منه شخصياً، بالرضا أكثر وتبدّد كل مخاوفهم من أن يعاقبوا على أخطائهم. وأمر بإعطائهم كل ما يحتاجون إليه، وأن يعاملوا بالحب والإحسان، وأن تولى عناية كبيرة لتأمين عيش الأرامل واليتامى، أبناء الذين ماتوا في الاشتباكات ضد قوات الوصاية.

كان السكان يخشون أن ينخرط في مذبحة كبرى، وكانت طليطلة لا تزال في الأذهان. لذلك استقبلوا خطابه بفرح عظيم وهتافات. واحتضنه البعض، وراح آخرون يمسحون العرق عن وجهه، وآخرون ينفضون الغبار عنه، وآخرون يلقون عليه الزهور والأعشاب. وهكذا وصل الإنكا إلى المعبد العظيم، حيث أقيم احتفال على شرفه، وفقاً لطقوس أتباع الإله المسمر. ثم ذهب لزيارة أعيان المدينة، وأكد لهم أنه لن يفرض عليهم أي ضرائب. في المقابل، طالب بجزء فقط من وقتهم وعملهم لتزويد مخازنه. عُرض على أتاهوالبا الإقامة في قصر شارلكان، حيث أقيم الاحتفال لمدة ثلاثة أيام.

ثم غادر إلى بروكسل لمقابلة ماري من المجر.

47- بروكسل

لم يكن جيش ماري مستعداً للمواجهة، ولم يكن مجهزاً جيداً بالسلح، ولا كانت أجور الجنود مجزية، ولذلك كان من السهل على أتاهوالبا إزاحته.

سار أعضاء المجلس في البلدة وهم عراة، تتدلى أنشودة حول عنق كل واحد منهم. وتوسلت الوصية ماري أن تُجنب هذه الإهانة، لكن لم يكن أتاهوالبا ليستثني أحد. ولم تكن هيغويناموتا لتسمح بذلك.

بدت ماري المجر أشبه بشقيقها شارلكان، لكن شفتيها كانتا أكثر سمكاً، ووجنتيها أكثر امتلاءً، ووركيها أعرض. ووجد

الإنكا هيئتها لطيفة وصدرها لا يزال مكتنزاً؛ فاتخذها خلية له،
وسرعان ما حبلى.

كان فرديناند ليدفع فدية مقابل استعادة أخته. لكن تشالكو
شيماك رأى مزية في هذا الاتحاد يمكنهم الاستفادة منها، ونصح
سيده بالزواج من الوصية. وبهذا ستكون ماري ثاني زوجة ثانوية
لملك إسبانيا بعد إيزابيلا.

وهكذا سيولد وريث نصفه إنكا ونصفه هابسبورغ.

أقيم احتفال رسمي في كاتدرائية سانت غودول، أعظم معبد
في بروكسل. وتلقى أتاهاوالبا، الذي كان يرتدي التاج القرمزي
المضفر بالصوف، مظاهر الإجلال من الوصية وزوجته الجديدة
ماري، التي ركعت أمامه لتلبسه صندله كعلامة على الولاء. وكان
يحمل في كل يد كأساً ذهبية مليئة بالنبيذ الأسود، وسلمها
الكأس التي كانت في يده اليسرى علامة على الصداقة. ثم
شرب الإنكا وزوجته الجديدة معاً كرمز للاحترام المتبادل. ثم
سكبت محتويات الإناء الآخر في وعاء ذهبي لتقديمه للشمس.
يظهر هذا المشهد اليوم على نافذة زجاجية ملونة في معبد
سانت غودول، حيث يشار، بلغة المتعلمين المخصصة لأماوتا
المشرقيين، إلى صفات أتاهاوالبا بـ:

Atahualpa Sapa Inca, Semper augustus, Hispaniarum et
Quitum rex, Africae dominator, Belgii princeps clementissimus,
et Maria ejus uxor.⁽¹⁾

(1) عبارة باللاتينية تعني: أتاهاوالبا السابا إنكا، الجليل دائماً، ملك إسبانيا وكيو،
ملك إفريقيا، وأكرم أمراء بلجيكا، وزوجته ماري.

في الواقع، كان يطلق على الساحل البربري حيث كانت تقع تونس والجزائر اسم إفريقيا أيضاً، وأطلق سكان بروكسل على أنفسهم اسم البلجيكيين لأنهم اعتبروا أنفسهم من نسل قبيلة وشعب يحمل هذا الاسم. وعلى الأرجح، لن ينزعج أولئك الذين لديهم فضول حول اللغات إذا ذكرت مثل هذه التفاصيل. وليعذرني الآخرون.

أُرسل ثمانية آلاف من متمرد بروكسل - أولئك الذين قاتلوا من أجل الوصية، أو دعوا إلى المقاومة أو نشروا خطب معادية لوصول الإنكا - إلى إسبانيا، في مقاطعة قليلة السكان تدعى لامانتشا.

وأعلنت تسعة أيام من الاحتفالات، كنوع من المزايدة على مدينة غنت ولجعل تمرد المدينة طي النسيان. وأقيمت الاحتفالات في قصر سودنبرغ، الذي كان قصر شارلكان المتوفى، ثم أخته ماري، التي كانت تقيم في قاعة فخمة بطول لا يمكن أن تجد مثله في قصر كوزكو، بجوار الطريق المنحدر الذي اضطرت الوصية وأعضاء مجلسها إلى صعوده عراً وأذلاء، تطوق الجبال أعناقهم. وأقيم حفل كبير على طراز الربع الخامس، مع مفارقة مريرة، هي أن الوصية قد ترأست الحفل جنباً إلى جنب مع زوجها الجديد. ثم ضحوا بلاما سوداء في الحداثق، وطافت قوات الإنكا في موكب بالمدينة.

هنا يجب أن أستطرد للحظة لإعادة القارئ إلى إشبيلية حيث كانت تقد، يوماً بعد يوم، سفن من الأرباع الأربعة، تجلب معها الذهب والبارود، وكثيراً من الرجال الذين جاؤوا لتجربة حظهم

في العالم الجديد. فبعد الرواد المئة والثمانين الذين قدموا من كيتو، وَقَدَ إلى إسبانيا عدد كبير من المهاجرين من تاهوانتينسيو، عزّز معظمهم صفوف الجيش الإسباني.

في تلك الأثناء، نظم رومينا هوي، باعتباره قائداً عاماً، جيشه وفق الجنسيات المختلفة التي شكلته. إذ لم يكن بالإمكان خلط الشينشا وأعدائهم القدامى اليونكا، ناهيك باليونكا والشيمو، بسبب الحرب الدموية التي خاضها هذان الشعبان ذات مرة، وكذلك الكيشوا، الذين كانوا يكرهون الشانكا، ولا يمكن تصور أن يسيروا إلى القتال جنباً إلى جنب.

وبالتالي، كان يمكن لأهل بروكسل أن يروا كل كتيبة تمر بألوان الشعوب والقبائل التي تشكّلها.

كان الشانكا الشرسون في الطبيعة، إذ كانوا ذوي بأس شديد في القتال. يتلوهم موريسكيو بلنسية، وفرسان الأندلس، وفوج من اليهود من جميع أنحاء إسبانيا. وأثار الشاراف فضل الحشد وإعجابهم لأنهم كانوا مزينين بأجنحة الكوندور المعلقة بظهورهم. أمّا اليونكا، بأقنعتهم البشعة، فقد أربعوا الحضور، لأنهم كانوا يقومون بإيماءات وتكشيرات المجانين، أو البله أو المعتهين. وكانوا يحملون النايات في أيديهم، والدفوف، والجلود الممزقة، التي كانوا يستخدمونها في القيام بعدد من الحماقات. وكما سرت العادة، ختم الموكب خيالة اليانا، وهي فرقة النخبة لدى الإنكا بقيادة بيدرو بيزارو في غياب كويركويز.

تلت العرض الأغاني والرقصات وألعاب الكرة، على حديقة كبيرة معشوشبة تمتد أمام القصر الملكي. وانزلق البجع الأبيض الكبير على سطح البحيرة.

وتدفقت الجعة -وهي ضرب من الأخاب، غير أنّها لا تستخلص من الذرة، بل من حبوب أخرى- وكانت المشروب الشائع في هذه البلدان. وأصدر أتابهوالبا مرسومًا يقضي بأنه ستحل قوانين إسبانيا الجديدة محلّ الدستور السابق. وأعلن أن فلاندرز وجميع محافظات هولندا تابعة الآن لمملكة إسبانيا، باستثناء الجزء الذي تنازل عنه لصالح ملك فرنسا، بما في ذلك مدن ليل، دوي، ودونكرك.

في الواقع، لم تعد بورغوندي، كما سيّدها شارل الجريء، وكما حلم بها شارلكان إلى غاية موته، موجودة. أنجبت ماري فتاة أطلق عليها اسم مارغريت دوتشيسلا، على اسم مارغريت النمسا، من عائلة هابسبورغ، عمة شارلكان وسلف ماري في الوصاية، وعلى اسم باتشا دوتشيسلا، أميرة كيتو، والدة أتابهوالبا. وفيما بعد، تزوجت الصغيرة من أخيها غير الشقيق شارل كاباك.

48. ألمانيا

لكن ألمانيا، بينما كانت تستعد لتتويج فرديناند، واصلت التمزق. في هيسه، في تورينغن، في بوميرانيا، وفي المدن الإمبراطورية في ستراسبورغ، وأولم، وكونستانس، وفي هانزيتش وبريمن، ولوبيك وهامبورغ. وكان يُعتقد أنّ الكنيسة الرومانية قد استفادت بما فيه الكفاية من سذاجة الفقراء وأنّه إذا كان جسد الرب المسمر يتجسد في فطيرة ملح أو في قطعة خبز، فإنّ

قطعة الخبز هذه ستظل قطعة خبز.

وهكذا، لم يكن دوق ساكسونيا، ولاندغريف تورينغن، ومارغريف براندنبورغ، وكونت بالاتينات الراين، -جميعهم أمراء ناخبون في الإمبراطورية الرومانية المقدسة- ينوون الترحيب بفرديناند، المدافع عن الإيمان القديم، كأنه مسيحيهم الذي بعث من جديد. وترأس لاندغريف هيس، فيليب العظيم -كان صديقاً لملانكتون- الاتحاد الشمالكالدي⁽¹⁾ لتحويل ألمانيا إلى الأفكار اللوثرية، أو على الأقل إجبار الإمبراطور على التسامح معها، بالسيف إن لزم الأمر. كانوا جميعاً يتطلعون بشغف إلى ثروات الكنيسة، التي كانوا يعتزمون مصادرتها، ويتآمرون لتجريد امتيازاتها المفروطة وإعادة توزيعها بإنصاف.

مع ذلك، كانت لرياح الثورة هذه حدودها، وقد دفع القائلون بتجديدية العمام (الذين يرون أنّ الطفل الذي لم يبلغ الحلم لا ينبغي أن يفرض عليه دين الإله المسمّر من خلال مراسم التعميد) حياتهم لتجاوزهم هذه الحدود. وبالمثل، قُتل الفلاحون الذين رأوا في لوثر نصيراً لقضيتهم ومناهضاً للبؤس، لانقراضهم باسم العدالة الدنيوية. فضلاً عن ذلك، لم يرغب لوثر في دعمهم، بل على العكس من ذلك، حث الأمراء على ذبحهم عن بكرة أبيهم. وقد تولى فريدريك الحكيم وفيليب العظيم، الأميران المنتخبان البارزان اللذان تحولوا إلى اللوثرية، هذه المهمة بحماس واجتهاد،

(1) الاتحاد الشمالكالدي تحالف دفاعي للأمراء اللوثرين داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة في منتصف القرن السادس عشر. واتخذ اسمه من مدينة تأسيسه شمالكالدين في تورنغن.

فقتلا القادة، وجدعا أولئك الذين تبعوهم. ومنذ ذلك الحين، امتلأ الريف الألماني بآلاف الرجال بلا أنوف ولا آذان. غير أن وصول فرديناند وأتاهوالبا المتزامن قد أحيا مجددًا جمر الغضب الماضي.

من ناحية أخرى، رأى الأمراء اللوثريون في مرسوم إشبيلية نموذجًا ينبغي لألمانيا أن تستلهم منه لتحقيق السلام الديني. واعتمدوا على وصول أتاهوالبا إلى المقاطعات الشمالية للضغط على فرديناند قبل تتويجه في آخن، وانتزاع تنازلات من الإمبراطور الجديد الذي لن يكون بإمكانه إبعاد الأمراء الألمان وإن كانوا لوثرين، أمام قوى فرنسا وإسبانيا المشتركة، ناهيك بالتهديد الذي يشكله سليمان من وراء ظهره.

من ناحية أخرى، شعر الفلاحون الألمان، بعد أن بلغهم خبر الإصلاحات الزراعية التي مست هولندا بعد إسبانيا، بانبعاث الأمل من جديد. وقد رأوا في الإنكا لوثر جديدًا، وربما مونتسر⁽¹⁾ جديد.

كانت أرواح ألمانيا، تلك المنطقة الغربية التي تسكنها أشباح شاردة ورؤى ضبابية، مضطربة أكثر من أي وقت مضى. وتجمعت جيوش من المجدوعين بصمت، وتذكروا أبطال الأمس وأحلامهم المحطمة، وبكوا لدى ذكر كونراد المسكين، لكنهم صرّوا على أسنانهم أيضًا. كان اسم صانع السكاكين كاسبار بريزيغر، وجان

(1) توماس مونتسر ممن عرفوا بالمصلحين المسيحيين الأوائل، وهو القس الألماني الذي تزعم المتمردين خلال حرب الفلاحين الألمانية على النبلاء ورجال الدين سنة 1524.

دي لايد، وجان ماتياس، وبالأخص توماس مونتزر العظيم، على شفاه المجدوعين الذين كانوا يروون لأطفالهم قصصاً قديمة رهيبة حين يحل المساء. وعادت بعض أشباح الماضي للظهور مجدداً، كما لو أنها قد بعثت من الموت، من أماكن الاختباء التي لجأت إليها لمدة طويلة حتى ظن الجميع أنها قد ماتت. لقد أحدث مجيء أتاهاوالبا المعجزات، فقد زعم مشرد كان هائماً في الغابة أنه بيلغرام ماربيك أحد رموز حركة تجديدية العماد⁽¹⁾. وعاد تاجر الفرو سيباستيان لوتزر، وصديقه الحداد أولريش سميد، إلى الظهور في شفاين، مطالبين بمطالبهما القديمة كما لو لم يمر عليها يوم واحد، ولا حتى موسم حصاد واحد.

«لكل رعية الحق في تعيين راعيها وإبعاده إذا أساء التصرف. وعلى كاهن الرعية أن يعظ بالإنجيل، تحديداً، وبالضبط، دون أي تعديلات بشرية. فبحسب الكتاب المقدس يمكن للمرء أن يذهب وحده إلى الرب، عن طريق الإيمان الحقيقي». هكذا قالوا، ولفحت أنفاس السهول الكثيفة وجوه الذين توقفوا عن الحفر ليستمعوا إليهم.

«يتقاضى رعاة الكنائس رواتبهم من العشور الكبيرة. وقد تُجبي زيادة محتملة لأجل فقراء القرية ولتسوية ضريبة الحرب. وينبغي أن تُلغى العشور الصغيرة لأنها من وضع الرجال، فالرب قد خلق الماشية للبشر دون أن يدفعوا مقابلها شيئاً». هكذا قالوا، وصاح الصقر في السماء الرمادية مستحسناً قولهم.

(1) حركة مسيحية نشأت مع بعض الجماعات التي ظهرت في ألمانيا، هولندا وسويسرا أيام الإصلاح البروتستانتي. وكانوا يُنادون بعدم تعميم الأولاد قبل سنّ الرشد، أو بتجديد عمادهم في هذه السنّ.

«إن عادة الاسترقاق الطويلة هي فضيحة منذ أن افتدانا المسيح بدمه الغالي وأنقذنا جميعًا بلا استثناء من الراعي إلى أصحاب المكانة. وحسب الكتاب المقدس فنحن أحرار ونريد أن نكون أحرارًا». هكذا قالوا، واستجابت الغابة بحفيف أوراق الشجر.

«إنَّه لمنافٍ لأواصر الأخوة ولكلمة الرب أن لا يحق للرجل الفقير صيد الطرائد والطيور والأسماك. ذلك أنَّ الرب الإله حين خلق البشر وهبهم سلطانًا على جميع الحيوانات، وعلى الطيور في السماء وكذلك الأسماك في الماء». هكذا قالوا، وردت عليهم الغابة المظلمة بزئير الوحوش.

«استولى اللوردات على الغابة. وإذا احتاج الفقير إلى شيء فعليه أن يدفع ثمنه ضعف قيمته. لذا سيُعاد كل الخشب الذي لم يُشترَ بعد إلى المجتمع كي يتمكن الجميع من تلبية حاجاتهم من البناء والحطب». هكذا قالوا، وتشقق اللحاء في الغابة الجافة فرحًا ومتوعدًا.

«لا بدّ من تقليل أعمال السخرة إلى حد كبير، كما أنجزها آباؤنا وفقًا لكلمة الرب فقط». هكذا قالوا، وأضافوا: «لا ينبغي للوردات أن يطالبوا بمزيد من أعمال السخرة دون اتفاقية جديدة». «لا يمكن لكثير من الأراضي الزراعية أن تتحمل تكاليف الإيجار المخصص لها. لذلك ينبغي للرجال الشرفاء أن يتفقدوا هذه المزارع لإعادة تقييمها وإقرار حقوق إيجار جديدة، حتى لا يعمل الفلاح مقابل لا شيء لأنَّ لكل عامل الحق في أجر عادل».

هكذا قالوا، فتساقطت الغريان المتجمدة من السماء كالحجارة. «ينبغي أن تحدد الغرامات التي تفرضها العقوبات وفق القواعد الجديدة. وفي غضون ذلك، يجب وضع حد للتعسف والعودة إلى القواعد القديمة المكتوبة». هكذا قالوا، لكن هذا كان قبل خيانة لوثر.

«كثير من الحقول والمروج تعود في الأصل إلى المجتمع: نريد أن نأخذها مرة أخرى بأيدينا العارية». هكذا قالوا، وظل أتاهاوالب يحوم فوق هذه الكلمات.

«يجب إلغاء ضريبة الميراث بالكامل. لا ينبغي أن تُسلب الأرامل والأيتام مرة أخرى بطريقة حقيرة». هكذا قالوا، مثل بومات تصيح عند حلول الليل.

«إن كان أي بند هنا لا يتفق مع كلام الرب أو ثبت أنه غير عادل، فينبغي إلغاؤه. لا ينبغي وضع بنود أخرى تتنافى وكلام الرب، أو تسبب الضرر للأخ الإنسان». هكذا قالوا، وقد رفع قدرهم هذا التورع، الذي يوحي عن سذاجة صبيانية وحس أخلاقي كانوا قد عرفوا كيف يزرعون في حكاياتهم وخرافاتهم.

49. يوهان الصغير

بين مطرقة هرطقة الشمس وسندان الفلاحين الغاضبين، لم يكن الأمراء متأكدين ممّا ينبغي لهم فعله. ولم يكن أمراء الشمال والشرق، الذين التحقوا باللوثرية (وقد رأوا فيها وسيلة لمصادرة الثروات الهائلة لكنيسة الإله المسمر) يثقون بفرديناند، الذي كان

وصياً على معتقدات الأجداد، وكان يعارض أي قطيعة مع رئيس كهنة روما، إلا أنه كان في الوقت ذاته يقف حصناً منيعاً لهم ضد الترك. ومع ذلك، كانوا يعرفون من التجارب السابقة أن غضب الفلاحين قد تجاوز إلى حد كبير الأسئلة الدينية المتعلقة بالقربان المقدس والطقوس الأخرى التي اعتبروها ثانوية نظراً للحالة المزرية التي يقعون فيها. ومع اندلاع هذا الغضب مرة أخرى، وقف أمراء ساكسونيا وتورنغن وبراندينبورغ مرتابين، غير متأكدين، ينتظرون التعليمات من فيتتبرغ، البلدة الواقعة في مقاطعة براندينبورغ حيث كان يعيش لوثر.

لم يكن الأمر ذاته في الغرب والجنوب، في مناطق ويستفاليا، والألزاس، وشفابن، حيث أراد الأمراء وأد الثورة دون انتظار، كما يقضي أحدهم على مجموعة قطط صغيرة قبل أن تتكاثر. وهكذا، دفعوا للمرتزقة لتطهير الريف والبلدات.

ومع ذلك، حدث أن تعقب أفراد من مرتزقة اللاندسكنيشت بستانياً من ستراسبورغ اعتبروه مصدرًا للمتاعب، لأنه كان يتنقل من قرية إلى قرية ويعظ بحق الناس في قطع الخشب والصيد والاصطياد بحرية. وذات يوم، عندما اعتقدوا أنهم عثروا عليه في مزرعة لجأ إليها، وجدوا فقط زوجته وابنه الوليد، فقتلوهما بلا رحمة. وسرعان ما انتشرت أخبار هذه الجريمة الفظيعة في جميع أنحاء البلاد. ولأن الرضيع المقتول كان يُدعى يوهان، فسرعان ما انتشر في جميع القرى، والمزارع، والمتاجر، حديث

عن الانتقام لأجل «دير كلاين يوهان»⁽¹⁾. وهكذا أنشئت أخوة جديدة بدل أخوية «كونراد المسكين» القديمة، ليس فقط لتحقيق العدالة، بل للانتقام.

لكن غضبهم، وإن كان شرعياً، وإن كانت الجريمة تُؤججه، فإنه لم يكن ذا وزن لمواجهة المطارد وبنادق المرتزقة. وتذكر الفلاحون جيداً كيف تدحرج رأس زعيمهم، توماس مونترز، منذ وقت ليس ببعيد، بالكاد عشرين موسم حصاد، في نشارة الخشب، لينضم إلى الجثث مئة ألف من أتباعه المتعفنة في الحقول.

ولا حاجة إلى القول إنه لم يأتِ لا لوثر ولا الإمبراطور لنجدتهم. لكن الوضع قد تغير اليوم.

أرسل هؤلاء الفلاحون رسولاً إلى بروكسل لطلب مساعدة أتاهاوالبا، حامي الفقراء، وكانوا يعلمون أنه من غير دعم خارجي، ليس هناك ما يتوقعونه من دوق لورين (الملقب بعكس ما هو عليه: أنطوان الصالح) سوى أن يحل بهم عقاب يجعل منهم عبرة، ويأتي على كل شيء.

لم يكن أتاهاوالبا في عجلة من أمره للعودة إلى إسبانيا. وقد جذبتة مدينة في الشرق، التي كانت تبعد عن بروكسل مسيرة يوم واحد: إنها آخن، حيث كان من المقرر أن يتوج منافسه فرديناند. وكان يعلم أنه طالما بقي في بلجيكا، فلن يجروا الإمبراطور الجديد على الاقتراب بما يكفي لحضور تتويجه، ما لم يعلن الحرب على أتاهاوالبا. لكن هذا يعني نقل جيشه عبر ألمانيا، تاركاً جناحه الشرقي مكشوفاً.

(1) باللغة الألمانية وتعني "يوهان الصغير".

قرر ملك إسبانيا، أمير البلجيكيين، وحاكم هولندا، سيد البرابرة، أنه سيدعم تمرد الصغير يوهان، وأرسل قواته إلى الألزاس، وعلى رأسهم تشالكو شيماك.

بين عصابات الفلاحين وجيش الإنكا الذي لا يقهر، سُحق دوق لورين على الفور، وفتحت مدينة ميتز التي لجأ إليها أبوابها للمهاجمين، وقد كان تجارها وحرفيوها متعاطفين مع محنة الفلاحين، ورأوا أنّ مطالبهم كانت معقولة، واعتبروا أنّها كثيرًا ما «هُضمت دون سبب». غير أنّه لم يتسنَ لتشالكو شيماك أسر الدوق لأنّ الفلاحين الغاضبين استولوا عليه وعلى شقيقه الدوق جوي، وذبحوهما حيّين ومزقوهما إربًا إربًا، ثمّ علقوا رأس كلّ منهما على حد الرمح.

ومع ذلك، لم يفقد السياسيون حقوقهم، لأنّهم قدموا لممثل الإنكا نسخة جديدة من المطالب القديمة التي قدمها ذات مرة إخوانهم من شفاين. فأرسلها تشالكو شيماك إلى بروكسل، وبعد مرور نصف قمر، وصلهم ردّ الإنكا. وأعيدُ هنا نسخ المستند الأصلي الذي أمامي، والذي رد عليه أتاهاوالبا بخط يده.

50. البنود الاثنا عشر للفلاحين الألزاسيين

البند الأول:

يجب أن يُكرز بالإنجيل حسب ما ورد فيه، وليس إرضاءً لمصالح السادة والكنهنة.

يمكن للجميع ممارسة دينهم بحرية، شريطة أن يشاركوا في
أعياد الشمس.

البند الثاني:

لن ندفع العشور بعد الآن، لا كبيرة ولا صغيرة.
بند مقبول.

البند الثالث:

تُخفّض الفائدة على إيجار الأراضي إلى خمسة بالمئة.
ستُلغى الفائدة ويستبدل بها نظام أعمال سخرة دورية.

البند الرابع:

يجب أن تكون جميع مياه الأنهار والبحيرات مجانية.
بند مقبول.

البند الخامس:

يجب أن تعود ملكية الغابات إلى المجتمع.
بند مقبول.

البند السادس:

يجب أن تكون الطرائد مجانية.
بند مقبول، ولكن فقط خلال فترات معينة يحددها الإنكا،
بمناسبة أعياد الشمس وبعض الأعياد الأخرى. وهذا من أجل
الحفاظ على تكاثر الطرائد.

البند السابع:

لن يكون هناك مزيد من العبيد.
بند مقبول.

مكتبة

t.me/soramnqraa

البند الثامن:

يجب أن ينتخب بأنفسنا سلطتنا، وأن نتخذ ممن نراه مناسباً حاكماً.

بندٌ مرفوض.

البند التاسع:

يجب أن يحكمنا أئدادنا.

بندٌ مقبول، طالما أن تعيين القضاة يحظى بموافقة الإنكا أو ممثليه.

البند العاشر:

نحن من ينتخب المشرفين ونحن من يفصلهم.

بندٌ مرفوض. يحتفظ الإنكا بهذا الامتياز، لكن لكم مطلق الحرية في تقديم المرشحين إليه.

البند الحادي عشر:

لن ندفع بعد الآن تكاليف حالات الوفاة.

بندٌ مقبول. ستحصل أسرة كل متوفى على مساعدة من البلدة وطعام من مخازن الإنكا الشخصية.

البند الثاني عشر:

تعود جميع الأراضي الجماعية التي استولى عليها أسيادنا إلى البلدة.

بندٌ مقبول.

ما إن عُرفت شروط الاتفاقية، حتّى هزّ انفجار هائل جميع أنحاء ألمانيا.

شجّع انتصار الفلاحين الألزاسيين البقية. والآن، في جميع أنحاء الريف الألماني، عرف أتعس الفلاحين وأكثرهم عزلة أنّه لم يعد وحيداً، ويمكنه الاعتماد الآن على قوة هائلة، أو عناية إلهية، أو قدرة شبه إلهية يمكنها التغلب على جميع الأمراء، بل وراغبة في مساعدة الفلاحين.

في الواقع، حيثما كانت هناك حاجة إلى مساعدة أتاهاوالبا، كان يرسل قواته. وقد تولى هو نفسه قيادة جيشه للذهاب إلى ويستفاليا. حتى يتسنى له أن يرى بأأم عينيه معبد آخن حيث توج شارل إمبراطوراً. كان قادراً على الجلوس على عرش شارلمان، ولمس قبره الذهبي بيديه. لقد تعلّم الإعجاب بهذا الإمبراطور وحسده من خلال حكايات بيدرو بيزارو، حين كان يقرأ له مغامرات أورلاندو وأنجليكا دي ميدور وبرادامانتي. وهكذا، بلا شك، بدأت تنبت فكرة ما داخل رأسه الملكي، وتتمو يوماً بعد يوم، مثلما تنمو نبتة بطاطا وتكبر في عمق التربة المظلم.

أيّما كان الفلاحون ينتفضون، على إثر حادثة الصغير يوهان، كانوا يحملون حذاءً برياط وعلمًا بألوان قوس قزح شعاراً لهم. واتخذ أتاهاوالبا من شعار قوس قزح رايةً له⁽¹⁾. ووجد أنّها راية مناسبة لإمبراطورية شارلمان.

(1) اتخذ الإنكا قديماً من ألوان قوس قزح السبعة رمزاً وراية لهم.

كان الدايت في ألمانيا يعادل إلى حدٍّ ما الكورتس في إسبانيا، باستثناء أنه لم يضمَّ فقط الأمراء والحكام المحليين، بل أيضًا ممثلين عن مدن الإمبراطورية. لكن عددهم كان كبيرًا جدًا، وكانت ألمانيا في ذلك الوقت مجموعة من الدويلات الصغيرة المشتتة، حتى أن الذين حضروا هذه المحافل كانوا بالمئات حرفيًا.

عُقد اجتماع للدايت في أوغسبورغ، وهي مدينة إمبراطورية تقع على حدود دويلتي شفاين وبافاريا. وأصبح للإنكا، الذي سيطر على ألمانيا الغربية برمتها، الحق في الحضور. لكن وجود فرديناند في المنطقة جعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الوصول إليها، لا سيما أن مطالب هذا الغريب الذي اعتبره فرديناند، الأرشيديوق النمساوي، مفتصبًا لعرش إسبانيا، قد ظهرت الآن للعلن: لقد كانت عينه على الإمبراطورية الآن، ولم يعد أحد يشك في ذلك. ورأى فرديناند صراعًا حتى الموت قد بدأ بينهما منذ اليوم الذي قُتل فيه شقيقه، ورأى أن الصدام الذي يلوح في الأفق أمر لا مفر منه. وهكذا بدأ في حشد قواته في بافاريا، التي كانت بالنسبة إليه بوابة ألمانيا، ولكنها أصبحت الآن أيضًا دولة عازلة تفصله عن شفاين التي احتلتها جيوش أتاهاوالبا بالكامل تقريبًا.

في الواقع، بدت الأمور تسير نحو طريق مسدود بالفعل: فإذا منع أتاهاوالبا وصول فرديناند إلى آخن، ومنعه من التتويج، فسيمنع فرديناند أتاهاوالبا من القدوم إلى أوغسبورغ، ويمنعه من تأكيد ادعاءاته أمام الدايت.

واجه الجيشان بعضهما بعضاً، لكن لم يجرؤ أي منهما على مهاجمة الآخر. وراحا يراقب بعضهما بعضاً، وخوف متبادل يتملكهما. ودمّر الانتظار المعنويات والأجساد. وتملّك الغيظ رجال فرديناند بشكل خاص وأصابهم المرض. لكن في المقابل، كان جيش أتاهاولبا، الذي حارب إلى جانب الفلاحين ضد الأمراء الكاثوليك، مرهقاً ومتعباً من حملته في ألمانيا.

وتجمد الوقت في سهل شفاين.

مرة أخرى كانت هيغويناموتا هي من وجد الحل لمشكلة سيدها وصديقها.

كتبت الأميرة الكوبية بنفسها إلى ملك فرنسا تقترح عليه إرسال رسالة إلى سليمان. ولا بد أن ما ورد في الرسالة كان: «إن فرديناند منشغل بأمر آخر، وفيينا متاحة الآن».

ومرة أخرى، بدأ الجيش التركي، الذي كان يحتل معظم المجر، في التحرك.

لم يكن أمام فرديناند من خيار، بعد أن حُذّر من الخطر المترص به، سوى العودة إلى مملكته النمساوية لحماية عاصمته. فضلاً عن أن جيشه قد أصيب بمرض غريب انتشر أولاً في إسبانيا، ثمّ فرنسا، فالفلاندرز، فألمانيا: حيث أصيب الرجال بالحمى وفقدوا شعرهم وغطت أجسادهم بقع حمراء وانتفاخات. وكانت أول أعراض المرض ظهور تقرحات على القضيب أو الإليتين أو في مؤخرة الحلق. في البداية، خشي القوم أن يكون هذا الطاعون الذي اجتاح بلداناً برمتها وأهلكها في غضون أيام قليلة، لكن هذا المرض لم يكن قاتلاً، فقد تعافى المرضى في

النهاية، وإن لم يُشفوا تمامًا، إلا أن آثار المرض قد تلاشت. ومع ذلك، ظلوا في وهن، ولم يكن هذا جيدًا لمعنويات الجنود. وأخيرًا تحرك جيش فرديناند، وشعر جنود فرديناند بالارتياح. فالخصم التركي وإن كان شرسًا، فهو على الأقل مألوف، بينما بدا أن الرب -أو الشيطان- كان يفضل هؤلاء الهنود القادمين من البحر. وفسح الطريق أمام أتاهاوالبا.

ولمّا وصل إلى أوغسبورغ، تواصل على الفور مع أقوى رجل في المدينة، وبلا شك في ألمانيا كلّها. والحق يقال، كان أنطون فوغر رجلًا مهمًا جدًّا، حتّى أن أتاهاوالبا قصد مباشرة منزله ليقيم معه، قبل أن يقدم نفسه إلى الدايت أو للسلطات المحلية. ورحب به المصرفي في مقر إقامته الشاسع، الواقع في قلب المدينة، حيث رحب ذات مرة بسلفه شارلكان. وأعجب الإنكا بالحجر الرملي للمبنى. وقد ذكره القصر، في بساطته الشديدة، بتلك القصور الموجودة في كيتو. (والحقيقة أنه لم تطأ قدمه كوزكو قط). واستمتع بالوليمة التي أَعَدّها له المصرفي. ولم تكن الجعة سيئة.

كان لدى الرجلين أمور كثيرة ليتناقشا فيها. وكان أنطون فوغر يرتدي ملابس بسيطة، وإن كانت غريبة بعض الشيء، حتّى وفقًا لمعايير الربع الخامس. فقد كان يرتدي معطفًا أسود يبرز منه قميص أبيض دون ياقة، ويضع على رأسه قبعة على شكل فطيرة كبيرة، ناعمة الملمس. وكان شعره ملفوفًا في ما يشبه الكيس، وكان يحيط بلحيته شيء من البخار، كثيف في أماكن وخفيف في أخرى. وكانت يده مخبأتين في قفازين أبيضين ناعمين.

تحدث إلى الإنكا بالإيطالية، ورد الإنكا بالإسبانية. وقد فهما بعضهما جيداً.

لقد كان لكل رجل وعي واضح بمصالحه الخاصة وأراد أن يشرح بالضبط ما كان عليه أن يقدمه. وفوق كل هذا ما كان ينتظره في المقابل.

وبعيداً عن الاحتفالات عُقد، في مكتب فوغر، التحالف الذي من شأنه أن يحدّد الاضطرابات العظيمة القادمة، أكثر من أي تحالف آخر.

كان في المكتب خزانة بها عديد من الأدراج. وقد تعرف أتاهاوالبا، الذي أصبح بإمكانه الآن القراءة والكتابة، على أسماء المدن المكتوبة عليها: لشبونة، روما، إشبيلية، أوغسبورغ. وأخرى لم يعرفها بعد: فينيديغ، نويرينبرغ، كراكاف..

من ناحية أخرى، كان فوغر مدرّكاً تماماً الدوافع التي يقف لأجلها أمامه هذا الرجل الذي كان يرتدي تنورة ويضع تاجاً من الريش. فقد كانت نفس دوافع شارلكان ذات يوم: لقد كانت الإمبراطورية باهظة الثمن، لسببين. فمن ناحية، كان ينبغي أن يدفع للمرتزقة للذهاب إلى الحرب. ومن ناحية أخرى، كان من الضروري شراء أصوات الأمراء الناكبين. ولا يصل الذهب من وراء البحار بالسرعة الكافية إلى إشبيلية. ثمّ يستغرق وقتاً طويلاً للوصول من إشبيلية إليه، ناهيك بضرورة تحويله بعد ذلك إلى عملات نقدية. كان بإمكان فوغر أن يدفع المبالغ الهائلة التي سيلتزمها جيش أتاهاوالبا للاستيلاء على الإمبراطورية. وكان على أتاهاوالبا أن يفهم أنه في مقابل ذهبه، سيوفر فوغر وحدات قياس

على شكل عملات معدنية مستديرة. ولوّح الإنكا بيده على نحو غامض. لم يكن المال موجوداً بهذا الشكل في تاهوانتينسويو، لكنه أدرك براعة هذا النظام منذ وصوله إلى إسبانيا.

ثمّ أوضح له فوغر قيمة هذه العملات الصغيرة: فالفلورين الواحد يمكنه أن نستبدل به خمسة وعشرين دجاجة، أو كيلوغراماً واحداً من الفلفل، أو عشرة لترات من العسل، أو تسعين كيلوغراماً من الملح، أو أجرة عشرة أيام للعامل الماهر.

بإمكان أتاهاوالبا أن يصدق ذلك: فهو سيحتاج إلى كثير من الفلورين.

استمع الإنكا إليه باهتمام، وظل ملتزماً الصمت. ورفض أن يطرح السؤال الذي كان المصرفي سيجيب عنه بمفرده. ماذا يريد في المقابل؟

سكب فوغر كأسين من المشروب الأسود، من القنينة التي كانت موضوعة على مكتبه، وسلم أحدهما إلى الإنكا، الذي قبله دون رسميات. وكان هذا النبيذ قادماً من توسكانا، الإقليم الذي تقع به مدينة فلورنسا. وبدا المصرفي فخوراً بهذا. خلال كل السنوات التي قضاها في العالم الجديد -في الواقع، منذ الحرب الأهلية مع أخيه- تعلم أتاهاوالبا ألا ينزعج من جهل الآخرين بالتشريفات التي يحفظها له ميلاده الملكي. وقد تقبل منذ مدة طويلة أن يُخاطب مباشرة، وليس من خلف حجاب بينه وبين محاوره. وكان لديه أيضاً متسع من الوقت للتعرف على عادات الربع الخامس: فعلم أن تقديم مشروب هنا كان رمزاً للصداقة وحسن النية، وهو طقس يتم عموماً بين الأنداد، وفرصة الاحتفال

باجتماع سعيد، أو مناسبة خاصة، أو عقد صفقة. كما يمكن أن تكون حيلة لتسميم الضيف. لكن هذا الألماني لم يكن لديه حقاً أي دافع لتسميم الغريب الذي سيجعل منه أغنى رجل في أوروبا، ويتيح له أن يحل بشكل نهائي محل منافسه العظيم فلسر، مصرفي آخر في أوغسبورغ، وكذلك الجنوبيين وتجار أنتويرب. لا شك في أنّ الألماني قد تردد قبل اختيار الإنكا، وكان من الطبيعي أن يدعم فرديناند، الوريث المعيّن لشارلكان على رأس الإمبراطورية. لكن، حدّد اختياره عاملان: اقتدار أتاهاوالبا على تسديد الدين، وقد بدت موارده الذهبية والفضية لا تنضب. وآفاق أسواق جديدة.

لم يطلب فوغر الكثير، في الحقيقة. قبل سنوات، كان ملك البرتغال قد منح عمّ فوغر، جاكوب الثري، الإذن بالتجارة مع مدينة جوا في الهند في الشرق الأقصى، ثمّ سحبه منه. وكان ما يريده أنطون فوغر من ملك إسبانيا هو رخصة مماثلة للذهاب وشراء المنتجات من وراء البحار. وكانت عائلة فوغر عائلة ثرية من النساجين. وقد أراد أنطون التجارة في صوف الألبكة تحديداً، إذ لم يكن في أوروبا مثيل لجودتها. وكانت لديه أيضاً فكرة استيراد المطاط، وهو ما اعتبره استثماراً واعداً، لأن الخشب الباكي الذي كانت تُستخرج منه هذه المادة لم يكن موجوداً في أي مكان في هذا الجانب من العالم.

وافق أتاهاوالبا. وهمّ أن يرفع النخب لإتمام الصفقة، كما جرت العادة، لكن فوغر أوقفه بإيماءة. فلا يزال لديه شرط آخر.

اشترط على الإنكا أن يخلصه من لوثر.

وفوجئ أتاهاوالبا باهتمام مضيفه بالدين.

في الحقيقة، كان لوثر مسيئاً للصفقات. فطالما شوّه الكاهن المتمرد ما يشكل جوهر عمل المصرفيين: الإقراض بالفوائد. وكان ذلك الراهب الصغير من فيتتبغرغ هو الذي دمر تجارة صكوك الغفران المربحة، التي كان على روما أن تسدد بها الديون الضخمة المتراكمة للعم جاكوب.

لم يأخذ ابن الأخ الأمر على محمل شخصي، لكنه أراد موته، في غضون قمرين، وإلا فإن اتفاقهما سيُلغى، وسيعلق جميع المدفوعات.

وافق أتاهاوالبا، الذي أعماه حلمه الإمبراطوري، دون أن يكون لديه فكرة واضحة عن إمكانيات تحقيق هذا الجزء من العقد، ولا عما ينطوي عليه من تداعيات سياسية. وأخيراً، رفعوا نخب الصداقة بين الشعوب، ونخب الإمبراطورية العالمية.

غادر الإنكا بصندوق مليء بخمسة آلاف فلورين، ويُقال إنها تمثل واحداً من الألف من خزينة فوغر.

53. الأمراء البروتستانت

كان لا يزال يتعين على أتاهاوالبا أن يُخضع، بالقوة أو الإقناع، الأمراء الألمان في الشرق والجنوب، وكانوا في غالبهم مؤيدين لإصلاح لوثر.

يتعلق هذا بشكل أساسي بمارغريف براندنبورغ، يواكيم هيكتور، وابن عمه دوق بروسيا، ألبرت براندنبورغ، ولاندغريف

هسن، فيليب الملقب بالشهم، وقبل كل شيء الحامي الشخصي للوثر، ابن شقيق فريدريتش الحكيم، وناخب ساكسونيا، يوهان فريدريتش، الملقب بالشهم أيضاً (يبدو أنها صفة مشتركة بين هؤلاء الأمراء).

كان هناك أيضاً موريس من ساكسونيا، ابن عم يوهان فريدريتش ومنافسه، لكنّه لم يكن أميراً ناخباً ولا لوثرياً بشكل صريح، فضلاً عن أنّه يمتلك وسائل عسكرية كبيرة للدفاع عن نفسه إذا لزم الأمر. لذا، قرر أتاهاوالبا تركيز جهوده على الآخرين.

واجه الأمراء اللوثريون معضلة، فقد عارضوا مسبقاً فرديناند، كما فعلوا مع شارلكان، لأنّه، مثل شقيقه الراحل، لم يكن يريد أن يسمع عن إصلاح للديانة الرسمية التي اعتبر نفسه كفيلاً. وطالبو بمرسوم إشبيلية ألماني، من شأنه أن ينشر في الإمبراطورية الحرية الدينية التي منحها أتاهاوالبا لإسبانيا.

في الوقت ذاته، فإن الترحيب بالإنكا في ألمانيا وجعله مسؤولاً عن الإمبراطورية بدلاً من فرديناند يعني في الأساس استيراد دين الشمس هذا، الذي لم يكن مجرد هرطقة، ولكن -بقدر ما يمكنه أن يحكموا عليه- ديناً وثنيّاً خالصاً.

ومع ذلك، لم تكن فكرة التسوية غريبة عليهم. فقد اعتمدوا على شارلكان أولاً، ثمّ فرديناند، لمساعدتهم على قمع ثورات الفلاحين. ولمثل هذه المهمة، سيكون جيش أتاهاوالبا مناسباً كذلك.

لكن ما كان يقلقهم هو برنامج الإصلاح السياسي الذي نفذه أتاهاوالبا في ممالكه، والتنازلات التي قدمها للفلاحين الألزاسيين.

ولم يرغب الأمراء في أي ثمن في التخلي عن الدخل الكبير الذي كانوا يجنونونه من موارد أراضيهم ومن عمل فلاحهم، الذي يكفله لهم أسلوب تنظيم الحياة المدنية الذي يتبعونه، والمبني على الامتيازات التي كان يحصل عليها النبلاء منذ زمن سحيق. ومع ذلك، فإن وجود أتاهاوالبا في المناطق المحيطة يهدد بإذكاء جمرة التمرد، إلى جانب الأمل في إصلاحات تستند إلى البنود الاثني عشر التي تناقلها الناس في أرياف ساكسونيا وبروسيا خلسة. وكان هناك نوع من التوافق أو الائتلاف المقلق والخطر، بين مشاريع أتاهاوالبا وتطلعات الفلاحين. وعلى الأغلب، كان بإمكان الأمراء التفكير في تحرير خدمهم، الذين كانوا فلاحين مستعبدين. لكن فكرة إعادة توزيع الأراضي لصالح البلديات، أو أي شخص آخر، بدت لهم كأمر لا يمكن تصوره. ومع ذلك، كان هذا ما حدث في الألزاس، وويستفاليا، وراينلاند، وحتى شفاين وفي بعض مقاطعات بالاتينات...

وهكذا، كان هؤلاء الأمراء المذهولون تمامًا، والواقعون في قبضة التردد الصارخ، هم الذين واجههم أتاهاوالبا. ومرة أخرى، استدعى شالكو شيماك الماكر لقيادة المفاوضات. واعتمد الجنرال بدهاء على مزج التهديدات بالوعود، والتوليف بين الحزم والليونة، وكان يدرك أنها ضرورية في مساعدة الطرف الآخر على اتخاذ القرارات الصحيحة.

ومع ذلك، لم يستطع الأمراء البروتستانت التخلص من ترددهم. ولوضع حد لهذه المماطلة، اقترحوا أن يرتب الإنكا لقاء مع لوثر شخصيًا. وسيرهم هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه،

ووعدوا بالامتنال لتعليماته. وهذا بالطبع دون استثناء المداخليل الكنسية العديدة التي كانوا سيطالبون بها الإمبراطور الجديد، والتي كان أتاهاوالبا على استعداد لمنحهم إياها، ولا المبالغ الضخمة التي كان عليه أن يدفعها لهم لضمان دعمهم وتصويتهم، وكان على فوغر أن يمنحه إياها مقدّمًا.

أعطى أتاهاوالبا موافقته. وأُرسلت دعوة إلى فيتتبرغ، حيث يقيم لوثر. وطلب منه أن يذهب على الفور إلى الدايت في أوغسبورغ لمقابلة ملك إسبانيا، المطالب الجديد باللقب الإمبراطوري، من أجل الاستماع إلى حججه وتقييم إن كان أهلاً لذلك. بعبارة أخرى، لتحديد إن كان ترشحه متوافقًا مع الأنجيل.

وجاء الجواب بعد أيام قليلة: حيث شكر البروفيسور لوثر المجلس الموقر على دعوته لكنه أعرب عن أسفه لرفضها. وكان الراهب يرغب في أن يذكر محاوريه بكل احترام بسابقة لم ينسوها بالتأكيد: فبعد أن قدم نفسه منذ عهد قريب إلى دايت فورمس أمام شارلكان، وجد نفسه منبوذًا من الإمبراطورية، واختطفه غرباء في غابة مظلمة، حتى ظن أنه قد بلغ أجله. ولذلك فإنه يتوسل إلى الأمراء المحسنين أن يغفروا له رفضه، ويسأل الرب أن يحفظ الجميع.

غير أن أتاهاوالبا -الذي لطالما عرف عنه رباطة جأشه الأسطورية وأشيد عليه بها- قد أبان عن علامات نفاد الصبر. ثم عرض عليه دوق ساكسونيا المجيء إلى فيتتبرغ. وسيهتم شخصيًا باستقبال الإنكا بكل ما يليق به من مراسم وتشريفات، وسيتولى ترتيب لقاء بينه وبين لوثر.

توجس الإنكا، بفراسته، من هذا الرجل الممتلئ، ذي العينين
الأشبه بنصف القمر، واللحية الحمراء والشعر القصير، لكنّه بعد
التشاور مع موظفيه، وافق على عرضه. ففي كلتا الحالتين، كان
نداء الإمبراطورية أقوى من أن يتجاهله.

من بين الناهبين السبعة الذين صوتوا للإمبراطور، كان ثمة
ثلاثة كهنة وأربعة أمراء. وكان أساقفة ترير وماينز وكولونيا
الثلاثة قد خضعوا لسيطرته خلال حرب الصغير يوهان، التي
انتصر فيها جنباً إلى جنب مع الفلاحين. لذا؛ فقد حصل على
أصواتهم الثلاثة. وكان فرديناند قد ورث مملكة بوهيميا، بينما
لجأ كونت بلاتين نهر الراين إلى أراضيهِ الشرقية بعد هزيمته
على يد جيش روميناھوي. وكان هذان الصوتان هما اللذان أفلتا
منه. لذلك كان لا يزال يتعين عليه الحصول على صوت آخر. ولم
يبقَ أمامه سوى اثنين من الناهبين اللوثريين. وهكذا، أمسك دوق
ساكسونيا ومارغريف براندنبورغ مصير الإمبراطورية بأيديهم.
سيذهب أتاھوالبا إلى فيتنبيرغ، برفقة هيغويناموتا وشالكو
شيماك. وسيأتي الأمراء اللوثريون الآخرون، ومن يشاء، لحضور
الاجتماع. في الحقيقة، تدفق الناس من جميع أنحاء ألمانيا،
وحتى الدنمارك وبولندا، ليشهدوا هذا اللقاء.

54. فيتنبيرغ

لقد تعلموا كثيراً خلال الرحلة. مروا بفلاحين فقراء وعائلات
جائعة وأطفال مرضى. رأوا رجالاً بلا أنوف ورجالاً بلا آذان.

البعض فَقَدْ إصبعين من يده اليمنى. ولم تتكلم النساء أو يبكين،
كن فقط يحدقن ببغض في كل شيء من حولهن، مثل حيوانات
محاصرة، على استعداد للبصق.

رفع متسول أعمى جفنته الخشبية لدى مرور الإنكا. وأراد
الحراس من اليانا ركله بعيداً لكن أتاهاولبا جعله يقترب من
محفته. كان المتسول يهز جفنته مثل الجرس. ثم قال، وهو يحدق
في الإنكا بعينيه المبيضتان: «أيها الرب الرحيم، أيد حقوق
الفقراء». فغادر بخاتم ذهبي وقطعتين من الفلورين.

بعد مدة وجيزة، توقف الموكب في مدينة نورمبرغ
الإمبراطورية، وكانت روعة مبانيها تتناقض بشكل صارخ مع بؤس
الريف المحيط بها.

أمّا بقية الرحلة، التي تضمنت التوقف في مدينة لايبزيغ
المشهورة بأسواقها، فقد قدمت لهم نفس المشاهد وأثارت لديهم
نفس الانطباعات. هنا، رجال بلا أنوف. هناك، ترف باهر.
وأخيراً وصلوا.

كانت فيتبرغ مركزاً دراسياً مشهوراً، لكنها لم تكن مثل
شلمنقة.

كان يسكن المدينة رهبان يرتدون أردية، ويتجولن مثل النمل
الصغير المزدحم، ويمسكون بأيديهم أكواماً أو صناديق من أوراق
الكلام، ويحملون الخنازير الرضيعة أو أرغفة الخبز أو براميل
الজেة تحت أذرعهم، ويرتدون الصلبان الخشبية حول أعناقهم.
كان يعلو كنيسة القلعة برج دائري مخيف، فوقه تاج مليء
بالأشواك، مثل برعم وردة سوداء يعلوها ساقها الذي يلقي بظلاله
الكئيبة على المدينة.

في ساحة السوق، احتك الرهبان بالطلاب والتجار والمزارعات. وكانت الأغنام والخنازير تتسلل بين السيقان.

لم تكن القلعة نفسها مأهولة بالسكان منذ وفاة فريدرش الحكيم. وقد عرض ابن أخيه ووريثه إيواء الإنكا ورجاله هناك. وأرسل إليهم طبائخه، لكنهم أعادوهم. واستقروا في القلعة المهجورة، ودون تأخير، ذهب تشالكو شيماك إلى فيليب ملانكتون، ذراع لوثر اليمنى، الذي استقبله أتاهاوالبا مؤخرًا في غرناطة، من أجل التحضير للاجتماع العظيم.

كان يتحدث عددًا من اللغات، وكانت اللغة القشتالية هي التي أجري بها الحديث. كان ملانكتون رجلًا متوسط القامة، دمثًا، يتسم خلف لحيته الحمراء الصغيرة. وعلى الرغم من تجاعيد وجهه المبكرة، كانت ملامحه شابة وتوحي عادةً بالتعاطف والثقة من أول وهلة. لكن لم يكن هذا انطباع شالكو شيماك لدى رؤيته، فما لاحظته جنرال الإنكا كان الذكاء الكامن وراء المودة.

رفع الأستاذ والجنرال نخبًا وشربا الجعة التي صنعها لوثر بنفسه، والتي بدت كأنها تروق لملانكتون، على الرغم من أنه لم يكن يشرب منها كثيرًا.

استمرت المقابلة ظهيرة يوم كامل، وتجاهل الرجلان هيجان سكان المنزل، وكان الخادم العجوز يأتي لملء الدورق الجعة، والطلاب يمرون لجلب أوراق أو أخذها، مأخوذين بمنظر هذا الزائر الاستثنائي ويسترقون النظر إليه، ويلتقطون شذرات من الحوار الدائر بين الرجلين، الذي لم يفهموه.

وكان هذا ما ذكره جنرال الإنكا عندما عاد لإبلاغ سيده: أطلق الناس هنا على أنفسهم اسم «البروتستانت». وطالبوا بحرية ممارسة شعائهم الدينية على النحو الذي يرونه مناسباً. لقد أرادوا إجراء تغييرات في الطريقة التي يعبدون بها الإله المسمر. وكانوا مرتبطين جداً ببعض الطقوس، ويرفضون بعضها الآخر. وقد أرادوا أن يتمكن كهنتهم من الزواج، وهي قاعدة طبقوها بالفعل: فلوثر نفسه، الذي كان كاهناً، لديه زوجة وأطفال، والذي كان محظوراً نظرياً، كما هو الحال بالنسبة إلى أي علاقة جسدية. كما أنهم مهووسون بمسألة المكان الذي سيذهبون إليه بعد موتهم، وأفضل طريقة للخلاص، أي الذهاب إلى الجنة للالتحاق بالههم المسمر (غير أنه كان عليه العودة إلى الأرض في تاريخ غير محدد، حتى أن تشالكو شيماك خشي أن يصادفه) وليس تحت الأرض حيث يتم حرق الموتى إلى الأبد، باستثناء مكان انتقالي يمكن للمرء الخروج منه في نهاية مدة زمنية، ولكن بالتأكيد ليس من خلال شراء إقامته بالفلورين، خلال حياته. كانت ثمة مسألة أخرى، اعتقد تشالكو شيماك أنه سمعها أيضاً، وتتعلق بما وصفوه بالأعمال الصالحة. هل ينبغي القيام بالعمل الصالح على أمل الخلاص، أم لا؟ ويعتقد البروتستانت اعتقاداً راسخاً أن الأمر لم يكن كذلك، وأن ظروف حياتهم بعد الموت كانت مستقلة تماماً عن سلوكهم خلال حياتهم. وكان يجب القيام بالأعمال الصالحة بإيثار، مقتدين فقط بالههم المسمر، وليس من خلال الرغبة في المكافأة. وأحجم تشالكو شيماك عن سؤال ملانكتون كيف يقرر الإله المسمر، في مثل هذه الحالة،

من ينقذ ومن يرسله ليحترق تحت الأرض. في الواقع، كانت المعتقدات المحلية موضع اهتمام القائد فقط إلى الحد الذي يمكنه من تحقيق مكاسب سياسية منها. ولم تثر اهتمامه الأسئلة التي أثاروها والمشكلات الأخلاقية التي نشأت عنها.

لم يكن العكس صحيحًا. فقد طرح ملانكتون أسئلة عديدة، وكان فضوليًا بشأن بلد زائره، وعاداتهم، وآلهتهم. وسأل إن كانوا في حالة حرب بعضهم مع بعض، وإذا كان لديهم عبيد، وإن كانوا قد سمعوا عن الإله المسمر، وإذا كانت الشمس تكافئ الصالحين أو تعاقب الأشرار. لقد أظهر قدرًا كبيرًا من الفضول حول موقع تاهوانتينسويو. وبدا كأنه يدرك، أفضل من الآخرين، أن الكيتونيين ليسوا هنودًا، وقد كان يُخلط بينهما دائمًا.

باختصار، بدا الرجل منفتحًا على الحوار والتفاوض. لكنه ألمح إلى أن لوثر لم يكن بهذه السهولة، وأن مزاج رئيس كهنة الإصلاح يمكن أن يكون حادًا جدًا، وحسب الجميع لم يتحسن هذا بمرور الوقت.

انتهت المحادثة بمواضيع هامشية. ومن بين أمور أخرى، قال الأموتا ذو اللحية الحمراء، بعد احتساء عديد من كؤوس الجعة: «إنَّ أوغسبورغ هي فلورنسا ألمانيا، وآل فوغر هم آل مديتشي عصرنا». ووجد تشالكو شيماك هذه الملاحظة العابرة مثيرة للاهتمام بدرجة كافية لإبلاغ سيده بها.

عُقد الاجتماع الأول في المبنى الكبير الذي أطلقوا عليه اسم Universität [ويعني الجامعة]، أمام جمهور من ألف شخص، في حضور ناخب ساكسونيا.

حين رأى أتاهاوالبا، الجالس على منصة بين هيغويناموتا وشالكو تشيماك، إلى لوثر، زعيم البروتستانت، الواقف أمامهم، بدا له أشبه بثور هائج. وكان لكلمات الكاهن وقعٌ مثل ضربات الفأس، وقد تولى ميلانكتون ترجمتها إلى الإسبانية. غير أنّ كلامه كان غير مترابط، وكان من الصعب متابعة خيط أفكاره. وأسهب في الحديث عن اليهود الذين اتهمهم بارتكاب جرائم فظيعة، وتمنى لهم أعظم الشرور. وعلى حد قوله فقد كانوا «ممثلين بروث الشيطان»، وكان من الخطأ عدم قتلهم. على أقل تقدير، كان لا بد من طردهم من ألمانيا مثل الكلاب المسعورة، وحرقت منازلهم.

ظلّ لوثر يتحدث في هذا الأمر زهاء الساعة دون توقف. واستمع إليه أتاهاوالبا في صمت، وهدوء كما هي الحال دائماً في مثل هذه الظروف (لكن والحق يقال، لم يسبق لهذا الظرف مثيل)، دون أن تفضي ملامحه أي شيء من عدم فهمه.

ثم انتقل «لوثر» للحديث عن مضييفيه، هؤلاء الزوار من وراء البحار.

لم يكن لديه أي شك، حسب قوله، أن أتاهاوالبا ورجاله قد أرسلهم الرب لمعاينة المذنبين وتطهير الكنيسة.

فالشمس التي يمجّدونها ليست سوى استعارة عن الرب، وربما كان أتاهاوالب نفسه المسيح المتجسد، أو على الأقل نبياً جديداً أو ملاكاً أُرسِل إلى الأرض.

ومع ذلك، كان لوثر نفسه مختاراً من الرب، ليحقق العدالة، ولم يستطع التزام الصمت، لا، لم يستطع. كان عليه أن يحذّر الإنكا: لم يكن من الجيد لهذه المرأة (وأشار بإصبعه إلى هيغويناموتا) أن تقف بجواره. وتوقف ملائكتون عن الترجمة، لكن الجميع فهم كلماته، حتى أولئك الذين لا يفهمون الألمانية.

كانت هيغويناموتا قد قررت ارتداء الثياب، حيث كان الجو أكثر برودة في تلك البلدان. لكن لا شك في أن لوثر قد سمع عن الأساطير التي كانت تدور حول الأميرة العارية الشهيرة. وبطبيعة الحال، كان يشك في أنها مبعوثة من الشيطان. ودفع هذا هيغويناموتا للضحك. ثم حدث ذلك المشهد الاستثنائي الذي خلّده الرسام كرانش في لوحة شهيرة، حيث تركت الأميرة التي وقفت فستانها ينزلق ليكشف جسدها أمام الجمهور المذهول. لكن، بينما كانت تقف أمامه بفخر واستفزاز، ترتسم على شفتيها ابتسامة متحدية، تثير صيحات الاستنكار والإعجاب مجتمعة لدى الجمهور، وحتى بعض الضحك، أشار لوثر بوقاحة، إلى جسد الكوبية العاري قائلاً: «للرجال أكتاف عريضة وأرداف ضيقة. ولهذا وُهبوا الذكاء. وللنساء أكتاف ضيقة وأرداف عريضة، حتى يتمكنَ من إنجاب الأطفال والبقاء في المنزل». وفضّ المجلس.

قالت له هيغوينا موتا: «اقتله».

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة.

كان القضاء على لوثر يعني أن ينجز نصيبه من الاتفاق مع فوغر، وبالتالي يضمن أن المصرفي سيوفر له مئات الآلاف من الفلورين اللازمة لشراء صوتي الناخبين البروتستانتين المتبقين. لكنه يعني أيضاً إغضاب هذين الناخبين بالذات، ومعهم جميع الأمراء المؤيدين للراهب المتمرد، والمنضوين تحت لواء الاتحاد الشمالكاليدي.

فضلاً عن أنه لم يكن يمتلك حينها القوة العسكرية للتغلب على هذا التحالف، فقد بقي كويزكويز في إسبانيا مع ثلث جيشه، من أجل درء أي هجوم مفاجئ من سليمان أو فرديناند، وترك وراءه الثلث الثاني لاحتلال بلجيكا وألمانيا الغربية.

لكنه عاجز كذلك عن ضمان انتخابه بالطرق السلمية، لأنه كان مشروطاً بموت لوثر وموافقته في آن واحد.

وبينما كان الإنكا مستغرقاً في التفكير، توافدت الحشود على ويتبرغ. وبدا أن الاجتماع بين لوثر والإنكا قد غدّى أملاً كبيراً لدى الناس في جميع أنحاء البلاد. بالطبع، لم ينسوا خيانة لوثر، في الماضي، حين تنكر لتوماس مونتزر وحثّ الأمراء على قتل الفلاحين المتمردين، لكن كان يدور في أذهانهم جميعاً البنود الاثنا عشر لفلاحي الألزاس: كانوا يأملون أن أتاهاوليا الإمبراطور سيمدد قوانينه الجديدة لتشمل كل ألمانيا. وتضخمت أعدادهم في ساحة السوق وفي شوارع البلدة الصغيرة.

في هذه الأثناء، عاد شالكو شيماك لشرب الجعة لدى ملانكتون لمحاولة إنقاذ اللقاء.

وأقنع الرجل الملتحي الضئيل صديقه لوثر بالاعتذار كشرط لمواصلة المناقشات.

كانت مكانة دين الشمس نقطة مهمة للمناقشة. ولأسباب سياسية واضحة، لا يمكن أن يكون هناك شك في اعتبارها هرطقة، أو كدين النبي محمد الذي لا يؤمن به. وشهدت انتصارات أتاهوالبا أن الرب كان إلى جانبه. في الحقيقة، كانت هزيمة ممالك الربيع الخامس بلا شك عقاباً من الرب حلّ بهم لفسادهم، وأثبت هذا مرة أخرى صحة الأطروحات اللوثرية. هو ذا السبب في أن لوثر، بحكمته، اعتبر أتاهوالبا مبعوثاً من الرب، وليس مبعوثاً من الشيطان، وبعد التفكير، وافق على أن يرى في دين الإنكا استعارة أو نسخة من الأناجيل أرسلت إلى عالم ما وراء البحار، تماماً كالعهد القديم الذي كان، وفقاً لأتباع الإله المسمر، مجموعة من القصص التي بشرت بالعهد الجديد وتنبأت به. «أشبهه بتباشير؟» سأل الجنرال.

فردّ مضيفه: «بل أشبهه بتفسير للموضوع ذاته».

ثمّ سأله تشالكو شيماك عمّ ينبغي لهم فعله حيال خطاب لوثر عن اليهود.

لوّح ملانكتون بيده كأنما يزيح هذا السؤال، وقال: «مع تقدمه في السن، أصبح هذا الموضوع هاجساً بالنسبة إليه. إنّه هوس لا ينبغي أن يتدخل في النقاشات. فقط دعه يتحدث».

تقرر عقد الجلسة التالية في كنيسة القلعة نفسها. وعاد تشالكو شيماك مطمئناً من زيارته، وكان متحمساً بعض الشيء، لكن يجب القول إنه شرب كثيراً. وأبلغ سيده بأمانة بالنصيحة التي قدمها له ميلانكتون: «دعه يتكلم، وافق على كل شيء قدر الإمكان، وستحظى باتفاقك».

57. كنيسة القلعة

تقول الشائعات أن الأموتا العظيم إيراسموس قد قطع الرحلة بنفسه، رغم أن خبر وفاته في بازل - حيث لجأ قبل مدة هرباً من الاضطهاد الديني - كان معروفاً منذ عدة مواسم حصاد. وكان هذا كافياً للتويه للأهمية التاريخية المعلقة على هذا اللقاء بين أعظم مصليين في هذا القرن. ولكن لا يمكن لأحد التنبؤ بما ستكون عليه النتيجة، وفي جميع أنحاء ألمانيا والربع الخامس، وصولاً إلى روما، حبس العالم أنفاسه.

في غضون ذلك، تصاعدت الاضطرابات في المدينة. ووُزعت الكتيبات والصحائف المطبوعة. وانتقلت البنود الاثنا عشر من يد إلى يد، مزينة بنقوش وصور لأتاهوالبا ومونتزر ويوهان الصغير. وملأت رسومات الأحذية ذات الأربطة الجدران. ووصفت الكتيبات لوثر بـ «لحم فيتبرغ الطري». واستمرت حشود الفلاحين في التوافد، وهم الآن يخيمون عند أبواب المدينة، حتى أن الناخب جان فريديريش قد أرسل في طلب كتائب تعزيزية من المرتزقة لمنع أي تدفق. واختلطت رايات قوس قزح برايات ساكسونيا.

لكن في كنيسة القلعة، أظهر الجميع نياتهم الحسنة. فاعتذر لوثر علناً من هيغويناموتا. وقال إنه يمكن التسامح مع دين الشمس باعتباره استعارة للأناجيل. صحيح أنه لعن بشدة الطائفيين والمتعصبين الذين أرادوا في الخارج تقويض أمر الرب، وطالب جميع المشاركين بإدانة شديدة لهذه الدعوات إلى العنف. ومع ذلك، فقد لمّح إلى البنود الاثني عشر دون أن يسميها. وكان على استعداد للاعتراف بشرعية بعض الادعاءات. («أخيراً»، فكّر البعض. وفكّر آخرون: «اعتراف متأخر»)، وطلب من الأمراء أن يراجعوا ضمائرهم، وأن يقدموا ما في وسعهم. وقلل من شتمه اليهود.

من جانبه، وافق أتاهاوالبا على عكس الأدوار: فاتخذ لنفسه مكاناً في الصف الأمامي من المؤمنين، على مقعد خشبي، إلى جانب هيغويناموتا التي قبلت بلباقة اعتذار لوثر، فيما سمحوا للراهب باعتلاء المنبر، أي إنه خاطبهم من مكان أعلى، الأمر الذي لم يكن أتاهاوالبا أبداً ليقبل به في ظل ظروف عادية، وقال للناخب ضاحكاً إن الإمبراطورية كانت تستحق حقاً القداس. وتبادل تشالكو شيماك وميلانكتون نظرات قلقة عندما استأنف لوثر صبّ غضبه على اليهود، ولكن في سياق خطابه كانت هذه مجرد ترسبات في القاع غير ذات أهمية.

ما يهم هو أن مبدأ الاتفاق القائم على مرسوم إشبيلية بدا مؤكداً. وفي نهاية اللقاء، هنأ بعضهم بعضاً. وراح الناخبان يوهان فريدريتش من ساكسونيا ويواكيم الثاني هيكتور من براندنبورغ يتفاوضان على ثمن تصويتهما مع أتاهاوالبا. (لقد أرادوا مئة ألف

فلورين، ولم يكن في حوزة الإنكا مثل هذا المبلغ، لسبب وجيه). وكان ميلانكتون وتشالكو شيماك يتجاذبان أطراف الحديث على جنب. وبدا من المعقول، في هذه الأثناء، أن نأمل في إمكانية صياغة النص وتوقيعه بسرعة.

ونحن نعلم اليوم أن الأمر لم يكن كذلك.

58. أبواب الكنيسة

في صباح اليوم الخامس، كانت الغريان تحلق فوق البرج. وعند مدخل المعبد، حيث كان من المقرر أن يجتمع الطرفان مرة أخرى للتوصل إلى الاتفاق النهائي، اجتمع حشد من الناس، وراح الفضوليون منهم يتزاحمون، ذلك أنه للمرة الثانية، خلال خمسة وعشرين موسم حصاد، يُعلّق نص على الأبواب الخشبية. وأخذوا يقرؤونه بصوت عالٍ لينقلوه إلى من في الخلف، إلى أن انتشر صدى التردد في جميع أنحاء المدينة. (كان النص باللغة الألمانية).

ثمّ ظهر الرجل، تسبقه الهمهمات، وفسح له الجميع الطريق. كان راهباً عظيم البطن يرتدي ثياباً سوداء، وعلى رأسه قبعة سوداء. وكانت ملامح وجهه، الممتلئ قليلاً، صارمة لكنها مرهقة. لم تكن نظرته ثابتة كما كانت عليه من قبل، وكانت خطواته أقل حيوية. ومع ذلك، كان لا يزال رجلاً مهيباً، ففي حضوره شعر الجميع بالضآلة.

مع تزايد الضجة، اقترب من الأبواب التي اعتبرها لمدة

طويلة ملكه، وله ما يبهر هذا. وشاهد جميع الحشد وجه الراهب يتحول إلى اللون القرمزي.

59. أطروحات الشمس الخمس والتسعون⁽¹⁾

1. الشمس ليست رمزاً للإله الخالق.
2. إنها الإله الخالق ومصدر الحياة كلها.
3. فيراكوتشا هو والدها أو ابنها ووالد القمر أو ابنه.
4. الإنكا هو ممثل الشمس على الأرض.
5. ينحدر الإنكا من الأب المؤسس مانكو كاباك، وشقيقته ماما أوكلو، وكلاهما من أبناء الشمس.
6. ينتمي الإنكا إلى هذا النسل، ولهذا يعدّ ابن الشمس.
7. ينتمي الإنكا إلى الفرع الأصغر من عائلة الشمس، لأن مانكو كاباك كان الأخ الأصغر أو حفيد فيراكوتشا.
8. وبالتالي، فإن سلطة البابا، ممثل الديانة القديمة، لا يمكن أن تسري على الإنكا، ولا على أتباعه ولا على أنصار دين الشمس.
9. يعدّ عام 1531 من العصر القديم هو العام الأول من العصر الجديد، إذ يمثل مجيء الإنكا عبر بحر المحيط.

(1) محاكاة لأطروحات لوثر الخمس والتسعين التي كتبها حول الحال التي توصلت إليها الكنيسة، وعلقها على باب كاتدرائية وتبرغ في 31 أكتوبر 1517م، وكانت السبب وراء تأسيس حركة الإصلاح البروتستانتية وفيما بعد الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية ذاتها.

(هذه الأطروحات المتخيلة كان من الصعب حذفها لأنها متعلقة بسياق الكتاب، ونحن -المسلمين- لا نؤمن بها). الناشر.

10. اهتزت الأرض وفتحت لشبونة بابًا لابن الشمس لن يتمكن أحد هنا من غلقه.
11. إنّ الثالوث الأقدس الذي تخيله ترتليان في بداية العصر القديم هو الصورة المجازية غير المكتملة للشمس والقمر والرعد.
12. هذه الصورة غير مكتملة لأنّ مريم العذراء هي التي كان ينبغي أن تأخذ مكانًا في هذا الثالوث، كرمز للقمر وليس الروح القدس. أو، إذا أردنا إضافة الرعد إلى الآلهة الثلاثة الرئيسية، فسيتمكن علينا التحدث عن ربوع مقدّس.
13. صحيح أنّ إله الرعد يستطيع أن يضرب الأرض بمطرقته، لكنّ قوته أبعد ما تكون عن قوة الشمس التي يدين لها بالولاء.
14. لم تعد العائلة المقدسة مقبولة كقصة رمزية لإله الشمس الحقيقي، والقمر وابنتهما-الأب فيراكوتشا. فيوسف في الديانة القديمة لا يُعدّ إلهًا، بل مجرد رجل، وهو أب يسوع -المسيح الكاذب- بالتبني.
15. إنّ الولادة العذرية للمسيح الكاذب، يسوع، هي حكاية اخترعت بلا شك لتبرير حمل مريم المبكر، لأنّ يوسف، زوجها، كان شيخًا عاجزًا.
16. لقد قامت الشمس بالفعل بتخصيب القمر لتوليد فيراكوتشا وشقيقه مانكو كاباك والأرض باتشاماما.
17. أولئك الذين يدّعون أنّ القمر هو تمثيل رمزي لمريم وليس العكس، عليهم ألاّ يتمادوا في هذا الخطأ، لأنّه لو كان الأمر كذلك، لما سمح إله المسيحيين بمجيء الإنكا وانتصاره، بل

على العكس من ذلك، يمكننا أن نرى أنّ أتاهوالبا قد غزا هذا الجزء من العالم بمباركة إله الشمس وإلهة القمر، وأسلافه، وأننا كنا مخطئين فيما يخص أصنامنا الزائفة ومسيحنا الكاذب.

18. القدس الحقيقية لم تعد في القدس ولكن في كوزكو، وراء بحر المحيط، حيث توجد سرّة العالم.

19. لا يمكن للبابا وممثليه أن يطالبوا بالمال مقابل افتداء الخطايا لأنهم لا يملكون السلطة لفعل ذلك.

20. يسدّد المحتضرون كل ديونهم بموتهم.

21. لذا فإنّ دعاة الغفران، الذين يقولون إنّ صكوك الغفران تحرر الإنسان من كل ألم وتخلصه، هم مخطؤون.

22. يجب أن يتعلم المسيحيون أنّ العطاء للفقراء أو إقراض المحتاجين أفضل من شراء الغفران.

23. يجب أن يتعلم المسيحيون أن من يرى فقيراً، ولا يلتفت إليه، ويهب ماله لشراء صكوك الغفران، فإنه لن ينال غفران البابا، بل سيحل به غضب فيراكوتشا.

24. يجب أن يتعلم المسيحيون أنّه إذا كان في حوزتهم فائض من المؤن، فهم ملزمون بالحفاظ على ما هو ضروري في المنزل وعدم إهدار ما تبقى على صكوك الغفران.

25. سيحاسب كل الأساقفة والكهنة واللاهوتيون الذين يشيعون مثل هذه الكلمات بين الناس.

26. عندما يُسأل المسيحيون عن السبب الذي طرد لأجله إلههم الرجل الأول والمرأة الأولى من الجنة، فإنهم يهذرون، وحين

يرون أن حججهم واهية، يخترعون الرموز بناءً على حكاية الأفعى المغرية والتفاحة المحرمة والمرأة الفاسدة.

27. عندما يُسأل كبار المسيحيين الذين يأكلون جسد إلههم ويشربون دمه كيف يمكنهم الانغماس في هذه الممارسة البربرية والإتيان بفعل أكلة لحوم البشر، فإنهم يدهشون ولا يعرفون بما يجيبون، باستثناء بعض اللوثريين الذين يعترفون بأن الرب يتجلى فقط كرمز في هذه الطقوس.

28. أمّا أتباع لوثر الذين يعتقدون أنّ خلاص بعض البشر قد تقرر مسبقاً، تماماً مثل هلاك بعضهم الآخر، فيما حُكم على البقية أن يهيموا بعد الموت في مكان يسبق الجحيم، بصرف النظر عن أعمالهم أو سلوكهم، فلا بدّ لهم من أن يتعجبوا من قسوة واستبداد هذا الإله الذي ينقذ أناساً دون آخرين، حسب رغبته، تماماً مثل إله اليهود الذين يسارع لوثر وأتباعه، رغم ذلك، إلى ذمه.

29. ومع ذلك، فإن لوثر محق في نقطة واحدة، حين أكد أنه إذا ما اعتقدت امرأة عذراء أنّها متفوقة على الآخرين، أو حتى متساوية معهم، فإنها «عذراء الشيطان» (حتى ولو كان الشيطان مجرد ثمرة خرافة مسيحية)، ومعنى ذلك أنه لا قيمة للعذرية في حد ذاتها ولا ينبغي طلبها كشرط مسبق للزواج.

30. لماذا من المهم جداً لأتباع الإله المسمّر أن يُعترف بإلههم دون غيره من الآلهة؟ هذا لغز لا يمكننا تفسيره.

31. يمكن للإله المسمّر، مع ذلك، أن يكون قدوة مثل موسى أو غيره من القديسين. لكن حياته تبقى ملكه ولا تخلص الرجال،

مسيحيين أو غيرهم، بأي شكل من الأشكال.

32. لا تطالب الشمس بموت آلهة أخرى. فهي لا تحتاج إليها لتحافظ على أسبقيتها وسلطانها، فلا أحد منهم يستطيع بلوغها.

33. الشمس لا تغار، ولا تختار شعبها، ولا تتقذ أقلية من البشر لتترك الآخرين في الظلام، إنها تلقي بنورها الرحيم على جميع البشر على وجه الأرض.

34. وبالمثل، يمتد لطف الإنكا، ابن الشمس، الرحيم على جميع البشر على وجه الأرض، دون استثناء.

35. كثيرون هم أولئك الذين يعلّمون الناس عن المسيح فقط لإثارة مشاعرهم، وجعلهم يحبون المسيح، ويكرهون اليهود، وغيرها من الخرافات الصبائية المخنثة.

36. وبالمثل، من الطفولي الاعتقاد بأن والد الإله المسمر خلق العالم وبعد ذلك، في يوم من الأيام، أرسل ابنه لإنقاذ الناس. أين كان هذا الإله خلال حرب طروادة؟ هل كان نائمًا؟ لماذا ترك اليونانيين جاهلين بوجوده؟

37. لماذا لم يخبر الحكماء من أمثال أفلاطون وأرسطو بوجوده؟ لماذا انتظر طويلاً؟ ألم يكن ثمة مذنبون يستحقون الخلاص؟

38. في الحقيقة، تتوالى العصور، يتبع بعضها بعضاً، مثلما يتبع الهلاك الخلق، ومثلما يتبع الخلق الهلاك.

39. كان العصر الأول عصر الرجال الأوائل الذين كانوا يرتدون ثياباً من أوراق الشجر.

40. كان العصر الثاني عصر الجنس البشري الثاني الذي عاش

في سلام. وقد وضع الفيضان حدًا لهذا الجنس.

41. كان العصر الثالث عصر رجال متوحشين يوقرون باتشاكاماك. وكانوا في حرب دائمة. وفي هذه الحقبة، حدث أن جاءت لهم ابنة الرعد بالحديد.

42. كان العصر الرابع عصر المحاربين، وحينها انقسم العالم إلى أربعة أرباع.

43. كان العصر الخامس عصر الشمس. ويتزامن مع حكم الإنكا على الأرض. واتسع العالم إلى الربع الخامس الذي هو رُبْعنا هذا.

44. بقدر ما كان الدين القديم قاسيًا بظلمه وعقوباته التعسفية وقراراته الجائرة، فإن دين الشمس عادل وصالح ومتوازن.

45. بعد كل شيء، أي أب يضحي بابنه يستحق هذا الاسم؟

46. لم تُمنح الإرادة الحرة للبشر، إن لم تكن لتمكينهم من فعل الشر؟

47. لم يخلق المذنبين فقط ليعاقبهم بعد ذلك؟

48. لا يعرف الأطفال الإله المسمّر إلى أن يخبرهم المسيحي بقصته، في حين يواجهون الشمس منذ الأيام الأولى من ولادتهم. ولذلك لا يحتاج عبدة الشمس إلى التعميد، لا الأطفال منهم ولا الكبار.

49. كان بولس قلقًا من أن يجهل بعض البشر وجود إله المسمّر: «وكيف سيؤمنون به ما لم يسمعوا به؟» لا تحتاج الشمس إلى الوعاظ لأنها تسطع في السماء، وفي كل مساء تغرب في البحر، وفي كل صباح تشرق من فوق الجبال.

50. يقول بولس مرة أخرى: «الإيمان يأتي ممّا يسمعه المرء». لكن الإيمان بالشمس لا يُعلّم. يكفي فقط أن ترفع رأسك.
51. غير أن بولس كان ينذر بالحق عندما قال: «قَدْ تَنَاهَى اللَّيْلُ وَتَقَارَبَ النَّهَارُ، فَلَنَخْلَعُ أَعْمَالِ الظُّلْمَةِ وَنَلْبَسُ أَسْلِحَةَ النُّورِ». (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، 13: 12).
52. «وَمَنْ هُوَ ضَعِيفٌ فِي الْإِيمَانِ فَاقْبَلُوهُ، لَا لِمُحَاكَمَةِ الْأَفْكَارِ». (إلى أهل رومية 14: 1).
53. «وَاحِدٌ يُؤْمِنُ أَنْ يَأْكُلَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَمَّا الضَّعِيفُ فَيَأْكُلُ بَقُولًا». (إلى أهل رومية 14: 2).
54. «لَا يَزِدِّرْ مَنْ يَأْكُلُ بِمَنْ لَا يَأْكُلُ، وَلَا يَدِنُ مَنْ لَا يَأْكُلُ مَنْ يَأْكُلُ، لِأَنَّ اللَّهَ قَبْلُهُ». (إلى أهل رومية 14: 3).
55. لأنّ مملكة فيراكوشا ليست أكلاً وشرياً، بل هي برّ وسلام تمنحه الشمس، كما ورد في رسالة أهل رومية (14: 17).
56. فليرحل إذن هؤلاء الأنبياء الذين يقولون لشعب الإله المسمّر: «الموت للمسيح الكاذب!» حين يقصدون بالمسيح الكاذب كل شخص سواهم.
57. تدعم الشمس حقوق الفقراء.
58. لقد ولدت الشمس الأرض ليذوق الجميع ملحها.
59. لا الشمس ولا الأرض تطلب العشور من أي شخص، كبيراً كان أو صغير.
60. لا يمكن شراء الأراضي أو تأجيرها أو إقراضها بفائدة.
61. لا ينبغي احتكار الأراضي. وستُقسم وفقاً للاحتياجات الفردية.
62. المياه هي جزء من الأرض وهي مجانية.

63. السمك في النهر.
64. الطرائد في الغابة.
65. الغابات ملك للأرض التي هي ملك للشمس.
66. الشمس لا تعرف العبيد. إنّها تعرف البشر فقط.
67. الإنكا هو سليل الشمس على الأرض، لكن الشمس تعدّنا جميعاً أبناءها.
68. تحت الشمس، لا يقتل قابيل هابيل.
69. إن حدث مثل هذا الفعل، فسيحاكم قابيل البشر وإخوته الآخرين.
70. لا ينبغي أن يدفع الأحياء ثمن موتاهم، ولا موتى غيرهم.
71. إنهم منافقون، أولئك الأمراء الذين يتخذون زوجات ثانويات ويسمونهم المحظيات.
72. البابا ليس أقل نفاقاً، فهو يمنح الأوغاد أفضل المناصب.
73. الأرض تدور حول والدها الشمس.
74. الشمس تقع في مركز الكون، كما هو معروف.
75. ربنا يسوع المسيح هو ابن الشمس التي خلقت البشر.
76. وهو الأخ الأصغر لفيراكوشا أو حفيده.
77. ربنا يسوع المسيح هو للربع الخامس بمثابة مانكو كاباك لمملكة الأرباع الأربعة.
78. مع ذلك، بين يسوع المسيح ومانكو كاباك، تأتي الأسبقية للثاني، لأنّ أبناء مانكو كاباك جاؤوا إلى بلادنا لتحقيق البشارة التي أعلنها ربنا يسوع المسيح، وليس العكس.
79. لم يشأ الرب أن نذهب ونعلّم البشارة لمملكة ما وراء البحار.

80. لا يمثل البابا أحداً سوى نفسه، فهو ليس ابن القديس بطرس.
81. كان لوثر على حق حين أدان بخل البابا وجشعه.
82. كان لوثر على خطأ حين أدان الفلاحين الذين طالبوا بمزيد من العدالة.
83. كان لوثر على حق حين أدان كسل الأمراء وفسادهم.
84. كان لوثر على خطأ حين أدان خبث الشعب المزعوم.
85. كان لوثر على حق حين رأى في قلعة سانت أنجيلو مقر العاهرة البابلية.
86. كان لوثر على حق حين رأى «المسيح الكاذب» متجسداً في شخص البابا، لكنه كان على خطأ حين رأى «المسيح الكاذب» في شخص توماس مونتزر، الذي كان ذنبه الوحيد هو الرغبة في خير الفقراء.
87. لوثر هو نبي آخر الزمان.
88. لكن لوثر لم يرَ مجيء العصر الجديد.
89. يجسد الإنكا القانون الجديد والروح الجديد.
90. الأمراء ليسوا ممثلي الشمس على الأرض.
91. الإنكا هو الممثل الشرعي الوحيد للشمس.
92. الأمراء هم كوراكا الإنكا، أي إنهم يمثلونه في غيابه.
93. يستمد الأمراء سلطتهم من الإنكا.
94. قوانين الإنكا هي قوانين الإمبراطورية.
95. الرب هو الاسم الآخر للشمس.

لم يعرف أحد من هو مؤلف النص، على الرغم من الاشتباه في وجود عدد كبير من الأشخاص، بمن فيهم كريستوف شابيلر، واعظ شفابن، وأولريش شميد، مؤلف البنود الاثني عشر، الذي يُقال إنّه لا يزال على قيد الحياة، والأخوين هانز سيبالد وبارثيل بيهام، وهما رسامان كانا قد اتهما بالإلحاد، وبيلغرام مارييك القائل بتجديد العماد، وأصحاب المطابع، وطلاب بعضهم من تلاميذ لوثر، وحتى ملانكتون نفسه. هل كان أتاهاوالبا الراعي؟ حتى اليوم، لا يوجد دليل قادر على إثبات ذلك.

بطبيعة الحال، كان «لوثر» غاضبًا. فقد عُدَّ هذا البيان -على الأقل في جزء منه- بما لا شك فيه: هجومًا على شخصه. ومن جانبه، لم تعد مسألة عقد اتفاقٍ مطروحة. ورعد صوته في جميع أنحاء الجامعة، حيث لجأ. لقد كانت فضيحة مدوية.

لكن الأمر لم يكن متعلقًا بهذا فقط. وقد أدرك يوهان فريدريش ذلك جيدًا، فأعلن على الفور حظر التجول، وأرسل مرتزقة للقيام بدوريات في المدينة.

لكنّه كان جهدًا مُهدرًا. فقد اندلعت أعمال الشغب الأولى في اليوم التالي للإعلان. واصطدمت قوات الناحب بالمشاغبيين. وأضرمت النيران في المنازل. وتناثرت الجثث في الشوارع. وباءت بالفشل كل نداءات أبرز الأساتذة للتهدئة. وانقسم الطلاب أنفسهم إلى معسكرين. واندلع حريق في الجامعة امتدَّ إلى منزل لوثر المجاور لها. وأراد لوثر أن يلجأ إلى ملانكتون، لكن قيل إنّه وجد الباب مغلقًا.

خلال هذه الأحداث، كان أتاهاوالبا حريصًا على عدم التدخل. وأمر جيشه، الذي بقي خارج المدينة، بعدم التحرك تحت أي ظرف من الظروف. وظل أصمّ أمام مناشدات الناحب للمساعدة. ولم يغادر رجال حرسه الشخصي القلعة التي تمركزوا فيها. حاول لوثر الفرار مختبئًا في عربة، تحت كومة من القش، لكن ألقت القبض عليه مجموعة من الفلاحين كانوا يرفعون راية باندشن، التي تحمل الحذاء ذا الأربطة. وتعرض للضرب والتعذيب واقتلعت عيناه، ومُزّق وقُطعت أوصاله وأحرق.

لكن موته لم يكن كافيًا لتهدئة غضب الفلاحين. فقد اشتعلت النيران في دوقية ساكسونيا وألمانيا كلها.

تفاوض يوهان فردريش ويواكيم هيكتور من براندنبورغ والآخرون على السلام الأهلي مع أتاهاوالبا، الوحيد الذي كان قادرًا على تحقيقه. وبدلاً من لوثر، صادق ملانكتون، على معاهدة فيتبرغ، التي منحت الحرية الدينية وفق مبدأ تفاوضوا عليه كما ينبغي: لكل منطقة دينها. بعبارة أخرى، يحكم كل أمير رعاياه بعيداً عن وصاية روما. ولم يكن هذا المرسوم متحرراً بقدر مرسوم إشبيلية، لكن لم يكن هذا هو المهم. فقد خضع الأمراء لجميع البنود الاثني عشر تقريباً، بعد أن انتزعوا الوعد بالاحتفاظ ببعض الامتيازات. ولم يفت يوهان فردريش ويواكيم هيكتور، اللذين تخليا نتيجة لذلك عن معظم سيادتهما للإنكا، طلب تعويض مالي في المقابل. ومع موت لوثر، تدفق المال من أوغسبورغ، كما وعد فوغر، ودفع أتاهاوالبا مئة ألف فلورين لكل

منهما. ففي وطنه، لم يتعلم أتاهاوالبا كبح سخائه، لا سيما حين تكون الاعتبارات السياسية على المحك. وقد دفع المال دون مساومة، لأنَّ سخاءه كان جزءاً من استراتيجيته. لقد كان سخاؤه يسير جنباً إلى جنب مع كرامته الإمبراطورية، هنا أو هناك.

61. التتويج

«سيدي، بما أن الرب قد أنعم عليك بهذه النعمة العظمى برفعك، فوق كل ملوك وأمراء العالم المسيحي، إلى منزلة لم يبلغها حتى الآن سوى سلفك شارلكان، وقبله فقط شارلمان، فإنك في الطريق إلى ملكية عالمية تسمح لك بتوحيد كل... العالم المسيحي تحت مظلة واحدة».

بهذه الكلمات، استقبل رئيس أساقفة ماينز ألبرت براندنبورغ (عم يواكيم هيكتور، الذي كان هو نفسه مارغريف وناخب براندنبورغ) أتاهاوالبا في معبد آخن، تحت ثريا ضخمة من النحاس المطلي بالذهب، عند أقدام تمثالي القديس بولس مع صليبه والقديس بطرس مع مفتاحه (وهما صنمان شهيران في هذه البلدان)، ليمنحه رسمياً سمات الشرف الإمبراطوري.

استمع أتاهاوالبا، دون أن تطرف عينه، إلى خطاب هذا الكاهن البدين ذي الشفاء الأنثوية والجسد اللين والعينين المهددتين، وهو يقدمه كمخلص للإيمان الكاثوليكي. الأمر الذي بدا، بصراحة، نوعاً من المبالغة: إذ لم يقتصر الأمر على احتلال الإنكا لمعظم الربع الخامس، تاركاً فرنسا وإنجلترا والبرتغال فقط خارج نطاق

طموحاته الإقليمية، ولكنه حرم فرديناند من إمبراطوريته، وأعاد الملك الكاثوليكي إلى مَعْقِلِه بالنمسا، وتركه ليواجه سليمان وحده وبلا دعم.

منذ ذلك الحين، انتشرت معابد الشمس في كامل أرجاء العالم الجديد، حتى أن الأمراء الألمان، الكاثوليك واللوثريين على حدٍ سواء، بدؤوا باعتناقه. وكان ناخب براندنبورغ واحداً منهم.

لذلك بدا من الصعب دعم فكرة أن أتاهاوبا قد عمل من أجل مجد يسوع المسيح، إلههم المحلي.

علاوة على ذلك، أعلن رئيس كهنة روما أنه سيُنزل على الإنكا الحرمان الكنسي إذا أخذ هذا الأخير مكان فرديناند، الوريث الشرعي لأخيه. (كان الحرمان نوعاً من الإبعاد الرمزي عن المجتمع الكاثوليكي، كان الملوك يتجاهلونهم في الواقع).

لم يكن الأمر مهماً لرئيس الأساقفة، الذي كان أحد الممثلين الرئيسيين في كوميديا صكوك الغفران، كما كان من بين أشد معارضي لوثر شراسة، وقد باع صوته بثمن باهظ في أثناء انتخاب شارلكان (قال مبعوث ملك إسبانيا في ذلك الوقت: «إنني أشعر بالخجل من فعلته»). وقد أظهرت حياته السياسية بكاملها أنه لم تكن لتقف في وجه طموحاته وعود قطعها، أو ضمير يُؤنبه، ومع ذلك، فإنّ احتلال جيش الإنكا العسكري لراينلاند قد حرم الكاهن من أي بديل، وبالتالي، من أي تأنيب ضمير. وكان استسلامه للحاكم الجديد لألمانيا أمراً مفروضاً منه، وعلى عكس شارلكان، لم يكن أتاهاوبا مضطراً إلى أن يدفع له شيئاً: ففي بعض الأحيان كان الذهب يحل محل الحديد؛ وفي أحيان أخرى

كان العكس. في حفل تتويج الإنكا، كان الكاهن يرتدي أجمل رداء أحمر لديه، وكانت أصابعه مثقلة بالخواتم المرصعة بأحجار ثمينة متعددة الألوان.

جاء الناجبون الآخرون - باستثناء فرديناند - لتحية إمبراطورهم الجديد. وشعر الجميع بشعور الإحباط نفسه لأنهم اضطروا إلى التخلي عن بعض امتيازاتهم، لكن هذا الإحباط امتزج بالراحة لأنهم قد تجنبوا الأسوأ. كان لوثر ميتاً وكان يتغفن في الجحيم مع دوق لورين وشقيقه دوق جوي، فيما هم على قيد الحياة.

وحضر ملانكتون الحفل في آخن: وهذا في حد ذاته كاف ليخبر عن العمل الاستثنائي الذي أنجزه ذلك المغامر من كيتو لتحقيق التوحيد، إن لم يكن المصالحة.

لمدة طويلة، لم تكن الإمبراطورية المقدسة أكثر من مجرد مجموعة من الدويلات التي عُهد بمسؤوليتها الرمزية إلى أكبر عائلة ألمانية في ذلك الوقت. لكن ذلك الزمن ولّى: فأتاهوالب لم يكن أميراً ألمانياً ولا فكرةً مجردة. لقد كان المصلح وحامي الفقراء، وهذه الألقاب التي منحه إيّاها الشعب لم تكن رمزية، فقد استحقها عن جدارة. وبينما كان يتلقى التاج والصولجان وكرة شارلمان الأرضية من يدي الكاهن الصفيق المترهل، بدأت قوانينه تُطبق في معظم أرجاء الإمبراطورية، بل وما خلف حدودها، في أجزاء من شرق فرنسا وشمال سويسرا، حيث اضطرت السلطات المحلية إلى أن تطبق إصلاحاته لتجنب مزيد من الانتفاضات.

أرسل ملك فرنسا أخته مارغريت لتمثيله إلى جانب صهره مانكو.

وكان ملك البرتغال قد فوض شقيقه الصغير، لويس، دوق باجة، الذي شارك، مثل فرانسوا، في الحملة على ساحل البربر. كانت الزوجة الثانية لملك إنجلترا، آن بولين، هي من تنقلت (لأنّ الزوجة الأولى كانت عمة شارلكان، ولم يكن من المناسب أن تأتي لتحياي خليفته، نظراً للأحداث التي أدت إلى موته). ووفد الوزير حسن الوزان من الجزائر.

جاء لورنزينو مع كيسبي سيسا، مرتدية أزياء إيطالية، وكان جمال الفتاة الشابة يثير الإعجاب حيثما مرت. فيما كان أتاهاوالبا جالساً على عرش شارلمان الحجري، أمام هذا الجمهور المرموق، وصدى المزامير العملاقة يتردد من جدران الكنيسة التي يبلغ عمرها ثمانمئة عام، لا بدّ أنه كان يفكر في أخيه هواسكار. وقد تساوى الآن في حكمه معه، وبلغ منزلة لم يجروء أي من أسلافه، بمن فيهم باتشاكوتيك العظيم، على أن يحلم بها.

62. قوانين لإمبراطورية العشر

نص القانون الأول والأهم على أنّه لا يتعيّن على أي شخص معفى دفع الجزية في أي وقت ولأي سبب من الأسباب. ويشمل الإعفاء قوم الإنكا من الدم الملكي، والنقباء ومساعدوهم، حتى قادة المئة وأبناءهم وأحفادهم، وجميع الكوراكا وأقاربهم. ولا يدفع الضباط الملكيون العاملون في مهام صغيرة الجزية خلال مدة توليهم المنصب، ولا الجنود الذين أسروا في الحروب

والفتوحات، ولا الشباب دون سن الخامسة والعشرين، لأنهم حتى ذلك السن مطالبون بخدمة آبائهم. كما يستثنى منها الكبار فوق سن الخمسين وجميع النساء والفتيات، سواء أكن عازبات أم أرامل أم متزوجات، والمرضى إلى أن يتعافوا؛ والعاجز مثل الأعمى والأعرج والأكتع والقعيد، رغم أن الصم والبكم يمكن أن يعملوا في وظائف لا حاجة فيها إلى أن يتكلموا أو يسمعوا.

ونص القانون الثاني على أن يلتزم هذه الجزية جميع المشرقيين الآخرين الذين لا ينضوون تحت الذين ذكرناهم للتو، باستثناء الكهنة وخدمة معابد الشمس أو العذارى المحظيات. أما القانون الثالث، فينص على أنه بغض النظر عن السياق، لا يتعين على المشرقي أن يدفع من ممتلكاته أي شيء بدل الجزية، ولكن عليه أن يؤديها من خلال عمله أو من خلال أداء واجبه أو الوقت الذي يقضيه في خدمة الملك أو دولته.

وحسب القانون الرابع، لا يمكنك إجبار أي شخص على العمل في مهنة ليست مهنته، باستثناء الحرث والجيش، وهو أمر مطلوب من الجميع.

وفقًا للقانون الخامس، على كل رجل أن يدفع الجزية بما يمكن أن توفره مقاطعته، دون الذهاب إلى الأراضي الأخرى بحثًا عما ليس لديه في منطقته، لأن الإنكا يرى أنه من المهين جدًا أن يطالب أي شخص بتقديم ما لا تقدمه أرضه.

ونص القانون السادس على أن يتم تزويد جميع العمال العاملين في خدمة الإنكا أو الكوراك الخاصين به بكل الأشياء التي يحتاجون إليها لممارسة مهنتهم، أي أن يُعطى الصائغ ذهبًا

أو فضة أو نحاسًا ليصنعه، وللحائك الصوف أو القطن، وللرسام الألوان وهلم جرا. ويتم الأمر بطريقة تجعل العامل يقدم عمله فقط، خلال الوقت الذي يلزمه لذلك، أي خلال شهرين أو ثلاثة أشهر على الأكثر. وما إن تنتهي هذه المدة، لن يكون مضطرًا إلى العمل أكثر.

ونص القانون السابع على أن يتم تزويد جميع العمال بكل ما يحتاجون إليه من طعام وملبس، والعلاجات والأدوية إذا مرضوا. أمّا القانون الثامن فيتعلق بجمع الجزية. يُحدّد وقت يتجمع فيه، في عاصمة كل مقاطعة، الجُباة ومراجعو الحسابات أو الكتبة لحساب الجزية على حبالهم المعقودة. وتوضح العُقد العمل الذي قدمه كل واحد من المشرقيين، والوظائف التي شغلها، والرحلات التي قام بها بأمر من الأمير أو رؤسائه، وأي نشاط آخر قام به. ويخصم كل هذا من الجزية التي عليه أن يدفعها. كما توضح كل ما هو موجود في مخازن كل مدينة.

وينص القانون التاسع على أن كل ما تبقى من هذه الجزية، بعد استيفاء نفقات الملك، سيُخصص للصالح العام لرعاياه ويحفظ في المخازن العامة لأوقات الندرة.

يشمل القانون العاشر إعلانًا حول المهن التي يجب أن يكرس المشرقيون أنفسهم لها، سواء لخدمة ملكهم أم لصالح مدّهم ودولهم. وتُفرض عليهم هذه الأعمال كشكل من أشكال جزية، وعليهم أن يؤدوها جماعياً في تناغم، على غرار تمهيد الممرات ورصف الشوارع، وإعادة بناء معابد الشمس والأضرحة الأخرى لعبادة الأصنام أو إصلاحها، وتوفير كل ما يتعلق بها. ويُجبرون

على تشييد المباني العامة، كالمخازن والمساكن للقضاة والولاة، وإصلاح الجسور، والعمل ساعة أو شاسكياً؛ وحرث الأرض، وعصر الثمار، ورعي الغنم، وحراسة العقارات، والمحاصيل، والممتلكات العامة الأخرى، وإقامة نزل لإيواء المسافرين، والوقوف شخصياً على تزويدهم من ممتلكات الملك بكل ما يحتاجون إليه.

63. عصر البطاطا

وهكذا استتب الأمن في الربع الخامس وعمّ الرخاء كما لم يسبق من قبل. وعلى الرغم من أن هذا لم يدم، فمن الجيد أن نتذكره ك لحظة سعيدة في تاريخ العالم الجديد. أضف إلى ذلك، من يدري إلى متى كان يمكن لهذا الانسجام أن يستمر، لو لم تنشأ ظروف استثنائية لوضع حد له.

عمد أتاهوالب إلى تهجير مجموعات من السكان: فنقل الفلاحين الفقراء من شفاين أو الألزاس أو هولندا إلى المناطق الجرداء في إسبانيا، حيث سخرهم للقيام بأعمال ري على نطاق واسع.

وأرسل فلاحو إسبانيا إلى الريف الألماني البارد لزراعة البطاطا والكينوا. وسرعان ما نما هذان المحصولان في جميع مناطق الإمبراطورية وما وراءها.

وأنشئت مستعمرات للشانكا في ساكسونيا لمراقبة البروتستانت الذي بقوا بالقرب من فيتبرغ.

نظم الإنكا تبادلات للمواد الغذائية وفقًا لاحتياجات كل منطقة: أرسل الأفوكادو والطماطم إلى ألمانيا، وزود الإسبان بالبيرة الألمانية والبلجيكية. وقايض القشتاليون مشروبهم الأسود بالنبيذ الأصفر من الألزاس.

تم التوصل إلى اتفاق مع البرتغال، التي تخلت عن أراضيها في البرازيل. في المقابل، وعدت الإمبراطورية بعدم التدخل في تجارة التوابل أو إغلاق الطريق إلى جزر الهند عبر شبه الجزيرة الإفريقية.

جاء المبعوثون من هواسكار بانتظام لتحية الإمبراطور باسم أخيه ومعرفة آخر الأخبار.

كانت إشبيلية محور العالم. وأشرق لشبونة. وازدهرت المواني الشمالية -في هامبورغ، وأمستردام، وأنتويرب- مع ثروة فوغر.

تضاعفت معابد الشمس على حساب معابد الأصنام المحلية، على الرغم من التسامح معها، حيث ضمن وجودها في بقية الإمبراطورية مرسوم إشبيلية في إسبانيا ومعاهدة فيتبرغ.

نشر عالم فلك من خارج الحدود الغربية لألمانيا نظرية سرعان ما انتشرت في جميع أنحاء الربع الخامس، مفادها أن الشمس هي مركز الكون، وليس الأرض. وطُبعت بلغة المعرفة ووزعت، وكانت تحمل عنوان *De Revolutionibus Orbium Coelestium*، ويعني «حول ثورات الأجرام السماوية». وأدى نجاحها إلى زيادة أعداد المعتنقين لدين الشمس. (دُعي عالم الفلك إلى إشبيلية وعُين كبير منجمي الملك).

غير أنَّ الجواسيس الذين أرسلوا من روما راحوا يجوبون الريف الإسباني لتحريض الناس على الثورة باسم إيمانهم الكاثوليكي القديم. لقد كان جيشاً سرياً حقيقياً بقيادة القس إينيجو لوبيز دي لويولا، الذي التقاه أتاهاوالبا ذات مرة في غرناطة. وأخذ الإنكا هذا التهديد على محمل الجد، فأمر تشالكو شيماك بمطاردة أعضاء هذه الجماعة بلا هوادة، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم اليسوعيين، على اسم الإله المسمر الذي يعبدونه، والذي أقسموا على الموت في سبيله.

كان أتاهاوالبا قلقاً من هذا التمرد، لكن ليس بإفراط. وسيثبت المستقبل أنه كان على حق في هذا الصدد، حين سيتعرض لمخاطر أكبر بكثير.

64- صمت كوبا

فجأة توقفت وفود السفن إلى إشبيلية.

بالكاد كان التغيير في البدء محسوساً: كانت المواني لا تزال تضج بالحركة، مع استمرار شحن السفن نحو كوبا. وكان يُعتقد أن التأخير راجع إلى سوء الطقس وبعض العواصف. لقد كانت رحلة طويلة بحق. لكن لم تعد أي سفينة من السفن التي غادرت. ثم صدم صمت المحيط الإشبيليين. وشعر الجميع بقلق غامض ينمو في قلوبهم. وتظاهروا لمدة بعدم الاكتراث. لكن سرعان ما تردد السؤال على شفاه الجميع: «أين الذهب؟» لماذا انقطع طريق الذهب فجأة؟ فكل سفينة غادرت لتأتي به ولم تعد،

زادت من قلق الذين بقوا. وشيئاً فشيئاً، بدأ البحارة يرفضون الإبحار في رحلة بلا عودة. وأصبحت الأرصفة مهجورة. وتوقف الرجال عن نقل صناديق الذهب والفضة والبارود والصوف والنبيد والكوكا والكوهيبا. وحلّ الحزن على المدينة برمتها جرّاء هذا الصمت.

ثم وصلت شائعة من لشبونة. كان وسط بحر المحيط أرخبيل تابع للبرتغال. قيل إن أسطولاً من السفن، كان على متنها رجال يرتدون الريش وجلد الجاغوار، قد رسا هناك. وأشارت لاحقاً رسائل من نافارا إلى أن الأسطول قد شوهد على طول الساحل الفرنسي. ويبدو أنهم قد توغلوا في الأراضي ونهبوها.

وحملت رسالة رسمية من فرانسوا الأول إلى أتاهاوالبا، استغراباً من هذا الأسطول الراسي في المياه الفرنسية، وذكرته بمعاهدة الصداقة بين البلدين.

تلقى أتاهاوالبا أيضاً رسالة من هنري الثامن: دخل الأسطول الغامض إلى الخور الذي يفصل فرنسا عن إنجلترا. وقد منعه المدفعية الإنجليزية حتى الآن من الإرساء، لكن الملك أراد هو الآخر أن يستفسر عن أمر هذا الوجود المهدّد.

جمع الإنكا مجلسه، وقد تملكت الحيرة الجميع. ما الذي كان هواسكار يلعبه؟ لماذا قطع الطريق الرابط مع كوبا؟ لماذا يريد إنهاء مثل هذه التبادلات المربحة لجميع الأطراف؟ ما الذي يعنيه إرسال أسطول كهذا؟ ما الذي كان يضمّره؟

لم تفهم هيغويناموتا سبب عدم إعلام أبناء شعبها التاينو لها بما يحدث، ولم يسعوا لإبلاغهم بالوضع.

ورأى رومينا هوي في هذا كل أمارات غزو عسكري.

كانت كويا أسارباي على يقين من أن الكراهية القديمة بين الشقيقين كانت فقط خامدة، وها قد استيقظت للتو.

ورأى تشالكو شيماك أنّ كل شيء يشير إلى أنّ هذه الاتفاق التجاري لم يعد كافيًا لهواسكار، وأنّه أراد الحصول على ثروات الربع الخامس.

لكنّه أشار إلى مشكلة أكثر إلحاحًا: دون الإمدادات من تاهوانتينسويو، ستفرغ خزائن الإمبراطورية.

كان أتاهاوالبا يدرك هذا جيدًا، وقد بلغته رسالة تذكير من أوغسبورغ، ولم تسمح له النبرة الوقحة فيها بتجاهل هشاشة موقفه:

«إنّ جلالتك تدرك جيّدًا بلا شك التّفاني الذي لطالما أظهره بيتنا في خدمة بيت إسبانيا. ومن المعروف لكم أيضًا أنه لولا مساعدتنا لم تكونوا لتعتلوا العرش الإمبراطوري، كما يشهد كثير من أتباعكم بذلك. وفي هذا الشأن، لم نتردد في خوض مجازفات كبيرة، بل وكان من الممكن أن يكون تفضيل بيت النمسا على بيتكم المشهور أقل مجازفة بكثير، الأمر الذي كان سيمنكنا أيضًا من تحقيق أرباح وفيرة. وبالنظر إلى تفانينا، أناشد جلالتكم أن تعترف بالخدمة المتواضعة والمخلصة التي قدمناها لكم وأن تأمر بدفع المبالغ التي قدمناها دون تأخير، مع الفائدة المستحقة».

على أي حال، كان من الضروري إعادة الاتصال بكوبا، وقبل كل شيء التفاوض بأسرع ما يمكن مع هواسكار.

وتقرر أن تذهب هيغويناموتا إلى فونتينبلو، حيث بلاط الملك فرانسوا، وأن تغادر على الفور، مروراً بنافارا، حيث ستقابل مانكو وحماته مارغريت.

65. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالبا

السلام على ابن الشمس.

قبل كل شيء، سيسرّك أن تعلم بأن شقيقك مانكو، الذي كان من دواعي سروري أن أزوره في بلاط ملك نافارا، يقوم بعمل رائع، وهو راضٍ تمامًا عن زوجته الشابة جين، ابنة مارغريت، التي تزوجها بفضل حكمتك. وهذان الاثنان لا يتركان بعضهما من الصباح إلى المساء، وحيثما صادفناهما في حدائق القصر، كانا يضحكان مثل الأطفال، وأكثر من ذلك، كما يقال، من المساء إلى الصباح، كان يتردد صدى جولتهما في جميع أنحاء مدينة بو. ولا أحد هنا يمكن أن يشك في أن جين ستحب عمًا قريب.

ومع ذلك، فإن والدتها مارغريت قلقة من الأخبار التي وصلتها من فرنسا لأنها تخشى خيانة قد تعرض مملكة شقيقها للخطر. لقد توسلت إليّ أن أطلب منك إثبات إخلاصك من خلال استدعاء تلك السفن التي تطفو في المياه الفرنسية، ولم تصدقني عندما أكدت لها أنك لا تعرف شيئاً عن مصدرها أو وجهتها. ولم يكن لأي كلمة عزاء أي تأثير، وتركته في ضيق شديد تذرف الدموع، وأقسمت لها إن صديقها ملك إسبانيا لن يخذلها أبداً أو يخذل شقيقها.

إنّ فرنسا مليئة بالعجائب، وما فتئت مناظرها الطبيعية، التي مررت بها خلال رحلتي، تفتنني، كما لو كنت أكتشف هذا البلد للمرة الأولى. فضلاً عن ذلك، كان نبذهم ممتازاً، على الرغم من اختلاف مذاقه تماماً عن نبذ إسبانيا.

رحب بي الملك فرانسوا في قلعته في فونتينبلو بكل التكريم الذي تمليه عليه منزلتي ولباقته وذكرى صداقتنا السابقة. وبينما كان ينتظرني على قمة سلم على هيئة ذراعي نهر من الحجارة يتدفق عند قدمي الزائر، عُزفت على شرفي موسيقى من أوركسترا من النايات والأبواق والمزامير والكمانات، وأقيم حفل راقص في صالة رائعة ذات جدران خشبية شيّدها في مقر إقامته الملكي.

ولا يفوتني أن أقول إنّ رجال بلاطه ساحرون كما كانوا دائماً، وإنه لمن دواعي سروري البالغ أن أتجول في حدائق هذا القصر، بين نساء يرتدين الثياب الفاخرة، وعلماء يراقبون السماء، ورسامين ومهندسين إيطاليين، وشعراء يغنون عن جمال الورد وهشاشة الحياة.

على عكس أخته، بالكاد بدا جلاله الملك -كما يحلو له أن يلقب- منزعجاً من أخبار هذه السفن المبحرة قبالة سواحله، حيث بدا مبتهجاً وبنفس اللطف الذي عهدته عليه دائماً. غير أنّه لم يحتفظ بوسامته كما في السابق، فقد أصبح الآن ضئيلاً وأعرج، يعتذر عن عدم قدرته على دعوتي للرقص، وهو الذي عرفته راقصاً لا يعرف الكلل. وقد أبلغني سفيرك هناك أن ملك فرنسا يعاني تمزقاً وتعفنًا في الوريد في الأطراف السفلية، وقد يأس الأطباء من حالته. يبدو أن الملك يعاني ما يسمونه هنا

«الداء الإسباني» والذي يطلق عليه في إسبانيا اسم داء لشبونة. لكن، بصرف النظر عن اللحظات العرضية التي يفضح فيها وجهه آلام جسده وإرهاقه، إنه عازمٌ على عدم السماح لهذا بالظهور ويدير شؤون بلاده بالقناعة العظيمة ذاتها.

أمّا عن المسألة التي جئت لأجلها، فيبدو أن أسطول أخيك قد اقترب أخيراً من سواحل إنجلترا التي، كما لا يخفى عنك، تخوض حرباً مع فرنسا، ما لم يسمح لنا بمعرفة المزيد. ودون الخوض في تفاصيل غير ضرورية، أبلغت فرانسوا بأصل هؤلاء الزوار المحتمل، مع الحفاظ على الغموض فيما يتعلق بخلافك السابق مع هواسكار. لكنني أكدت له أنّ هذه السفن قد أضاعت بلا شك وجهتها، وستعود إلى إشبيلية ما إن يأتيهم الأمر بذلك باسمك. وحتى الآن، يبدو أن هذا التفسير يرضيه.

لتراقب الشمس ظلك، وتحمي إمبراطوريتك.

من فونتينبلو، 30 أبريل 1544 للميلاد،

الموافق للحصاد الثالث عشر في الربع الخامس،

أميرتك المخلصة، هيغويناموتا

تنويه: أنا أرتدي معطفك من فرو الخفاش.

66. رسالة من أتاهاوالبا إلى هيغويناموتا

تحية لك، أيتها الأميرة المشرقة،

أعجز عن أن أوفي شكرك على الأخبار التي أرسلتها إليّ من فرنسا، وأيضاً على قطعك هذه الرحلة الطويلة من أجلي ومن أجل الإمبراطورية.

وأنا كذلك لدي أخبار على قدر كبير من الأهمية، تخصك أنت دون غيرك، لأبلغك بها.

لقد وصلت، هنا، أخيراً سفينة من كوبا، ولن تصدقي من كان على متنها. إنه ابن عمك هاتوي، الذي أخبرنا قصة الأحداث التي أدت إلى قطع الطريق إلى تاهوانتينسويو.

لقد وصل إلى كوبا قوم غرباء يطلقون على أنفسهم اسم المكسيكيين.

إنهم محاربون شرسون، يحملون نيات عدائية. لقد هزموا قوات أخي التي كانت في الجزيرة، وكذلك قوات ابن عمك. وتمكن هذا الأخير من الفرار مع كل أفراد التاينو الذين كانوا قادرين على اللحاق به، ولجؤوا إلى جزيرة هايتي، موطنك الأول والأرض التي ولدت فيها، كما أعلم. لكن المكسيكيين لاحقوهم هناك، وكان على هاتوي أن يلجأ إلى الجبل، حيث عاش كحيوان بري مع رفاقه التمساء، إلى أن جاء اليوم الذي تمكنوا فيه من الحصول على سفينة، وهكذا جاؤوا إلى إشبيلية.

وحسب ما يعرفه، فإن المكسيكيين قد لاحقوا الإنكا إلى غاية مضيق بنما، حيث تدور رحى الحرب الآن، وتستमित قوات هواسكار في القتال، لأنه إذا عبرت هذه الجحافل البربرية المضيق، فلن يمنعهم أي شيء من الاستيلاء على تاهوانتينسويو وستنتهي الأرباع الأربعة.

عليك إبلاغ فرانسوا بهذه التطورات الأخيرة، وإخباره أن الأسطول الذي أبجر على طول ساحله لا يمت لنا بصلة.

وكرري بالأخص هذا له: إن الصداقة بيننا تبلغ الحد الذي

يجعلني أعتبر أن شؤون أخي فرانسوا هي شؤوني، وأن ما يصيبه يصيبني. وفي الأخير، أبلغيه أنه عليه أن يتصرف كما لو كان يستعد لمواجهة أقسى غزو.

من إشبيلية، في 9 مايو 1544 للميلاد
الموافق للحصاد الثالث عشر من تاريخ الربع الخامس.
ملك المخلص، أتاهاوالب

67. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالب

سابا إنكا، شمس كيتو، تحية والسلام،

بلغتنا أخبارٌ مساء أمس مفادها أن المكسيكيين قد رسوا في نورماندي. وقد رأهم بعضٌ من الفلاحين يسIRON أولًا على الشواطئ الخالية، ثمّ ولجوا ميناء يسمى هافر دي غريس، وهم الآن يتبعون مسار نهر سيقودهم إلى باريس.

جمع فرانسوا جيشًا لمواجهةهم. ويبدو أنّ هذا الخبر قد أنعشه. وعلى الرغم من آلام إليلته، فإنّه أراد امتطاء حصانه وتمنى قيادة جيشه لمقابلة الزوار والقتال إن لزم الأمر. وقد تحمس جسده العجوز إلى ما اعتبرها -كما ظل يكرّر- مغامرة تذكره بشبابه المتقد. ولم يعد بجانبه قائد جيشه آن دي مونتورنسي، الذي كنت أعرفه جيّدًا، وكان يحظى بمنزلة كبيرة في بلاط الملك منذ عهد مضى. ويبدو أن الرجل ذا اللحية الحمراء، فرانسوا دي غيس، قد حل محله. يركب بجانبه ولي العهد هنري.

سَرت في البلاط فورة من الهيجان. وياشروا الاستعدادات
للحملة، في جو من السكر الحلو والبهجة الخالصة.
في هذا الشأن، تناقل جميع من في القصر كتاباً أثار بهجتهم،
من تأليف سيّد يدعى رابليه، يروي فيه مغامرات العملاق
المسمى غارغانتوا. ولا بدّ أن أقرأ لك مقاطع منه لدى عودتي،
لأنّه مضحك جدّاً، ويحمل نوعاً من الاستهتار الأنيق الذي آمل
أن تقدره مثلي. ألا يحق لنا نحن الذين ندير الممالك أن نريح
عقولنا؟

وحتى ذلك الحين، أناشدكم أن تدعو أباكم الشمس أن يؤازرنا
في المهمة التي تنتظرنا، ويمدنا بالعون إن شن علينا هؤلاء الزوار
الحرب. أمّا أنا فأقبل يد الإمبراطور، صديقي العزيز، وأيدي
أبنائه، الذين أحبهم كما لو كانوا أبنائي.

من فونتينبلو، 7 يونيو 1544

الموافق للحصاد الثالث عشر في الربع الخامس

أميرتك العارية، هيغويناموتا

68. رسالة من أتاهاوالبا إلى هيغويناموتا

يا شمس الجزر، أيتها الأميرة التي تفيض طيبة، تحية لك،
بلغتنا أخبار مقلقة من تاهوانتينسويو. لقد عبر المكسيكيون
برزخ بنما وهم يتقدمون الآن جنوباً. ويقا تل جيش شقيقي هواسكار
ببسالة لكنّه يفقد الأراضي. ومن المتوقع أن تخضع كيتو لحصار
بحلول القمر القادم.

لقد جاء أخي توباك هوالبا بنفسه ليطلعني على الوضع. وقد تمكن هو ورجاله من النزول عبر النهر الذي يبدأ من جبال الأنديز ويصب في البحر المحيط مرورًا بالغابة، ثم أبحروا على طول الساحل وصولاً إلى أرض البرازيل، التي احتلها البرتغاليون سابقاً، وهناك تمكنوا من إعادة تجهيز سفينتهم، وبعد رحلة طويلة، وصلوا إلى إشبيلية. وهكذا توجد الآن طريق ثانية تربط تاهوانتينسويو بالعالم الجديد، على الرغم من أنه لا يمكن القيام بهذه الرحلة في الاتجاه المعاكس. وليس لدي أدنى شك في أن أخي سيرسل مزيداً من السفن إلى هناك لإبقائي على اطلاع بالحرب وتطوراتها.

أخبري فرانسوا أنّ المكسيكيين شعب شرس ومتعطش للدماء ولا بدّ من توخي الحذر منهم، لكونهم أكثر دموية من الطاعون. ونصيحتي هي أن يبید أولئك الذين وطأت أقدامهم الأراضي الفرنسية عن بكرة أبيهم، قبل أن ينظّموا جسر غزوٍ سيصبح بعد ذلك أمراً لا مفر منه.

أتمنى أن تحميك الشمس وتحمي كل الفرنسيين.

من إشبيلية، في 18 يونيو 1544 للميلاد
الموافق للحصاد الثالث عشر في الربع الخامس
إمبراطورك الذي يقبل يديك، أتاهاوالبا

69. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالبا

يا شمس العالم الجديد، تحية إليك،
ما أجمل أن أكون من يحمل الأخبار السارة، وما أجمل أن
أتخيل البهجة التي ستغمر من يستقبلها، وأنا أدرك أنني سببها،
أو على الأقل رسولها!

في الواقع، قد لا يكون لمخاوفنا أي أساس.

لقد جرى لقاء بين الفرنسيين والمكسيكيين في ضواحي بلدة
تدعى روان.

ولإثارة إعجاب الزائرين، أمر الملك فرانسوا بإقامة معسكر
عظيم لم يسبق أن رأيت له مثيلاً. فغطت السهل خمسمئة خيمة،
يتوسطها سرادق ضخم، خُصصت لاحتضان الاجتماع. وكان
السرادق والخيام مغطاة بقطعة قماش ذهبي من فلورنسا. وكان
الصيادون قد جابوا الأرياف لتوفير كميات وفيرة من الطرائد،
لتقديم مأدبة للضيوف لم يسبق لهم أن رأوا لها مثيلاً. وارتدى
فرانسوا لهذه المناسبة درعاً أزرق لامعاً مزيناً بشعار نبالة يُظهر
زنبقة ذهبية. وكان برفقته ابنه هنري، الذي عهد إليه بلقب
حاكم النورماندي. ولهذه المناسبة، انضمت إليهما الملكة إليونور
وابنهما الأصغر شارل دوق أورليان.

كان المكسيكيون قومًا ذوي طلعة بهية، وبنية قوية، ولم تكن
بشرتهم شاحبة ومريضة كبشرة الفرنسيين. ولم يكن لرجالهم
لحي، تمامًا مثل رجال موطنك وموطني. وكان قائدهم رجلاً
في مقتبل العمر، قويًا، حسن المظهر، طويل القامة، لكن ليس

بطول ملك فرنسا العملاق. وكان اسمه كواوتيموك، وهو يخدم إمبراطورًا يدعى موكتيزوما. وكان يرتدي غطاء رأس من الريش، تظهر من تحته جديلة طويلة، وثياب من نوعية رديئة إلى حد ما، لكنه مزين بجواهر مصنوعة بدقة.

يقول إنه يعبد إلهاً يدعى كيتزالكواتل، وهي كلمة تعني «أفعى ذات ريش» في لغته. لكنني لاحظت أيضًا أنهم يدعون أحيانًا إله المطر الخاص بهم، الذي يسمونه تلالوك، وهو مسلح بمطرقة مثل إله الرعد ثور إيلابا.

تسلح محاربوه بالحرايب والدروع المستديرة، واتخذ بعضهم من رأس الجاغوار خوذة، فبدأ كأن رأس المحارب يخرج من فم الحيوان، وأضفى هذا مظهرًا مرعبًا عليهم.

ومع ذلك، لا يبدو أن كواوتيموك يحمل نيات عدائية. وأكد أنه جاء بالسلام، وقد جذبته صيت المملكة الذي عبر البحار. وطلب من ملك فرنسا السماح له بإنشاء مركز للتجارة في ميناء هافر دي غراس، المعروف أيضًا باسم فرانسيسكوبوليس، بغية السماح للسفن التجارية بالتنقل بين بلده المكسيك وفرنسا. وحتى لحظة كتابة هذه السطور، كانت مسودة معاهدة تجارية قيد الكتابة، ولا بدّ من توقيعها دون تأخير.

أظهر كواوتيموك تودّدًا كبيرًا تجاه الملكة إليونور، وأنت تعلم أنها أخت الإمبراطور الراحل شارلكان. كما وجه لي التحية ببساطة ظريفة، وأكد لي أن شعبه، على الجانب الآخر من البحر، لن يطلب من التاينو أكثر من مجرد مركز للمبادلات التجارية مع حق المرور، وأنه ما إن تبرم هذه الاتفاقيات، سيرسل الأمر

لقواته بإخلاء كوبا، وترك حامية صغيرة فقط، والتخلي عن نية غزو هايتي.

لذلك، يشير كل شيء إلى أنه لن تكون ثمة حرب. إنه لمن حسن حظنا جميعاً أن يتمتع هؤلاء المكسيكيون بنزعة سلمية. إنَّ إمبراطوريتك شابة، وهي الآن بحاجة إلى تعزيزها بالسلام وليس بالحرب. لهذا السبب، لا أشك في أنك ستتلقى هذا الخبر بنفس الرضا الذي أرسله به إليكم.

أبعث إليك القبلات وهذه الأبيات لشاعر من هذه الأرض، رأيت أنَّ فيها ما يتلاءم وقصتنا، التي قادتنا إلى ما نحن فيه اليوم:

أرأيت كيف يضحك العالم على العالم،
لهذا لا يزال فتياً.

من روان، 7 يوليو 1544

الموافق للحصاد الثالث عشر في الربع الخامس
صديقتك القديمة الكوبية، هيغويناموتا

70. خيبو من هواسكار إلى أتاهاوالبا

سقوط كيتو.

الانسحاب المسلح للإنكا: 38000 رجل.

الخسائر: 12000 رجل.

الأسرى المدنيون والعسكريون: 15 ألفاً.

جيش العدو في طريقه إلى تامبيامبا: 80000 رجل.

القرايين البشرية: 2000.

71. رسالة من أتاهوالبا إلى هيغويناموتا

عزيزتي الغالية هيغويناموتا،

أناشذك أن تنقلي هذه الرسالة إلى فرانسو، قبل العودة إلى إسبانيا دون تأخير، أو على الأقل إلى نافارا حيث ستكونين بأمان: لم يأت المكسيكيون بالسلام! في الحقيقة، لم أكن على يقين مطلق مسبقاً، لكنّ مخاوفي تأكدت من خلال آخر الأخبار التي وصلتني من تاهوانتيسويو. لقد أرسل لي أخي هواسكار رسالة نسخها الخي بوكامايوك. إنّ المكسيكيين شعب عدواني جداً، يقتلون أسرى الحرب بلا رحمة. وبدلاً من أن تنتهي الحرب، لا تزال مستمرة في أراضي أجدادي، وقد سقطت كيتو وهؤلاء المكسيكيون يتقدمون أكثر نحو الجنوب. مكتبة سُرّمن قرأ

لقد بعثت رسالة إلى السيد دي سان موريس على الفور، لكني لا أعرف إنّ كانت سفارته ستصل إلى الملك قبلك. أخبريه أن المكسيكيين قد نصبوا له فخاً. وعلى الفرنسيين أن يبادروا على الفور بالقتال ليكون التقدم لهم.

أمّا بالنسبة إليك، يا أميرتي الحلوة، فأناشذك أن تلوذي بالفرار حالما تسنح لك الفرصة. لقد كتبت إلى مانكو للانطلاق مع جيش نافارا: سيصل باريس في غضون عشرة أيام، لتعزيز الجيش الفرنسي.

فرّي وأنقذي حياتك يا صديقتي! أتمنى أن تصلك هذه الرسالة دون تأخير. أعلم أن الطرق الفرنسية ليست جيدة مثل

طرقنا، لكنني أوكل الرسالة إلى أفضل شاسكي لدي، على أمل أن
تصل في حدود سبعة أيام.
إشبيلية، 14 يوليو 1544،
خادمك وصديقك، أتاهاوالبا

72. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالبا

أميري،
لا أدري إن غادرت رسالة منك إسبانيا، أو إن كنت تنتظر مزيداً
من المعلومات للرد علي. ولم أعرف ما عليّ فعله دون أي أخبار
منك، فبقيت مع ملك فرنسا، لأشهد إبرام اتفاق السلام.
وكان هذا خطأ.

بالأمس، 19 يوليو من التقويم القديم، غدر المكسيكيون، على
قلّة عددهم، بالفرنسيين وهاجموا معسكرهم على حين غرة، ما
تسبب في حالة من الذعر والقتل، وذبحوا كل من استطاعوا.
في الوقت نفسه، بلغنا أنّ الإنجليز من مدينة كاليه قد اقتحموا
مدينة بولوني.

لجأ الملك فرانسوا، الذي نجا بصعوبة من هجوم المكسيكيين،
على مقربة من مدينة روان. لكن، عليه الآن أن يواجه الأعداء على
جبهتين. وكان على يقين أن الإنجليز والمكسيكيين قد تواطؤوا
معاً على الهجوم عليه. فأمر بالتراجع في المعركة باتجاه باريس.
وفقط بمعجزة تمكنت أنا نفسي من الهروب من الفخ
الذي نصبه المكسيكيون، وذلك بفضل الارتباك الذي أحدثته

الاشتباكات، وسُمرة بشرتي التي جعلتهم يعتقدون أنني واحدة منهم. فركضت وسط القتال، كما لو كنت أركض عبر غابة من الرماح، متفادية الفؤوس والسيوف التي كانت تشق الهواء، إلى أن استطعت أن أمتطي حصاناً سقط راكبه. وهكذا تمكنت من إخراج نفسي من المعسكر، تاركة خلفي الفرنسيين لمصيرهم المروع على أيدي هؤلاء المكسيكيين. ولو لم أكن فارسة جيّدة، لكنت مت. وأنا الآن في مأمن بعد أن انضمت إلى فلول الجيش الفرنسي، لكنني لا أعرف إلى متى.

مانت، 20 يوليو 1544،

أميرتك التعيسة، هيغويناموتا

73. رسالة من مانكو إلى أتاهاوالبا

إلى أخي، إمبراطور الربع الخامس،

تحية إليك،

بعد أن توجهت لمساعدة ملك فرنسا، على رأس جيش قوامه خمسة عشر ألف رجل، عبرت بلداً كان في حالة اضطراب. انسحبت القوات الفرنسية، التي شتتها الهجوم المفاجئ الذي شنه المكسيكيون، إلى ضواحي باريس. وعلى ملك فرنسا أيضاً أن يقاتل الإنجليز الذين انضموا إلى المكسيكيين. وعلى ما بلغنا من أخبار، فإن بولوني ستسقط قريباً.

يواجه الجيش الفرنسي صعوبة كبيرة في مواجهة هذا التهديد المزدوج، لكن الوضع بعيد كل البعد عن التسوية. يكفي أن ترسل كويزكويز، على رأس جيش قوامه ثلاثون أو أربعون ألف رجل، ويمكنني أن أضمن لك أنه مع هذا التعزيز، سنصد هجوماً المكسيكيين والإنجليز ونعيدهم إلى البحر.

بافتراض وصول هذه الرسالة إليك في غضون خمسة أيام أو أقل، أقدر أن التحاق جيشك بنا سيستغرق أسبوعين. وحتى ذلك الحين، لا بد أن تصمد باريس، وسنحافظ عليها.

من بواسي، 24 يوليو 1544 للميلاد،
السنة الثالثة عشر في الربع الخامس
إلى سيدي وشقيقي،
من الجنرال مانكو، أمير نافارا
تتويحه: الملكة إليانور مفقودة، وغير معروف إن كانت ميتة أم
أسيرة لدى العدو.

74. خيبو من هواسكار إلى أتاهاوالبا

مكتبة

t.me/soramnqraa

تاميبامبا تحت الحصار.

مقاومة عنيدة.

خسائر الإنكا: 20000.

خسائر العدو: من 10 إلى 15000.

الهجوم المضاد: 60000 رجل (بمن فيهم 20.000 شينكا،

10000 شاراس، 8000 كناري، 5000 تشاتشابويا).

المدفعية: 120 مدفعًا.

الفرسان: 6000 حصان.

معركة كيتو: 30000 قتيل في كل معسكر.

المحادثات جارية. (القادة أتوك، توباك أتاو و⁽¹⁾)

الهدنة ممكنة.

75. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالبا

ملكي،

ليتني تلقيت رسالتك في الوقت المحدد، ربّما كان بإمكانني إقناع فرانسوا باحتيال المكسيكيين، ولكنّا تجنبنا هذه الكارثة التي شردتنا وقصمت ظهر جيشه.

ولا بدّ من أن تعلم أنّ الوضع هنا قد تدهور إلى حد كبير. لقد تراجع الفرنسيون أمام المكسيكيين الذين يتلقون التعزيزات عبر هافر دو غراس بشكل شبه يومي. واستولى الإنجليز على بولوني وهم الآن في طريقهم نحو باريس، ونحن مهدّدون بالوقوع في قبضتهم.

يقال إنّ الملكة إليونور قد أصبحت صديقةً لكواوتيموك، وأنّها قد أطلعت المكسيكيين على أمور يمكنها أن تخدمهم، مثل عادات السكان، وتضاريس فرنسا وحيواناتها، وأسلحة جيش زوجها الملك وخططه. ولم يستطع فرانسوا تخيل ذلك، ولكن بعد كل

(1) كلمة غير مقروءة (ملاحظة المؤرخ). (الكاتب)

شيء، هي من بيت هابسبورغ، وستظل من هابسبورغ، وصدقني
إنّه أمر لا يمكن تصوّره.

وصل مانكو ومعه خمسة عشر ألف رجل وهذه التعزيزات
وحدها أعطتنا فترة راحة لولاها كان يمكن القضاء على الجيش
الفرنسي، ونحن معه. ومع ذلك، لن يكون هذا كافياً لمواجهة
هجوم المكسيكيين والإنجليز معاً. لا يزال بيدك وحدك إنقاذنا.
وإنّني أناشدك لإرسال جيش يهب لنجدتنا ويحررنا من بين فكّي
الأعداء قبل أن نُسحق جميعاً.

من سان جيرمان أونلاي، 6 أغسطس 1544.
المخلصة لك دوماً هيغويناموتا

76. خيبو من هواسكار إلى أتاهاوالبا

تمّ التفاوض على الهدنة.
طلب إنهاء القتال في الربع الخامس.

77. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالبا

يا صديقي، لقد ضاع كل شيء!
لقي مانكو حتفه في المعركة، ووقف في وجه شراسة
المكسيكيين حتى آخر نفس. وقد ضحى بنفسه دفاعاً عن باريس
المحاصرة، ومعه كل رجاله.

لجأنا مع الملك في قصره في اللوفر، لكنه يعاني كثيرًا الناسور الذي أصيب به في إليته حتى أنه لم يستطع ركوب الحصان وبالكاد يستطيع الوقوف، وظل معظم اليوم طريح الفراش. ويتولى الدوق غيز الدفاع عن المدينة، وينشر الحماس طوال الوقت. لكن الوضع سيئ جدًا، فحتى لو كانت لديه موارد بمئات الأضعاف، فإنها لن تكون كافية.

أنت أملنا الوحيد، يا أميري، ونتربص وصول جيش أرى على رأسه كوزير كوزير أو رومينا هوي، أو ربما حتى الوجه الفخور لإمبراطوري نفسه. هذا هو الحلم الذي أحلم به كلما أتاح لي الألم المستشري في قلبي وصوت البنادق في الخارج هدنة أحظى فيها بقسط من النوم.

إليك، يا ابن الشمس، وإذا لم ترني مرة أخرى، فتذكر أميرتك الكوبية.

باريس، 10 أغسطس 1544،

هيوغويناموتا الخاصة بك

78. خيبو من هواسكار إلى أتاهاوالبا

السلام مشروط بوقف الاقتتال على كل الأصعدة.
تم التفاوض بشأن إعادة المبادلات التجارية مع بكوبا.
عشر سفن شحن جاهزة للانطلاق.
تكاد الموارد تتفد. الإمبراطورية تعيش آخر أنفاسها.
تشينتشانسويو وأنتينسويو على شفا حرب أهلية.
طلب إنهاء فوري للقتال.

79. رسالة من أتاهاوالبا إلى جان دي سان موريس، السفير

الإمبراطوري في فرنسا

أنا، أتاهاوالبا، إمبراطور الربع الخامس، آمرك بموجب هذه الرسالة بأن تتقل إلى الجنرال كواوتيموك دون أي تأخير التعبير عن صداقتي، وكذلك تأكيد إرادتي السيادية وغير المشروطة لعقد التفاهم والسلام الدائم مع شعب المكسيك المجيد.

وأعلمه أنه ليس لدى إمبراطور الربع الخامس، ملك إسبانيا، من رغبة سوى عقد معاهدة سلام معه ومع سيده موكتيزوما، وأن هذه الرغبة قوية جدًا حتى أنني أعتزم التخلي عن تحالفي مع فرنسا لتحقيقها. وعليه فإنني أعفي نفسي من التزام المساعدة العسكرية أو أي نوع آخر من المساعدة، تجاه الفرنسيين وكذلك تجاه ملكهم.

أخبره أيضًا أن يحرص على أن تكون الأميرة هيغويناموتا، إذا وقعت في يديه، في مأمن وتحظى بمعاملة حسنة.

لا أعتقد أنني بحاجة إلى أن أوضح لك أهمية هذه السفارة. إنني أعتد عليك في تحقيق ذلك من خلال الاجتهاد والمهارة التي اختارك لأجلها شارلكان، والتي لطالما أثى هو وأنا، خليفته، عليها. إن سلام الإمبراطورية بين يديك. أتمنى أن يكون أبي، الشمس، معك.

من إشبيلية، في 15 أغسطس 1544 للميلاد

الموافق للحصاد الثالث عشر في الربع الخامس

أتاهاوالبا الأول، ملك إسبانيا، أمير بلجيكا وهولندا،

ملك تونس والجزائر، ملك نابولي وصقلية، إمبراطور الربع
الخامس.

80. رسالة من أتاھوالبا إلى هيغويناموتا

أميرتي الحبيبة، يا روعي، والعناية الإلهية التي ترافقني في
جميع مساعي، التي أنقذتني مئات المرات من أسوأ المآزق،
أتمنى من كل قلبي أن تجد هذه الرسالة طريقها إليك.
أصغي إليّ جيّداً: لن تكون هناك تعزيزات. لقد ضاعت
فرنسا. إذا استطعتِ الهروب، غادري باريس. عودي إلى إسبانيا.
هذا أمر.

إشبيلية، 15 أغسطس 1544

ملكك، أتاھوالبا

81. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاھوالبا

أميري، وصديقي،

لا أعرف إن كانت هذه الرسالة ستصل إليك. لقد تجمع
المكسيكيون حول القصر وسيقتحمونه هذا المساء أو في الغد.
أرجو أن تغفر لي، لم أرغب في التخلي عن فرانسوا. إنك
تعلم أنني مخلصه لك تماماً، وهذا هو السبب في أنك عندما
أرسلتني مرة إلى باريس للتفاوض بشأن تحالفنا مع فرنسا ضد
شارلكان وفيرديناند، منحت نفسي له دون تحفظ، وحتى دون

استياء. وفي نهاية حياته وحكمه، لا أملك الشجاعة لأتركه وحده. وما زلت أشعر بكثير من الحنان والصدقة لهذا الرجل المكسور الذي تنهار مملكته أمام ناظريه. ولو أنك رأيته يبكي في سريريه من الألم، متوسلاً إلهه أن يمنحه الموت لينقذه، فلا شك لدي في أنك ستشعر مثلي بالشفقة تجاه هذا المشهد الكئيب.

أسمع قرع طبول المكسيكيين في الخارج. تشبه أغانيهم الحربية زئير الوحوش، وتجعل الدم يتجمد في عروقي. أشعر بأن مذبحه كبيرة تختمر. وهذه المرة، أشك في أنني سأعيش.

فكر فيّ. مع السلامة.

باريس، 1 سبتمبر 1544،

هيفويناموتا التي وهبت نفسها إليك.

82. رسالة من السفير جان دي سان موريس إلى أتاهاوالبا

إلى ملكي أتاهاوالبا، ابن الشمس، إمبراطور الربع الخامس سيدي،

سأرد بهذه الرسالة على الرسالة التي تفضل جلالة الملك بإرسالها إليّ في اليوم الخامس عشر من الشهر الماضي. في البدء، لن أتخاذل، سيدي، في متابعة أمر جلالتك فيما يتعلق بخلاص الأميرة هيفويناموتا وبشأن عرض السلام الذي سنسلّمه إلى القائد كواوتيموك.

ولكن قبل ذلك، اسمح لي يا سيدي بأن أطلع جلالتك على آخر التطورات هنا، التي أنا على يقين من أنها ستلفت انتباهكم. بعد أسبوع من القتال الدامي، استولى المكسيكيون أخيراً على اللوفر. ونتيجة لذلك توقف القتال في باريس باستثناء جيوب قليلة ومعازل المقاومة في الضواحي الشرقية.

ومع ذلك، استسلم دوق غيز للجنرال كواوتموك، وسلّمه مفاتيح المدينة. وأصيب الدوق، الذي قاتل بكل ما أوتي من شجاعة، بجروح مروعة في وجهه بضربة من رمح، وكان وجهه لا يزال ينزف بالدماء في أثناء عملية الاستسلام. وهو الآن، لحظة كتابة هذه الرسالة، بين يدي جراح شاب يقال إنه يصنع المعجزات في خياطة اللحم وإعادة العظام.

أمّا الملك، فهو محتجز الآن في مسكنه مع ولديه.

كانت صحته سيئة جداً حتّى أنّ الأطباء يؤسّوا من أن يعيش طويلاً. ولكن بعد أن أصيب الملك بثلاث نوبات حمى شديدة، يقول أطباؤه الآن أن هذه الحمى ستكون سبباً في تحسن صحته وحاله.

وتنفيذاً لرغبات جلالة الملك، أنقذنا حياة الأميرة هيغويناموتا، من بين جميع الأرواح الأخرى التي ماتت خلال هذه المذبحة العظيمة، وقد حرصت شخصياً على أن تتلقّى معاملة خاصة، وآمل أن يرضي هذا جلالتك.

يجب أن أضيف أنّ الشائعات المتعلقة بالملكة إليونور قد ثبتت تماماً، بل وأكثر من ذلك. إذ سنحت لي الفرصة حضور مشهد مذهل لدخول ملكة فرنسا إلى باريس متأبطة ذراع الجنرال كواوتموك،

ومنذ ذلك الحين رأيتها تقدم له المشورة وتزوده بمعلومات عن الأماكن. وهذا يقطع كل شك، يا سيدي، في طبيعة علاقتهما.

أمّا عن النقطة الأخيرة والأصعب، فقد تطلب منّي إنجازها مجهوداً كبيراً، ناهيك بالخوف الذي تملكني، لأنّه كما قد يتخيّل جلالة الملك، لم يكن من السهل، في ظل الارتباك الذي كان سائداً آنذاك، أن أعرفّ بنفسي لدى السلطة الجديدة. ولكن، بناءً على أمرك، سلّمت اقتراح جلالتكم لأجل السلام إلى الجنرال كواوتيموك، الذي طلب مني أن أنقل إلى جلالتكم تحياته وإجلاله، ويؤكد لكم حسن نيّاته. وهو يقول إنّّه واثق بأنّه يمكن للطرفين إيجاد أرضية مشتركة مفيدة «لكل من الإنكا والمكسيكيين» (هذه كلماته الخاصة، وقد ترجمها بعناية الترجمان والملكة إليونور نفسها).

سيدي، أتوسل إلى الخالق أن يحقق لجلالتك كامل رغباتك الأسمى والأنبل والأفضل.

من باريس في 18 سبتمبر 1544 م
 الموافق للعام الثالث عشر في الربع الخامس،
 خادمك المتواضع والمخلص، جان دي سان موريس

83. رسالة من هيغويناموتا إلى أتاهاوالبا

إلى ابن الشمس، مجد كيتو، الحليف المخلص،
 لقد مات فرانسوا اليوم، في ظل ظروف أود أن أخبرك بها.
 عمد أصدقاءك المكسيكيون الجدد إلى تشييد هرم في
 ساحة اللوفر. إنّّه صرح حجري، مهيب جداً، ويجب أن أعترف

أنه متناغم إلى حد ما في أبعاده، ويتألف من درجات تذكرنا بالمدرجات التي نحتّموها أنتم، الإنكا، في الجبال. لم يكن لدي أدنى شك في أنّ هذا البناء كان مخصصًا لبعض الطقوس. ومع ذلك، لم أستطع أن أشتبّه في المهمة التي كان مخصّصًا لها.

سيسعدك أن تعرف أن للمكسيكيين إله الشمس، الذي يعبدونه بحماسة خاصة، والذي يصادف أنّه إله الحرب أيضًا. أليس هذا مسليًا؟ ألا تجد ذلك مناسبًا؟

لقد ضحى المكسيكيون لإلههم هذا بملك فرنسا وابنيه، ودوق غيز، ومئة فرد من النبلاء الفرنسيين، بمن فيهم عديد من الفتيات الصغيرات اللاتي اعتقدوا، على ما أظن، أنهن يرضين آلهتهن.

هل تريد أن تعرف كيف سارت عملية الإعدام؟

حُمل الملك، الذي لم يكن يقوى على تسلق الدرجات، ميتًا أكثر منه حيًا إلى قمة الهرم. وبعد أن مزقوا قميصه، وضعوه على حجر. وكان أربعة رجال يمسكون بذراعيه ورجليه، فيما أمسك الخامس برأسه، ثمّ راح كاهن ما يشق صدره بشفرة حادة، وغرز يديه فيه ومزق قلبه، وأخذ يلوح به في الهواء، تحت صرخات الحشد المصدوم. ثم وضع القلب في جرة، كأن كل هذا الرعب لم يكن كافيًا، ودفع جسد الملك من القمة على الدرجات المغطاة بالدم إلى أسفل الهرم. وهناك، كان مكسيكيون آخرون مسؤولين عن أخذ الجثث لتُقطّع، على ما يبدو، إلى قطع لتستخدم العظام للزينة أو في صنع آلات موسيقية.

أي جرائم هذه التي ترتكب باسمك أيتها الشمس!
على الأقل وفّر فرانسوا على نفسه، لكونه أول من أُعدم، حزن
مشاهدة إعدام ولديه، هنري وشارل، اللذين كافحاً بشراسة على
حجر التضحية.

علمت من سان موريس أنّ حياتي كانت جزءاً من الشروط التي
وضعتها على كفة الميزان لتوقيع السلام مع المكسيكيين، وأنا
ممتنة لك لذلك، على الرغم من أن سنّي كانت بلا شك كافية
لحمايتي من اهتمام الآلهة وبالتالي أنقذتني من صعود هرمهم.
لكنّك ستفهم بلا شك أنّني لم أعد أرغب في تقديم النصيحة
لك، ولأكون صادقة، فبعد الأحداث المأساوية التي هزت فرنسا،
والتي جعلني سوء حظي أحضرها، ولم تكن بريئاً منها تماماً، لا
أريد أن أرى إسبانيا مجدداً. لن أفعل بالطبع مثل ما فعلته الملكة
إليونور، رغم أنّني لا أرغب في الحكم على الأسباب التي دفعتها
لخيانة زوجها ووطنها بالتبني. أنا ابنة ملكة، وقد خدمت ملكاً
واحداً فقط ولن أخدم ملكاً آخر أبداً. لكنّني اليوم ألتمس كرمك
المعهود في أن تسمح لي بإظهار ولائي بطريقة أخرى. لذا أرجو
أن تأمر بتعييني وصيةً على عرش هولندا، بدلاً من زوجتك ماري،
التي أبقاها حليمك في منصبها بعد حملتنا هناك، ولكنّها لم تكن
تستحق ثقتك في السابق.

إلى ملك الإمبراطورية المقدسة، وداعاً يا أمير كيتو.

باريس، 9 أكتوبر 1544هـ

إنَّه لمن الاستخفاف أن نقول إنَّ اقتحام المكسيكيين مشهد العالم الجديد قد هز الصرح السياسي الذي بناه أتاهاوالبا بصبر. كان اختيار التخلي عن ملك فرنسا صعباً ولكنَّه في الحقيقة كان حتمياً، ولم يكن موضوعاً لأي نقاش: لا يمكن للربع الخامس الاستغناء عن الأربعة الآخرين. لو سقطت تاهوانتينسويو، لكانت إمبراطورية أتاهاوالبا قد تبعثها، مثل طفل حُرِم فجأة من ثدي أمه. ورفضت هيغويناموتا، التي أعماها تعلّقها بالملك فرانسوا، الاعتراف بذلك، تماماً كما رفضت التفكير في ما يعنيه السلام لوطنها الأصلي مع مكسيكو. كانت كوبا ستستعيد دورها كمفترق طرق للعالمين. وستُنقذ هايتي. وسيبدأ الزيت والنبيد والقمح والذهب والفضة التدفق مجدداً. وسيزدهر وطن التاينو مرة أخرى. وستُدخّن الكوهيبا عمّا قريب في جميع البلدان.

كان من بين العواقب العديدة للغزو المكسيكي تطوير مدينة ساحلية تدعى بوردو، التي أصبحت عاصمة فرنسا. وكانت المدينة التي وُقعت فيها معاهدة السلام، وتقرر تقسيم العالم الجديد.

انتقل أتاهاوالبا للقاء كواوتيموك. كان الجنرال المكسيكي قد تزوج ابنة فرانسوا، مارغريت من فرنسا، من أجل إضفاء الشرعية على سلطته في نظر الفرنسيين والحكم دون عوائق. ومنذ تمزيق صدر الولدين، لم يعد لديه ما يخشاه من العائلة المالكة، التي أصبح الآن ينتمي إليها.

لم يكن كواوتيموك مجرد محارب شرس، كان أيضًا رجل سياسة بارعًا تمكّن في وقت قصير من أن يستوعب العادات المحلية. وقد رأى مزايا التحول إلى دين الإله المسمر وقرر أن يُعمّد الابن الذي ستتجبه زوجته مارغريت باسم مكسيكي ليرسخ نسبه في التاريخ المحلي، ثم يُربى وفقًا للعادات والتقاليد المشرقية. وكان العرف السائد في هذا البلد هو أن يتخذ الملوك عددًا من الزوجات الثانويات، أطلق عليهن اسم «العشيقات»، وكُنَّ يُفضّلن في كثير من الأحيان على الزوجة الرئيسة، وكانت مكانتهن في بعض الأحيان أكثر فائدة. واحتفظ كواوتيموك بأرملة فرانسوا، إليونور، عشيقَةً له.

كان الولدينيسيون -وهم طائفة لوثرية في جنوب فرنسا، اضطهدهم الملك السابق- أول من انضم إلى السلطة الجديدة. وتبعتهم بقية البلاد دون حماس، ولكن من دون تمردات خطيرة. أمّا الانتفاضات التي اندلعت هنا وهناك، فقد قُمعت دون رحمة. كما حضر الاجتماع ملك البرتغال وملك إنجلترا - حليف الإنكا والمكسيكيين على التوالي.

واعترف المكسيكيون رسميًا بحيازة هنري الثامن السواحل الشمالية حول كاليه وبولوني، نظير مساعدته العسكرية خلال غزو فرنسا، لكنهم رفضوا مطالبه الإقليمية الأخرى. وقسمت نافارا إلى النصف بين إسبانيا وفرنسا.

وضمنت البرتغال سيادتها التي لا تنتهك، ومنحتها فرنسا نفس الترخيص الذي منحته لها إسبانيا للتجارة مع جزر الهند الشرقية.

وأعلنت كوبا وهايتي مناطق حرة في البحر المحيط، مع التزام استقبال السفن المصرح لها باستخدام الطرق البحرية الثلاثة التي تربط كوبا بقادش ولشبونة وبوردو.

وتخضع أرخبيلات جزر الأزور وماديرا وجزر الكناري لنفس الالتزامات، وقد جعلها موقعها الجغرافي المثالي بمثابة محطات توقف للسفن. غير أن البرتغال تنازلت عن أرخبيل جزر الأزور لفرنسا، وظلت ماديرا تابعة لها وجزر الكناري تابعة لإسبانيا. سُمح لإنجلترا باستكشاف طرق بحرية أخرى تمر بين أرخبيل الأزور وأيسلندا (جزيرة جليدية تقع شمال بحر المحيط)، وتضمن لها المعاهدة حيازة الجزر والأراضي التي الواقعة على هذا الشريط البحري.

واتفقوا على أنه: إن تاهت سفينة تابعة لإحدى الدول الأربع المذكورة أعلاه، وسلكت طريقاً بحرياً لم يُصرَّح لها به، فستدفع خمس حمولتها مقابل ضمان سلامتها إلى أن تبلغ وجهتها. أبرمت المعاهدة حول كؤوس من الشراب الأسود، الذي كان يحظى بسمعة طيبة هنا، وقد اتفق الجميع على أنه يستحق هذه السمعة.

في مكان آخر، اجتمع آخر المشرقيين الذين لا يزالون يقاومون الغزاة من البحر في بلدة في إيطاليا تُدعى تورينتو، حيث نظموا عديداً من المناقشات للنظر في أسباب هزيمتهم، ولما لم يستطع إلههم المسممر حمايتهم. (وإلى لحظة كتابة هذه الوقائع، لا تزال هذه المناقشات جارية).

كان فرديناند قد تراجع إلى ممالكه الشرقية -النمسا، والمجر، وبوهيميا- التي ما زالت تتيح له حكم رقعة شاسعة، وإن كان لا يزال تهديد الأتراك قائمًا، رغم انشغال سليمان بحروبه مع الفرس.

كانت جمهورية جنوة حليفة أتاهاوالبا والبندقية حليفة فيرديناند، لكنهما احتفظتا باستقلالهما. واستعادت إسبانيا دوقية ميلان.

ووقعت الإمبراطورية المقدسة معاهدات مع الدول اللوثرية في شمال ألمانيا: الدنمارك والسويد. وعُيِّن هاتوي أميراً أعلى لبحر المحيط. أعفيت ماري من المجر من وصاية هولندا، التي عُهد بها إلى هيغويناموتا.

ولم يرَ أتاهاوالبا الأميرة الكوبية ثانيةً قط.

85. موت الإنكا

استتب الأمن في الربع الخامس، وشهد حقبة من الوئام والرخاء.

وبدا لأتاهاوالبا أن يذهب إلى إيطاليا ليرى جمالها الذي كثيراً ما مُدح له، وكان ملهمًا لعدد من الفنانين الاستثنائيين. وقد يكون الدافع هو الحزن الذي استولى على الإمبراطور منذ أن اعتزلت الأميرة الكوبية في بروكسل، رافضة رؤيته مجددًا والرد على رسائله، باستثناء تلك التي تخص شؤون البلد. ربّما كان يبحث عن بعض التسلية التي تنسيه صديقه.

كان لورنزينو قد دعا أتاهاوالبا عدة مرات لزيارة فلورنسا، ولكن دون جدوى حتى الآن، لأن شؤون الإمبراطورية لم تترك له فترة راحة.

ومع ذلك، أبلغ أتاهاوالبا الدوق أنه سيأتي لزيارته في مدينته الشهيرة، بمناسبة عيد الشمس الرابع، في الحصاد السادس عشر من العصر الجديد.

وقد أصبحت هذه العطلة ذات شعبية كبيرة هنا لأن الهدف منها كان درء الأمراض. ومع ذلك، كثيرًا ما ضرب مدن الربع الخامس الطاعون، المرض القاتل الذي قضى على شعوب العالم الجديد.

وكان الصوم عندهم يبدأ في اليوم الأول من القمر الذي يسمونه سبتمبر.

وهنا، لا يخلطون الخبز الذي يخبزونه في الأفران بدم الأولاد الصغار، بل بدم الفتيات الصغيرات اللاتي لم يسبق لهن معاشرة الرجال، فهم يولون أهمية كبيرة لقلة الخبرة (فقط بالنسبة إلى الإناث، أمّا الذكور فلم يكن لقلة الخبرة هذه أهمية تذكر). وكانوا يسحبون دماء الفتيات الصغيرات بوخزهن بين الحاجبين، كما نفعل نحن في الديار مع الأولاد الصغار.

حتى ذلك الحين، بالكاد كان يعتري الإمبراطور شعور بالحنين إلى وطنه، وكان البعض يظن أن مزاجه الطبيعي قد حفظه من شعور لا يتناسب مع غزو عالم جديد. لكن ربما، بعد كل شيء، لم تمنحه سلسلة الأحداث الاستثنائية التي حدّدت حياته الفرصة قط. وما إن اكتشف الإنكا فلورنسا، اعتقد أنه قد فتح أبواب حلم أعاده إلى وطنه الأم.

احتفلت المدينة المزينة بألوان قوس قزح بوصوله. كان أتاهوالبا يجلس في عربة، يستمع دون انتباه إلى الإطراءات التي كان لورنزينو، الجالس بجواره، يرددّها. وراح يحدّق مدهوشاً في القصور التي أعادت إلى ذهنه حجارَتُها، رغم أنّها كانت مقصّوصة بشكل خشن، مباني الإنكا في موطنه.

وعلى الضفة الأخرى من النهر، في أعلى التلال، كانت هناك قلعة اعتقد أنّها ساكساياهوامان.

على سفح التل، ذكّرتّه الحدائق المتدرجة، التي انفجرت من قمّتها الألعاب النارية، بالمناظر الطبيعية في تاهوانتينسيو.

لكن قصر فيكيو، مقرّ الدوق وحكومته، هو الذي خلّف الانطباع الأقوى لديه. ربّما لأنّه سئم من حدائق قصر المورق الفاتنة التي تعبق بروائح أشجار البرتقال، ووجد في هذا الصرح الحجري الرمادي، الذي يعلوه برج مرصع، التعبير الصريح عن حكم يشبه الحكم الذي أقامه أسلافه دائماً. وبينما كان لورنزينو يشير بفخر لتمثيل ملك صغير يدعى ديفيد، كان قد وضعها في قاعة المجلس الكبرى، كانت روح أتاهوالبا تبهر من إمبراطورية إلى إمبراطورية. وفي النهاية، تظاهر بالضحك بلا سبب وطلب أن يتعرف على مهندس هذه العجائب، لأنّه كان مستعدّاً، على حدّ قوله، أن يقيم له جسراً ذهبياً لإحضاره إلى إشبيلية. فضحك لورنزينو أيضاً، لأن الآداب كانت تستوجب ذلك، لكنه لم ينس كيف أنّه هو نفسه، إرضاءً لسيدّه، قد جرد فلورنسا في الماضي من أعظم نحاتيّها، وذهب به إلى الأندلس. (في الواقع، كان هذا النحات قد غادر بالفعل إلى روما، لكنه لا يريد أن يتذكر ذلك).

في الواقع، كان مايكل أنجلو العجوز لا يزال على قيد الحياة، منكبًا على رسم المخططات في ورشته في إشبيلية، التي كان أتاها لبا يحب زيارتها عند حلول الظلام. لكن لورنزينو الذي كان مايكل أنجلو يعرفه لم يعد موجودًا. فقد أطلق دوق فلورنسا على نفسه الآن اسم لورنزو. لقد كان شابًا في مقتبل العمر، يحكم إمارته بحكمة وحزم. وكانت زوجته، الدوقة كيسيبي سيسا، من أعظم عجائب توسكانا برمتها، وقد أنجبت له طفلين جميلين كان يعشقهما. وكانت مدينته بالفعل جوهرة يشيد بها الربيع الخامس بكامله. كما توصل إلى عقد السلام مع روما وجنوة. وفرضه حتى على فيينا، عاصمة مملكة فرديناند. وتوافد أعظم فناني الإمبراطورية إلى بلاطه.

باختصار، كان لورنزو دي مديتشي هو صاحب السيادة. ومع ذلك، فإنّ الطموح إلى السلطة لا يقبل نداءً، ولا اثنين. هل شعر أتاها لبا بالغيرة؟ هل أراد أن يعيد فرض سلطة شعر أنّها مهددة من روائع فلورنسا؟ هل أراد إذلال تابعه ليجعله يدفع ثمن الروعة التي أظهرها؟ إن كان الحال كذلك، فإن سلوكه كان مستهجنًا، أم أنّه ببساطة أراد أن يؤكد امتيازات أجداده؟ لكن عادات الربيع الخامس تختلف عن عادات تاهوانتينسويو، وكان على الإمبراطور، أكثر من أي شخص آخر، أن يأخذ ذلك في الحسبان.

فضلاً عن ذلك، أذهله جمال أخته. فقد كانت ذات وركين عريضين وصدر ناعم، وبشرة شابة تعلوها سُمرة. ويظهر الشكل البيضاوي لوجهها من خلال شعرها الأسود الذي تركته يسقط على كتفيها العاريتين، وقد قلدها في هذا نبيلات إيطاليا، وحتى

النساء العاديات، اللائي أردن جميعاً تقليد أسلوبها . وانتقدت حواس أخوها التي قيل إنها لم تتقد منذ الزمن الذي التقى فيه الأميرة هيغويناموتا على متن سفينتهم المتجهة إلى لشبونة . فأخبر الدوق أنه يريد استعادة أخته . لكن هذا الأخير لم يكن يميل إلى التنازل عن زوجته ، وإن كان للإمبراطور نفسه . غير أنه كان يعلم أنه لا يرفض للإنكا طلباً . وممّا لا شك فيه أن كيسبي سيسا نفسها كانت تميل إلى ذلك ، وكانت ستعدّ طلب أخيها بمثابة شرف لا يُردّ .

ثم لجأ لورنزو إلى الحيلة والخداع . فتظاهر بقبول طلب أتاهاوالبا بطيب خاطر ، وذهب إلى حد التظاهر بالإطراء ، لكنه وجد ذرائع لتأجيل الأمر : زوجته كانت في فترة حيضها ، أو أنها أرادت أن تستعد على أفضل وجه ممكن لاستقبال سيدها وأخيها . وكان عليها أن تصوم أكثر . إنها تنتظر من البرتغال مستخلصات نادرة من الهند أرادت أن تعطر بها نفسها . وقام أفضل النساجين في المدينة بتجميع زينة تليق بهذه المناسبة ، التي يجب حياكتها بأجود الخيوط الذهبية .

في هذه الأثناء كان لورنزو يتفاوض سرّاً مع واحدة من أغنى العائلات في فلورنسا ، آل ستروزي ، المنافسين القدامى لآل مديتشي ، الذين كانوا يتطلعون إلى العودة إلى الجمهورية . (لقد أشرت بالفعل إلى هذا الشكل الأصلي للحكومة حيث تتشارك مجموعة من النبلاء في السلطة ويختارون حاكمهم ، كما هو الحال مع دوق البندقية أو دوق جنوة) .

بمّ وعد لورينزو آل ستروزي؟ وأيّ يمين طأش أبرموا به هذه

الصفقة؟ ما الدعم الذي يمكنهم الاستفادة منه؟ مدينة البندقية؟
ربّما. فرديناند؟ هذا غير المحتمل. ما الذي كانوا يتوقعونه من
مضطهد الأمس إن لم يكن الوعد باستبداد جديد؟ كان لورنزينو
الشاب قد لجأ إلى الإنكا لا لشيء سوى طرد ابن عمه ألكسندر،
صنيعة آل هابسبورغ. البابا إذن؟ كان هذا مرجحاً أكثر. وكان رئيس
المصلين للإله المسمر قد أيّد على مضض تتويج أتاهاوالبا، وكان
قلقاً بشأن الإقبال على اعتناق دين الشمس. فضلاً عن أنّه كان
معتاداً على مكاييد مماثلة: ألم يحاول، من روما، اغتيال دوريا في
جنوة قبل ذلك بوقت قصير؟

خاطب لورنزو آل ستروزي وريتشي وروتشلي وفالوري وأكيايولي
وغويتشارديني وحتى آل بازي وألبيزي، الذين كانت لديهم كل
الأسباب لكراهية عائلته، قائلاً: «لا يخفى على أحد أن الوقت الذي
مضى، لم يستطع شيء أن يخمد الرغبة في الحرية، ففي كثير
من الأحيان كنّا نسمع أنّهم قد أعادوا إحياءها، في هذه المدينة
أو تلك، أولئك المواطنون الذين لم يسبق لهم أن تذوقوا طعمها،
أو الذين أحبّوها فقط من خلال ما سمعوه عنها من آبائهم، ومن
يستعدها بهذه الطريقة، سيدافع عنها بإصرار ضد كل الصعاب؛
وحتى حين لا يكون آبائهم هم من يذكرهم بذلك، فستفعل ذلك
القصور العامة، ومجالس القضاء، وشعارات المؤسسات الحرة،
وكل الأشياء التي ينبغي لجميع المواطنين الصالحين أن ينظروا
إليها بكثير من المراعاة».

في الحقيقة، كانت نيّات لورنزو السياسية غير واضحة، فقد
بدا الرجل متأثراً بدوافع شخصية. ومع ذلك، فإن تصميمه لم

يكن أقل ثباتًا. وقال لمن أبدوا التردد إنه لمن الجبن تحاشي مسعى مجيد لمجرد أن نتيجه غير مؤكدة.

سرعان ما تسبب الاضطراب الذي أثارته خطط الدوق بكشفها .

ووصلت أخبار عن مؤامرة تُحاك للإنكا إلى جواسيس رومينا هوي الذي حاول تحذير سيده، لكنّ هذا الأخير تجاهلها. ربّما، لو كان تشالكو شيماك حاضراً، لكان أقنعه بالخطر، فقد كانت الدسائس والمؤامرات مجاله، وليست مجال الجنرال العجوز ذي العين الحجرية. لكن ربما كان أتاهاوالبا منهكاً للحد الذي جعله يتخلى عن الحذر، والانتباه إلى الإشارات، وغريزة البقاء الحيوانية. ربما شعر الإنكا -فاتح العالم الجديد، إمبراطور الربع الخامس- بأنّ مهمته على الأرض قد اكتملت، وأنّه ينبغي وضع حد لها بطريقة أو بأخرى. لا شك في أنّ الرجل الذي كان له نصيب أعظم من باتشاكوتيك العظيم كان يتوق إلى الراحة. هل كان يفكر في ملاذ شمس في مكان هادئ، محاطاً بأشجار البرتقال، واللوحات، وأوراق الكلام، والنساء المحظيات، وهو يدخل الكوهيبا فيما يُملّي مذكراته؟ لن نعرف أبداً.

استمرت الاحتفالات مدة تسعة أيام.

أقيمت الألعاب في ساحة سانتا كروس، ثمّ ذبحت عديد من حيوانات اللاما البيضاء الصغيرة وشويت على السيخ، وتناول الناس الولائم مع النبلاء وسط الرقصات والأغاني.

في الليل، كان رسل الشمس يركضون في الشوارع، ويلفون مشاعلهم مثل المقاليع، ثمّ يلقون بها في نهر أرنو، ليحرق التيار

الشرور التي طردوها من منازلهم ومن مدينتهم إلى البحر.
في الصباح تجمع السكان في القداس بعد ساعات قليلة من
النوم. كان دين الإله المسمر لا يزال يمارس بكثرة في فلورنسا،
التي كان بها أعظم معبد في كل الربيع الخامس. لقد كان صرحاً
من الرخام الأبيض يرتفع إلى السماء وبدا كما لو أنه قد نُحت
قطعة جواهر عملاقة من قبل أرقى صاغة لامبايكة. وكان
أتاهوالبا قد حضر القداس في اليوم الموالي لوصوله لكنّه
استغنى عنه منذ ذلك الحين، وترك رومينا هوي يمثله في هذه
الاحتفالات الرسمية، التي يعرف مدى أهميتها بالنسبة إلى
المشرقيين، لا سيما في إيطاليا. ونفذ الجنرال العجوز مهمته
بجد، إن لم يكن بابتهاج.

أمّا بالنسبة إلى الدوقة كيسبي سيسا، فقد كانت تحضر
القداس عادة لإرضاء الفلورنسيين الذين كانوا يحضرون لتأمل
جمالها، لكن تعاقب الحفلات التي نظمت تكريماً لوصول
الإمبراطور جعلها أقل مواظبة. وجعلها التعب الليلي تفضل
الكوابيس على حكايات الإله المسمر.

كان الدوق قصيراً ونحيفاً، ولهذا لم تكن لديه أيّ نية للتغلب
وحده على أتاهوالبا، الذي كان أطول منه، وذا لياقة بدنية ملحوظة.
ولكن كان لديه في خدمته يانا متفان جداً، يدعى سكورنكونكولو،
كان يوكل أكثر المهام حساسية، فينوب عنه في تنفيذها. وسأله
الدوق إن كان مستعداً لأن ينتقم له من عدو كبير دون أن يكشف
له طبيعة مشروعه، فقبل إن اليانا أجاب: «نعم يا سيدي حتى من
الإمبراطور نفسه». وعليه، وضع لورنزو خطة المؤامرة الآتية: في

الصباح، في أثناء القداس، سيستدرج أتاهاوالبا إلى غرفته، ويؤكد له أن أخته في انتظاره هناك، لكن في الحقيقة سيكون اليانا هو من ينتظره مختبئاً خلف الباب، هذا للقضاء عليه. في الوقت نفسه، سيطعن أتباعه روميناھوي في المعبد الكبير، معتمدين على وجود الحشد والفوضى للفرار. (حين سلّم لورينزو على الجنرال العجوز، مرّر يده على صدره، متظاهراً بالود، للتأكد من أنه لم يكن يرتدي درعاً أو زرداً تحت عباءته). ثم سيلتقون في قصر فيكيو، الذي كان مقر الحكومة، ومن هناك سيدعون السكان لأن يثوروا في وجه الاستبداد الإمبراطوري، وسيعلن لورنزو عودة الجمهورية.

وجرى الأمر على هذا النحو: خلال المأدبة المسائية التي أعقبت ألعاب ساننا كروتشي، همس لورنزو إلى أتاهاوالبا بالمكان والزمان اللذين يمكن أن يلتحق فيهما بالدوقة. كان عليه فقط الذهاب إلى قصر ميديتشي في وقت القداس، وسيقوده الدوق نفسه إلى الغرفة حيث تنتظرهم كيسبي سيسا. فصدّق الإمبراطور بسهولة الخبر الذي لطالما انتظره. وأمضى بقية المساء يمازح أخته، لكن لم يذكر أيّ منهما موعدهما القادم - فكيسبي سيسا لم تكن لديها أي فكرة، وأتاهاوالبا لم يذكر الأمر من باب اللباقة. أقيمت المأدبة، في ذلك المساء، في قصر ضخم اشتراه آل ميديتشي حديثاً، يقع على مرتفعات أولترارنو، وهي منطقة في فلورنسا أقاموا فيها. وعندما غادرت الدوقة، توجهت للمبيت في إقامتها الجديدة، بدلاً من عبور المدينة مرة أخرى للعودة إلى قصر ميديتشي القديم الذي لا تزال تمتلك غرفة فيه. ولهذا،

كان الدوق حريصًا على أن لا يبلغ أتاهاوالبا بهذا التفصيل، لأنه أراد أن لا يجد، في اليوم الموالي، أحدًا خلف باب تلك الغرفة، بخلاف الموت.

انتهت الحفلة. ورأى آخر الشهود الإمبراطور يسير في حدائق القصر متّجهاً إلى قلعة بلفيدير التي كانت تطل على ريف توسكان. وتوقف للحظة عند الأسوار، وحده، يتأمل شروق الشمس في إعجاب. وامتزجت الهيئة المظلمة لأشجار الصنوبر مع الأبراج المشقوقة التي تخترق السماء عند قمم التلال. بعد الاحتفالات الكبيرة، كان طعم المدينة موحلاً في الصباح. التحق أتاهاوالبا بقصر فيكيو حيث كان يقيم، استعداداً للقاءه. وكان يرغب في العودة سيرًا على الأقدام، في موكب صغير، ليتذوق نسائم الفجر. وعبر جسر فيكيو الذي بدأ ينبض بالحياة، وتخطى أجساد المخمورين المستلقية عند المزاريب، وتجنب، كرد فعل غريزي أكثر منه تطيّرًا، المشاعل المنطفئة التي استخدمت لإبعاد شرور المدينة، وكانت لا تزال متناثرة عبر الشوارع، بعد أن عجزت عن إيجاد طريقها إلى النهر.

في الوقت المحدد، ظهر، مرتدياً عباءة ضيقة من صوف الألبكة، عند باب قصر ميديشي، وقد تعرف عليه بشعاره الخاص: خمس كرات حمراء تعلوها كرة زرقاء. وجاء الدوق بنفسه ليفتح له البوابة. فصرف أتاهاوالبا مرافقيه، وعبرا حديقة من أشجار البرتقال مليئة بالتماثيل القديمة، ثمّ صعدا فناء داخليًا به أقواس منحوتة بدقة، وصعدا معًا السلم الحجري الذي يفضي إلى الغرف الخاصة، وعبرا كنيسة صغيرة كانت جدرانها مغطاة

بالكامل بمشاهد الصيد، وقد روى لورنزو لاحقاً أنّ الإمبراطور توقف أمام إحدى اللوحات، وسأله عن أسماء بعض الحيوانات التي كانت مرسومة فيها. ثمّ مرا بعدة غرف متتالية وصولاً إلى غرفة الدوق. فقام الأخير بطرق الباب ثلاث طرقات خفية، وتتحى جانباً للسماح للإمبراطور بالمرور.

كانت الستائر مسحوبة؛ ما جعل الغرفة غارقة في الظلام. وبالكاد كان يمكن تمييز السرير، وربما بدت له هيئة أسفل الملاءات، مع أنّها كانت مجرد وسائد: وكان ذلك كافياً لتحفيز رغبة أتاهاوالبا، فتقدم إلى الأمام. كان السرير فارغاً، بينما كان رجل الدوق ينتظر خلف الباب والخنجر في يده.

كان ينوي غرز الخنجر في حلق الإمبراطور، لكن الظلام كان شديداً، فاضطر إلى أن يصب نحو هدفه بالتخمين فقط، فأصاب النصل الكتف. وصرخ أتاهاوالبا واستدار وانقض على مهاجمه. فطعنه سكورونكونكولو في خاصرته بالسكين، لكن الإمبراطور كان يتمتع ببنية قوية وكاد يخنقه بيديه لولا أن تدخل لورنزو. كان على الدوق، الذي لم ير شيئاً، أن يسحب الستائر أولاً. فأضاء نور الشمس الغرفة، كاشفاً عن الصراع العنيف بين الرجلين اللذين كانا يتدحرجان على الأرض. كان أتاهاوالبا على وشك الغلبة، عندما طعنه الدوق بخنجره في ظهره طعنة غائرة. لكن كانت لا تزال لدى الإمبراطور القوة للانتفاف ورؤية قاتله. «أهذا أنت يا لورنزو؟» كانت هذه كلماته الأخيرة، لكن جسده، مع أنّه كان مثخناً بالجراح، لم يخمد بعد. فزمجر وهو يلقي بنفسه على الدوق، وعض إبهامه، وتهاوى فوقه.

وهكذا مات الإمبراطور أتاهاوليا .

في الوقت نفسه، بدأ القديس في المعبد الرخامي العظيم، لكن رومينا هوي لم يكن هناك . فتملكت المتأمرين الذين جاؤوا لطفه الحيرة . وبينما كان الكاهن يخاطب الحشد باللاتينية، كانوا يناقشون ما عليهم فعله . وحين ارتفعت ترانيم إخوانهم في الدين تحت القبة العظيمة، قرروا التوجه إلى قصر فيكيو . ولحسن حظهم كان الجنرال هناك يتفقد بعض الأعمال . (وكان قد بلغه وجود تحركات لقوات مشتبته فيها حول بلدي بيزا وأريزو المتجاورتين) . وطلبوا رؤيته على وجه السرعة، فاستقبلهم رومينا هوي في قاعة الخمسمئة الواسعة، التي اعتاد المجلس برمته الاجتماع فيها، وسط التماثيل التي تمثل جميعها تقريباً مشاهد لمشاجرات الوحشية، باستثناء تمثال الملك الصغير ديفيد . وكان من بين الحضور أعضاء مجلس الشيوخ باتشيو فالوري، ونيكولو أكيابولي، وفرانشيسكو غويتشارديني، وفيليبو ستروزي، بالإضافة إلى أحد أفراد عائلة باتزي . وأحاطوا بالجنرال، لكنهم لم يجروؤا على الإقدام على أي فعل بسبب الحراس الواقفين على أبواب القاعة، الذين لم يُشركوا في المؤامرة، وهو ما جعل من الصعب توقع رد فعلهم . حاول أعضاء مجلس الشيوخ أن لا يثيروا شكوك الجنرال، لأنهم لم يعرفوا ما الذي ينبغي لهم فعله، لذلك تظاهروا بتحذيره من أن تمرّدًا عسكريًا كان يختمر في توسكانا، بدعم من روما، وكان هذا صحيحًا . (وقد أغفلوا فقط ذكر أنهم كانوا هم المحرضين) . وفيما راحوا يحومون حول الجنرال مثل الطيور الجارحة، ظهرت كيسبي سيسا في رداء أبيض من الحرير . لقد فوجئت

عند استيقاظها بعدم وجود زوجها أو شقيقها في قصر بيتي. لذلك اتجهت نحو القبة، وحين لم تجدهما هناك، عرجت إلى قصر فيكيو.

أين كان لورنزو؟ أين كان الإمبراطور؟ من الواضح أنّ أعضاء مجلس الشيوخ غير قادرين على الإجابة عن هذين السؤالين، لذلك تظاهروا بالتعجب، كأنهم اكتشفوا للتو غيابهما. لم يكن رومينا هوي يعرف هؤلاء الرجال، ولا يتحدث الإيطالية، لكن الدوقة كانت تعرفهم جيداً. وشعرت بشيء غريب ومريب في تصرفاتهم، الذي لم يكن مجرد ارتباك رسمي. فراقبت تلغثمهم، ورأت ترددهم، وتعرفت على علامات الخوف على خلف ارتباكهم. تعالت أصوات ضجة قادمة من الخارج. فأصغى أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة والدوقة والجنرال إلى هذه الضجة وهي تتزايد، كاسرة الصمت الميت السائد الآن في قاعة المجلس. خاطبت كيسبي سيسا الجنرال بلغة الكيشوا.

وسمعوا أصوات محتجين وهم ينادون الجمهورية باسم مديتشي.

ثم بدأ خبر موت أتاهاوالبا ينتشر، إلى أن بلغ قاعة الخمسمئة، فشحبه وجه الدوقة. وشجّع نجاح لورنزو في إنجاز مهمته أعضاء مجلس الشيوخ ومنحهم مزيداً من الجرأة، فهمّوا بسحب خناجرهم، لكن رومينا هوي كان على أهبة الاستعداد. وسحب عملاق الإنكا فأسه ومطرقة من حزامه، وفتح جمجمة مهاجمه الأول، وفقاً عين الثاني، واعتقل الحراس الثلاثة الآخرين الذين استولى عليهم الذهول.

في الخارج، كان المشاغبون، بقيادة روتشيلي وألبيزي، يقرعون أبواب القلعة. فأمر رومينا هوي بإحكام غلقها. وخاطب أحد القادة، ربما كان ليون ستروزي، نجل السيناتور، الذي كان يتمتع بصوت شاب وجهوري، الجنرال وأمره بالاستسلام باسم الحرية. فقد مات الإمبراطور، وكانت قواته أقل عددًا، وأعلن قيام الجمهورية. تزايد القرع على الأبواب.

لم يكن لورنزو حاضراً، لكن الحشد هتف له. «يعيش الدوق! تحيا الجمهورية!». كانت كيسبي سيسا تعرف أخلاق الفلورنسيين، وآل مديتشي أولهم. ولم يكن لديها أدنى شك في أن لورنزو وشركاءه هم من حرضوا على هذا التمرد. ولا شك في أن معظم مثيري الشغب الذين كانوا يصرخون في الخارج قد تلقوا رشوة. وطالب ابن ستروزي بتسليم رومينا هوي. فقد اعتقد المتآمرون أنه بمقتل أتا هوالبا، فإن كل ما يحتاجون إليه الآن للسيطرة على الوضع هو إلقاء القبض على جنراله.

كانت غلطة لورنزو أنه لم يحضر إلى ساحة قصر فيكيو. ولو أنه ظهر للناس في تلك اللحظة، لكان قد جمع كل أهل فلورنسا وتوسكانا وإيطاليا، وحتى نابولي. لكن ربّما تفاجأ في البداية حين لم تبلغه أي أصوات جلبة قادمة من المعبد حيث كان من المفترض أن يطعن رومينا هوي. وربّما أراد الانتظار ريثما تأتيه أخبار بآخر التطورات، وردود أفعال الفلورنسيين، ليعرف إن كان يحظى بدعم من الشعب. وكان يفترق إلى الجراة التي أظهرها في قتل الإمبراطور لجني ثمار مقتله.

ومع ذلك، تجمع حشد هائل أمام قصر فيكيو.

فكّر رومينا هوي في حلّ. كان على علم بوجود ممر يربط القلعة بالجانب الآخر من النهر، واقترح على الدوقة أن تأخذه دون تأخير. ومن هناك، يفرّون من المدينة، التي من الواضح أنها ضاعت من بين أيديهم، ويتجهون نحو ميلانو، ومن هناك يتجهزون للرد. أو يمكنها البقاء مع زوجها إن أرادت ذلك. فقد فهم صراع الولاءات الذي كان يدور في عقل الدوقة. ولكن مهما كان القرار الذي ستتخذه، كان عليها اتخاذها على الفور.

وأشارت كيسبي سيبا إلى أعضاء مجلس الشيوخ الخمسة الذين كانوا مستلقين على الأرض، وقد مات اثنان منهم، وقالت للجنرال، باللغة القشتالية، حتى يفهمها الجميع: «اشنقوهم على الأسوار». نظر المصابون الثلاثة إليها بذهول، فأردفت: «الآن». ألقى المتمردون من أعلى البرج بطرف حبل. فصرخ الحشد مدهوشاً. ثم ظهرت كيسبي سيبا على الشرفة، مرتدية فستانها الأبيض. فساد الصمت الساحة، وتعلقت بها كل الأعين.

صرخت: «فلورنسا!» وذهل الحاضرون كيف لمثل هذا النفس الأجلش في صوتها أن يصدر من مثل هذه الهيئة النحيفة. وتابعت مشيرة إلى الجثث المتأرجحة: «فلورنسا! ها هم أولاء الذين يريدون سقوطك! انظري إلى وجوههم: إنّها وجوه الخيانة. انظري إلى ثيابهم الجميلة: إنّها ثمن عرقك ودمك. ما الذي يريده هؤلاء الخونة؟ ترك الإمبراطورية. لماذا؟ لممارسة طغيانهم بحرية على الشعب. تذكر يا فلورنسا أن التخلي عن الإمبراطورية يعني التخلي عن قوانينها. هل تريدين العودة إلى الأيام الخوالي، عندما امتص عدد قليل من العائلات نخاعك؟ هل تريدين عودة

أعداء الشعب هؤلاء؟ هل تريدون نهاية المحلات العامة؟ من أين ستحصلين على خبزك للمجاعة القادمة؟ أين كان هؤلاء الخونة أيام الطاعون؟ أين كانت بيوتهم لمرضاك؟ ماذا فعلوا لشيوك وأطفالك؟ احترسي يا فلورنسا، لا تدعي نفسك تثملين بالكلمات الفارغة لأكلة اللحم البشري هؤلاء. بلغني أنّ الإمبراطور قد مات، هل اغتاله الدوق؟ إذا كان هذا صحيحًا، فسأعدّ الدوق من الخونة، وأعرض أربعة آلاف فلورين لمن يأتيني به حيًا، ليحاكم. وأعرض ألفًا لمن يأتيني برؤوس شركائه! وعند هذه الكلمات أشارت إلى ابن ستروزي وآل روتشيلي الذين رصدتهم من بين الحشد. انتشرت البلبلة عبر الساحة. وتابعت الدوقة خطابها: «إن كان أخي قد قُتل، فلا يشكّن أحد في أنّ فلورنسا هي التي قُلت. فلورنسا، فلتحيي! انهضي! يا جوهرة الإمبراطورية، لا تسمح لي هؤلاء الطغاة الجشعين بالعودة! يعيش القانون! تحيا توسكانا! تحيا فلورنسا!» وعند هذه الكلمات، اخترق شعاع من ضوء الشمس الغيوم. ثمّ رفعت الدوقة ذراعيها إلى السماء، وقالت آخر عبارة تحريضية: «تحيا إمبراطورية الشمس!» عاش الشعب والموت للخونة!

عند هذه الكلمات، هبّ الحشد المشحون هادرًا كالموج. ومزقوا عائلة روتشيلي وألبيزي إربًا إربا، فيما تمكن ابن ستروزي من الهرب، وشق طريقه بالسيف نحو نهر أرنو. عندما رأت كيسبي سيسا أنّها قلبت الموازين، عادت إلى المنزل راضية، وقالت لروميناهوي: «اذهب وائت لنا بالمدد من ميلانو».

تأكد لهم نبأ مقتل أتاهاوالبا ظهرًا. وكتبت كيسبي سيسا رسالة إلى كويا أسارباي، وعهدت بها إلى أفضل شاسكي، لتبلغها بالموقف دون تأخير، حتى تتمكن كويا من إعداد خلافة ابنها، الإنكا المستقبلي شارل كاباك.

هرب لورنزو. وقيل إن زوجته هي من زودته بحصان وأمرت سرًا بفتح أبواب المدينة أمامه، فلجأ إلى البندقية، وهناك اغتيل على يد جواسيس تشالكو شيماك الذين ألقوا بجسده في البحيرة. (ثمّة لوحة تمثل هذا المشهد للرسام الشهير فيرونيس). أرسل كويكويز إلى إيطاليا على رأس جيش عرمرم لإحلال السلام في توسكانا، وحمايتها من هجمات روما. واستولى على مدينة بولونيا التابعة للبابا، واستقر هناك. وأصبح حاكم المدينة، ثم دوق إميليا ورومانيا. ومن هاتين المنطقتين في إيطاليا، مارس سلطة كبيرة على هذا البلد، واستطاع حماية فلورنسا من أي عدوان آخر. وتزوج كاثرين دي مديتشي -التي كانت أرملة هنري، نجل فرانسوا الأول- وأنجبت منه تسعة أطفال.

حُطّطت جثة أتاهاوالبا وأُعيدت إلى الأندلس. واستمرت جنازته مدة عام حسب تقاليد الإنكا. وترقد مومياؤه الآن في كاتدرائية إشبيلية، بجانب منافسه القديم شارلكان وزوجتهما إيزابيلا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الجزء الرابع
مغامرات سرفانتس

1. الظروف التي غادر فيها الشاب ميغيل دي سرفانتس

إسبانيا

في حيّ في مدريد لا أرغب في تذكر اسمه، عاش منذ وقت ليس ببعيد بناءً، من أبناء الفلاحين، وزوجته الشابة التي لم تكن جميلة وجريئة فقط، بل كانت ثرية ثراءً جعل جميع القضاة والرقباء المحليين رهن إشارتهما.

وحدث ذات مرة أن وقع البناء في نزاع مع شاب من حيه، كان يحمل اسم ميغيل دي سرفانتس سافيدرا الجميل. وكان الفتى، الذي لم يبلغ الخامسة والعشرين من العمر بعد، حسن المظهر، وعلى قدر من الثقافة. وكان مغرمًا بالشعر، ورأسه محشو قليلًا بمسرحيات لوبي دي رويدا. وعلى الرغم من أنّه كان يتلعثم قليلًا في الكلام، إلا أنّه سحر كل من قابله.

يُقال إنّ البناء عثر ذات يوم على الشاب مع زوجته في حظيرة أو إسطلب قريب. ولا تخبرنا القصة إلى أي مدى بلغت بهما هذه المتعة غير المؤذية، رغم أنّ التخمينات تقول إنّهما قد تجاوزا الحدود بكثير؛ لكن هذا لا يهم حكايتنا: إذ يكفي في سردها أن لا نحيد عن الحقيقة قيد أنملة.

لذلك تجدر الإشارة إلى أنّ الشاب قد أصاب البناء في أثناء مبارزة بينهما، حدثت على الأرجح تحت أقواس ساحة بلاثا مايور. غادر الشاب ميغيل، الذي كان يدرك قوة علاقات البناء وتأثير معارفه، المدينة حتى لا يعرض نفسه لغضب العدالة التي يعرف جيّدًا ميلها إلى ترجيح كفة الأغنياء. لذا، لاذ إلى نزل في لامانشا،

حيث استقر في دور علوي بدا من الواضح أنه كان لعدة سنوات عليّة للقش. ولحسن حظه أنه غادر، فبعد مدة وجيزة وصلته أخبار عقوبته من مدريد: لقد حُكم عليه بقطع يده اليمنى علناً، فضلاً عن طرده لمدة عشر سنوات من الإمبراطورية.

وهكذا لم يكن أمام ميغيل أي هدف آخر سوى مغادرة إسبانيا بأسرع ما يمكن، للهرب من العقوبة القاسية التي سلطت عليه. ومكث مختبئاً لبضعة أيام آخر في عليّة النزل، حيث كانت تأتي خادمة ملزمة لتزويده بالطعام مع حلول الظلام ثم غادر مع ستة حجاج كانوا في طريقهم إلى فيتتبرغ لرؤية أبواب الكنيسة التي علقت عليها ذات مرة رسائل الشمس الشهيرة. فرحبوا به معهم بكل سرور، وقد قدّروا من خلال مظهره الحسن أنه سيتمكن من تحصيل ريال فضي واحد على الأقل كصدقة من كل بلدة صغيرة يمرون بها. وما إن صنع لنفسه عصا ذات رأسين وحقيبة من جلد الخنزير، حشتها له الخادمة التي أحبته بالخبز والجبن والزيتون وزجاجة نبيذ يروي بها عطشه، انطلقوا شمالاً متجهين نحو سرقسطة.

وقلّص الكتب العديدة التي كان يمتلكها إلى كتاب ساعات الصلاة لنوتردام وكتاب الشاعر غارثيلاسو دون شروح، حملهما في جيبَيْه.

كان الحجاج يخططون لعبور فرنسا للوصول إلى ألمانيا، لكن في نزل توقفوا فيه في طريقهم إلى سرقسطة، قيل لهم إن هذا سيكون جنوناً عظيماً، بسبب الاضطرابات التي اندلعت في نافارا وجزء من أوكسيتانيا، حيث تمرد الناس على التاج المكسيكي.

لدى سماع هذا، تخلّى الحجاج عن فكرة العبور على سرقسطة، وغيّروا مسارهم إلى برشلونة، حيث انطلقوا بحثاً عن قارب يسمح لهم بالالتفاف على الطريق البري الذي كان مغلقاً أمامهم. وأخيراً، عثروا على كنار كان في طريقه إلى فلورنسا مع شحنة من النبيذ، وبالتالي كان العبور، على الرغم من طوله، ممتعاً، لأنهم أمضوا الرحلة كلها يحتسون النبيذ، وهبطوا على أرض إيطاليا يترنحون ويتميلون. حينها، لم يكن الشاب ميغيل يعلم أنه سيعود إلى البحر عمّا قريب، ولا في أيّ ظروف.

2. من لقاء الشاب سرفانتس مع اليوناني دومينيكوس ثيوتوكوبولوس⁽¹⁾ الذي نقله إلى البندقية

ثمّ حكم الدوق الأكبر كوزيمو هوالبا دي مديتشي فلورنسا، وهو الابن الأكبر لكيسبي سيسبا التي لا مثيل لها والملك لورينزا شيو. وإن كان الدوق الأكبر يتمتع بحرية نسبية في الحكم، فإنّ المدينة نفسها وكل توسكانا التي كانت تحت حكمه، لم تكن سوى جزء من الربع الخامس، الذي نُفي منه ميغيل الآن لمدة عشر سنوات، يلاحقه التهديد بالحرمان من يده اليمنى. ففكّر في الذهاب إلى روما لالتماس ملجأ هناك، لكن الشائعات عن تحركات القوات إلى المدينة المقدسة التي قيل إنّها تحت الحصار أثّره عن الإقدام على مثل هذه الخطوة. وفضل اتباع أصدقائه الحجاج

(1) دومينيكوس ثيوتوكوبولوس (1541 - 1614)، المعروف باسم إل غريكو وتعني اليوناني، رسام ونحات إسباني من أصل يوناني. عرفت لوحاته بالطابع الديني.

إلى بولونيا، حيث كان يحكم أيضًا أحد أفراد آل مديتشي -الدوق إنريكو يوبانكي، بمشورة من والدته كاثرين، أرملة الجنرال الكبير كوزكويز- ثم إلى ميلانو، التي كانت لا تزال أرضًا إمبراطورية. ومن هناك، وصل معهم إلى سويسرا، حيث كان يأمل أخيرًا أن يفلت من قبضة العدالة القاسية، ويهنأ بأيام أهدأ في جنيف أو بازل أو زيورخ.

غير أن القدر كان قد قرر خلاف ذلك. ففي ضواحي كومو، صادفوا دورية من الكيتونيين، الذين قدموا إلى شمال إيطاليا، لتفقد جميع من يفد على الربيع الخامس، ومن يغادره. وعلى الرغم من أن الوثام قد ساد في عهد الإمبراطور شارل كاباك، فإن عديدًا من كبار السن المسيحيين رفضوا التعايش مع أبناء الشمس، فضلًا عن العيش تحت حكمهم، وحاول بعضهم الالتحاق إما بروما، وإما بالبندقية، وإما بفيينا (بل وحتى القسطنطينية، بالنسبة إلى البعض الآخر، بحجة أنهم ما زالوا يفضلون شرائع محمد على شرائع الوثنيين القادمين من المغرب، فالترك، على الأقل، لا يعترفون إلا بإله واحد).

كان أصدقاءه الحجاج قد تحولوا منذ مدة طويلة إلى دين الشمس، وارتدوا حول أعناقهم الشموس الذهبية الصغيرة التي تشهد على دينهم، لكي لا يجدوا صعوبة في تبرير وجهتهم. لكن القدر القاتل، الذي يوجه كل شيء بطريقته الخاصة ويرتبه ويسويه، لم يرغب في أن يكون هذا هو حال الشاب ميغيل، الذي أذهلهم ألا يجدوا شمسًا صغيرة معلقة حول عنقه، بل وأكثر من ذلك، أن يكتشفوا في حوزته كتابًا لساعات الصلاة، الذي لا بد

من القول إنه لم يدعم حقًا مزاعمه حول الحج إلى معبد الشمس في فيتنبرغ. علاوة على ذلك، لم يستطع تقديم أي شهادة أو توصية بشأن سبب رحلته أو حتى هويته، ولهذا اعتُبر مسيحيًا من قدامى المسيحيين، يسعى للوصول إلى فيينا عبر سويسرا، وأعيد إلى ميلانو مُصفّدًا.

من ميلانو سار إلى جنوة، مقيّدًا بالسلاسل إلى سجناء آخرين، كان من المقرر إرسالهم إلى القوادس، فيما تقرر إعادته إلى إسبانيا على متن القارب الأول حتى يتسنى للعدالة توضيح قضيته.

وهكذا، سار اثنا عشر رجلًا مكبلي الأيدي، تطوّق أعناقهم سلسلة كبيرة، وتربطهم ببعض مثل خرزات سبحة. يرافقهم رجلان يمتطيان جوادين وآخران راجلين. وكان الفارسان يحملان البنادق، ويحمل الراجلان الحراب والسيوف.

وفيما كان الشاب ميغيل -الذي أصيب جسده بجروح بالغة من أثر الحديد، إلّا أنّ جروح روحه كانت أقسى- يندب حظه، اقترب من الفرقة الصغيرة رجلٌ. كان هذا الرجل شابًا حسن الملبس، رغم بساطة مظهره. وكانت لحيته مشذبة بعناية، أحسر الرأس، يرتدي السواد وتلف عنقه ياقة كبيرة. وكان يتدلى من حزامه قرية وسيف. ولمّا بلغ الفرقة، سأل الحراس بلغة مهذبة جدًّا عن الجرائم التي ارتكبها هؤلاء الرجال المصفدون. فأجاب أحد الفارسين أنّه محكوم عليهم بالأشغال الشاقة لدى جلالته الإمبراطور وأنّه ليس لديه شيء آخر ليقوله، ولم يهتم بمعرفة المزيد. غير أنّ الرجل ذا الياقة أصرّ على معرفة ذلك، بكثير

من اللباقة، وبلهجة أدرك من خلالها ميغيل أنه لم يكن إيطاليًا، فأخبره الحارس الآخر أنه من الأفضل أن يسألهم بنفسه، وسيخبرونه إن هم أرادوا ذلك.

اعترف بعضهم بارتكاب جرائم فظيعة، فيما ادعى البعض الآخر البراءة لإثارة الشفقة، وأثار آخرون الضحك لأنهم تصرفوا بحماقة شديدة. غير أن واحد فقط، كان مكبلاً بالسلاسل أكثر من غيره، أثار حالة من الإعجاب العام، بالإضافة إلى الرهبة، لدى سرد مآثره المرعبة، التي قد أروىها لكم في يوم من الأيام. ولمّا جاء الدور على ميغيل، لم يستطع هذا الأخير، وقد طفى عليه الحزن من سوء حظه، إلا أن يتلعثم، فلم يفهم أحد قصته، لكنهم تأثروا بحالة هذا الشاب الفقير، بسبب سحنته الحزينة، وافترضوا أن قصته بائسة جدًا حتى أنه عجز عن أن يخرج من فمه سوى هزات وتمتمات.

في غمرة الاهتمام العام الذي انصب على الشاب ميغيل وهو يبكي، صاح الرجل ذو الياقة: «مهما كانت جرائمهم، فهم أبناء الرب!». وأمسك، في اللحظة ذاتها، بحذاء الفارس الأول، وأطاح به أرضًا، ثم بسرعة أذهلت كل الشهود، سحب سيفه من حزامه وغرسه في صدره. دُهل الحراس من هذا الفعل غير المباغت؛ وتردّدوا في البداية، لكن سرعان ما عادوا إلى رشدهم، فوضع الذي كان على ظهر حصان يده على بندقيته، وأخذ الراجلان رمحيهما، وصوبًا نحو الرجل ذي الياقة؛ الذي كان قد رفع بندقية الأول، وأفرغها في الفارس الذي كان يصوب إليه، فسقط على الأرض وهو يئن. ولم يبق سوى الحارسين المسلحين بالسيوف،

في مواجهة الرجل ذي الياقة الذي لا يمتلك الآن سوى سيفه. ولمّا رأى السجناء فرصة سانحة للتحرر، حاولوا كسر السلسلة التي كانت تقيّدهم. وحين اتضح أنّ هذا مستحيل، ألقي الرجل الذي كان مقيداً بشدة بالسلاسل بنفسه على أقرب حارس واستخدم تلك السلاسل لخنقه. وعلى الفور، فقد الحارس الأخير وعيه. وهكذا، حرّر الجميع من قيودهم.

كان الرجل الذي يدينون له بانصلاح حالهم هذا يدعى دومينيكوس ثيوتوكوبولوس، وكان يونانيًا، وقد قدم نفسه بصفته جنديًا للمسيح. وعرض عليهم أن يرافقه إلى الأرض المسيحية للدفاع عن الإيمان الحقيقي، ومحاربة المغتصب، ليفتدوا بذلك خطاياهم من أجل خلاص أرواحهم. فأجابه الشخص الذي كان قائدهم: «شكرًا، أيها الغريب، على الخدمة التي قدمتها لنا لاسترجاع حريتنا، لكننا عانينا كثيرًا عبودية الحديد حتى نتخلّى عن أنفسنا طواعية لأي شخص آخر، وإن كان ذلك لخدمة السماء. أمّا عن فداء أرواحنا، فأخشى أنّ قائمة جرائمنا طويلة جدًا، حتى أنّ ثلاث حيوات لن تكون كافية لافتدائها. إنّنا لصوص، وسنموت لصوصًا. شرفنا الوحيد هو عدم الخضوع أبدًا لأي قانون أو سلطة، باستثناء قانون باندوليرو، وكما يقول المثل في حرفتنا: في كلمة «لا» حروف أقل من «نعم»». وبهذه الكلمات، انحنى اللص، ورفع البندقية التي ما زالت محمّلة، ووضع سيفين في حزام أحد الحراس، الذي أخذه وسترته وحذاءه أيضًا، وركب أفضل الحصانين، وانطلق على الفور. وانتشر باقي السجناء حول التلال، دون أن ينظروا خلفهم. ولم يبق سوى الشاب سرفانتس،

الذي وجد نفسه فارًا، بمفرده ودون دعم، مطلوبًا الآن في بلد أجنبي، مخلفًا قتيلاً ومصابين بجروح بالغة، فلم يكن أمامه إلا أن يتبع مُخلصه.

بدا اليوناني كأنه يعرف البلد مثل كف يده. وكان يعرف كيف يتفوق على الدوريات، ويتجنب أكثر الطرق ترددًا، وأكثر المدن اكتظاظًا بالسكان. وقد رفض تمامًا العودة على طريق بولونيا، مفضلًا قطع الغابات والنوم في العراء. وهكذا عادوا إلى أنكونا، وأبحروا نحو البندقية، المدينة التي، لو لم يلد العالم مثل أتاهاوالبا، لما وُجد لها مثل: بلا شك، أدت تصارييف القدر إلى ظهور مدينة المكسيك العظيمة، لتخلق لمدينة البندقية العظيمة بذلك مدينةً تنافسها. وتشبه هاتان المدينتان المشهورتان بعضهما في شوارعهما التي تغمرها المياه: وكما أثارت مدينة أوروبا إعجاب العالم القديم، تثير مدينة ما وراء البحار دهشة العالم الجديد.

3. عن أجل شأن شهدته القرون الماضية، ويشهده القرن الحالي، وستشهد القرون القادمة، الذي كان أيضًا أكبر مصيبة تحل بسرفانتس التريس:

«الكنيسة أو البحر، أو البيت الملكي». جلس القبطان الشهير ديبغو دي أوربينا، الذي قاده الحروب والأقذار من غوادالاخارا إلى هذه الحانة في البندقية، يحتسي الشراب بصحبة صديقه اليوناني، وخاطب الشاب سرفانتس الجالس معهما بهذه الكلمات: «ثمّة مثل عندنا في إسبانيا أرى أنه صحيح جدًا، كما هي الحال

مع جميع الأمثال، فهي جمل موجزة، مستمدة من خبرة عملية طويلة. يقول هذا المثل: الكنيسة أو البحر، أو البيت الملكي». ثم صمت، ليفرغ في جوفه جرعة كبيرة من الجعة، وليمنح للشاب الوقت لاستيعاب هذه الحقيقة العميقة. ولكن لما بدا له أنّ هذا الأخير لم يفهم، أخذ على عاتقه أن يشرح له: «من يرغب في أن يكون ذا شأن أو ذا غنى، فإمّا أن يتبع الكنيسة، وإمّا أن يركب البحر، وإمّا يخدم الملك في بيته، فكما يقال: فتات الملك خير من فضل السيد».

اعترض ميغيل على أن ماكسميليان ليس ملكًا بل أرشيدوقًا، فجرّ عليه هذا التوبيخ من اليوناني: «لا تجدف! فجلالته ملك المجر وكرواتيا وبوهيميا، فضلًا عن أن جدّه هو شارلكان، ملك إسبانيا والإمبراطور المقدس. وبمشيئة الرب، سيستعيد الحفيد مُلك جدّه». ثمّ أدى علامة الصليب، وأمر بنصف لتر آخر من الجعة.

ولما بدت على ميغيل أمارات الدهشة من هذه الحمية الكاثوليكية لدى اليوناني، الذي قد يتوقع المرء أن يكون من أتباع إحدى الطوائف البيزنطية أو المحمدية، أخبره دومينيكوس كيف أنّه غادر بلده في سن صغيرة نحو إيطاليا. فتوجه أولاً إلى البندقية حيث درس الرسم، ثمّ إلى روما حيث دخل في خدمة الكاردينال ألكسندر فارنيزي، قبل أن ينضم إلى اليسوعيين، ويصبح جنديًا للمسيح، ويذهب للتجسس والتجنيّد في أراضي العدو في سبيل الرب.

فقد القبطان صبره، ربّما لأنّه سبق أن سمع هذه القصة

مرات عديدة، أو لأنه قدّر أنّ المقام ليس مقامها، فطلب ثلاث كؤوس أخرى من الجعة، وأراد العودة إلى السبب الذي اجتمعوا لأجله، وهو مستقبل الشاب ميغيل: «لا تزال شابًا، سيكون هناك دائمًا وقت لك لتتضم إلى الكنيسة لاحقًا. ثمّ أنّ وضعك بالكاد يتيح لك أن تخوض في التجارة: فبعد نفيك من إسبانيا والربع الخامس، أصبح طريق المغرب مغلقًا الآن في وجهك، ولا يمكنك التجارة مع المكسيك أو تاهوانتينسويو».

«لا يزال أمامك أعظم مهنة مجيدة، إنها مهنة السلاح». وفي محاولة لإقناع الشاب سرفانتس، عقّب اليوناني: «ناهيك بمجد خدمة إلهك بالقتال من أجل آخر المدافعين عن العالم المسيحي، لأنني لست بحاجة إلى أي دليل لأدرك أنك مسيحي قديم، وأن دمك نقي». ولدى سماع هذه الكلمات الجميلة، أفرغ القبطان جعته وضرب دومينيكوس ثيوتوكوبولوس على ظهره ضاحكًا. ومع انفجار الضحك، دون التفكير كثيرًا في كلمات السجين، قال ميغيل نعم.

وهكذا جند ميغيل دي سرفانتس سافيدرا في جيش الأرشيدوق ماكسميليان النمساوي.

في البدء، عرف المغامرة، ولم يكن ليندم على ذلك. فرحل مع كتيبه إلى بولندا والسويد، وإلى مسيرات ألمانيا، وحيثما نشب قتال، وحيثما تنازع الإمبراطور الجديد والقديم -أو بالأحرى أبناؤهما وأحفادهما- لأجل الهيمنة على أوروبا. لقد عرف حياة الحامية، واشتد عوده في القتال. لكن كان من المقرر أن يشارك في الأحداث التي ستحسم مصير العالم القديم في البحر الأبيض المتوسط.

كان شارل كاباك، على غرار والده، حريصًا دائمًا على تجنب الكاثوليك، الذين كانوا الأكثر عددًا في الإمبراطورية، أو على الأقل في إسبانيا وإيطاليا، وبالتالي كان من الأفضل تفادي إغضابهم دون داع، قدر الإمكان. أضف إلى ذلك، لم يفت والده تعميده عند ولادته، وبذلك، كان هو نفسه عضوًا رسميًا في الكنيسة الرومانية، دون أن يتمكن بالطبع من أن يدعي أنه من المسيحيين القدامى، ولا من ذوي الدم النقي الذي استمرت محاكم التفتيش -وقد انحصرت الآن في روما- تشترطه لدى أتباعها المؤمنين. وكان الملوك الكاثوليك في الماضي قد أوكلوا إلى هذه المحاكم مهمة الإشراف والتحقق من نقاء الدم، ومعاقبة الجناة بالنار إن لزم الأمر.

كان الإمبراطور على علم أنّ روما كانت تتآمر ضده، وأن بيوس الخامس كان على اتصال منتظم بالنمسا. ورأى شارل كاباك في الرجل العجوز، رغم ملامح الطيبة البادية عليه، أفعى يجب أن يتوخى منها الحذر. غير أنّ أخبار تحالف المدينة المقدسة مع الأتراك فاجأته، وكان يعتقد أن مثل هذا الأمر ضرب من المستحيل. لكنّ الأخبار التي جاء بها جواسيسه، في روما كما في الباب العالي (وكان هؤلاء الأخيرون يأتون بالأخبار إلى جنوة، وكانوا الأفضل في الإمبراطورية) لم تكن تحتل الشك: فقد أكدوا له ولادة عصابة الكتاب (ويطلق عليها بعض المؤرخين المسيحيين أيضًا اسم عصابة الكتاب المقدس)، التي تشكل تهديدًا رهيبًا للربع الخامس.

وهذا ما دفع شارل كاباك إلى إرسال قواته إلى روما، لكي يتخلى البابا عن هذا التحالف غير المسيحي.

غير أنّ بيوس الخامس لم يفهم الأمر على هذا النحو، فلما لا يقع بين يدي جاره الإمبراطور، فرّ على متن سفينة نقل إلى اليونان، حيث ضمن له سليم الثاني اللجوء والحماية.

قرر شارل كاباك الغاضب أن يعتبر هذا الهرب بمثابة تخلٍّ عن المنصب، فأمر بفصل الأب الأقدس. وعُقد اجتماع مقدس، انتهى بانتخاب ألكسندر أوكتايفيان دي مديتشي، الذي أطلق عليه اسم ليو الحادي عشر. وغني عن القول إنّ هذا البابا الجديد سيكون أكثر تصالحاً مع الإمبراطور.

ومع ذلك، لم يكن لدى بيوس الخامس نية للتخلي عن لقبه أو منصبه، فقد أصدر، بالاتفاق مع سليم، مرسوماً بنقل الكرسي الرسولي إلى أثينا، التي أصبحت الآن روما الجديدة.

وهكذا، وجدت المسيحية نفسها مع اثنين من الباباوات، وهي حالة غير عادية، لكنها لم تكن الوحيدة في التاريخ. وبدأ جلياً أن الأمر كان أكبر من يُحتمل، فاتخذ شارل كاباك هذا الانقسام الجديد ذريعةً للانخراط في حملة صليبية على طريقته، وكان الهدف المعلن منها هو إعادة بيوس الخامس إلى قفص حديدي، لكن الدافع الحقيقي (الذي بالكاد خفيّ) كان توسع الربع الخامس إلى اليونان، فيسيطر بذلك على البحر الأبيض المتوسط، ويطرده الأتراك من أوروبا، ويضع ماكسميليان بين فكي كماشة.

بعد ستة أشهر، تواجه أقوى جيشان عرفهما العالم في خليج ليبانتو، وسط البحر الأبيض المتوسط.

من جهة، كان أسطول قبطان باشا التركي، وأسطول البندقية بقيادة العجوز سيباستيانو فينييه، والبحرية النمساوية الكرواتية، معززة بفرق من المنفيين الإسبان والرومان، بقيادة ماركيز سانتا كروز، ألفارو دي بازان، ومارك أنطونيو كولونا.

على الطرف المقابل، كان أسطول الإنكا الإسباني بقيادة الإنكا خوان مالدونادو، مدعوماً من الأسطول الفرنسي المكسيكي للأميرال كوليفني، معزراً بالأسطول البرتغالي، وقوادس جنوة التابعة للأميرال العبقري جان أندريه دوريا، ابن شقيق الأميرال العظيم، وقوادس أوسكانا لفيليب ستروزي. وقبل كل شيء، القراصنة البربر المرعبون، التابعون لعلج علي باشا الرهيب، المرتد الأجرب.

إجمالاً، كان ثمة ما يقرب من خمسمئة سفينة، بما في ذلك ست من طراز الغالياس، تابعة للبندقية، وهي أشبه بحصون عائمة، مزودة بقوة مدفعية لا مثيل لها.

كانت معركة الإمبراطوريات الأربع على وشك الحدوث، وكان حاضراً فيها ميغيل دي سرفانتس، تحت قيادة ديبغو دي أوربيننا. وكان على فرقة الإسبان المتمردين أن يخضعوا لقيادة البندقية، الأمر الذي لم يحدث دون مشكلات. لكن، لم تكن الرغبة في القتال لدى أي فرقة أخرى أقوى من هؤلاء.

وتفاجأ ميغيل عندما وجد صديقه اليوناني الذي تركه في البندقية قبل عام تقريباً في القادس الذي كان عليه. ما الذي فعله خلال كل ذلك الوقت؟ على أي حال، بدا حريصاً على القتال. في الليلة التي سبقت المعركة، أصيب ميغيل بالحمى. وفي

الصباح، بينما كان لا يزال محمومًا، جاء القبطان أورينو ليخبره أنه سيبقى في الفراش في أثناء الهجوم. لكن الشاب سرفانتس، بعد أن أحب رفقة الجنود، لم يكن لينتهك ميثاق الشرف الذي قطعه على نفسه مقابل أي شيء في العالم. فنهض، والتقط سلاحه، وربط حزامه، وصعد على سطح السفينة مع الآخرين، وشق طريقه إلى أكثر المواقع انكشافًا.

لقد روى جميع المؤرخين هذه المعركة: فأخبروا عن اصطدام السفن العظيم وسط النيران، وعن صرير الخشب وتشققه وتحطمه مثل العظام، وبسالة المقاتلين، وقعة السلاح، وعن الهجمات الشرسة، ورجال البحر الذين قتلوا مثل أسماك التونة، وعن المياه التي تضرجت بالدماء، ورائحة الموت. لم يكن جان أندريه دوريا مثل عمه، ومما لا شك فيه أن طبيعته الخجولة، في لحظة الهجوم الحاسم، كلفته انتصار تحالف الإنكا. وأطلقت سفن البندقية، المنتشرة في البحر الواسع، الآلاف من سهامها القاتلة، المصنوعة من حديد الزهر، وكان أقلها يزن عشرين رطلاً. ورأى كوليغني رأس الشاب كوندي بوربون محمولاً على إحدى كرات المدافع هذه. وأخذت جميع القوادم البرتغالية أو أغرقت. فاضطر مالدونادو إلى التراجع. لكن، ظلّ القرصان الجريء علج علي باشا يتسبب في خسائر مروعة بين صفوف المسلمين والمسيحيين.

نجا قارب سرفانتس، الماركوسا، من الهجمات الفرنسية المكسيكية، لكنه وجد نفسه الآن في طريق علج علي (كمن يهرب من الوحش كاريبيديس ليقع بين يدي سيلا)، حيث شق

القرصان طريقه بمهارة شيطانية للخروج من الفخ الذي نصبه له المسيحيون والأتراك.

كان ملك الجزائر (هكذا كان لقبه) قد أغرق للتو سفينة القبطان المالطي، عندما اعترضت سفينة الماركيسا لتمنع مرورها. لقد كان الاصطدام حتمياً، وكان من المؤكد أن سفينة سرفانتس ستتقسم إلى قسمين، مضحية بنفسها لأجل القبض على علج علي. لكن مهارة ذلك المرتد تجاوزت أغرب الحكايات الخيالية. وبمعجزة قيادة لم يتمكن أي شاهد حتى الآن من شرحها، تمكن من تحريك قادسه إلى جانب لاماركيسا. فاحتك الهيكلان بعضهما ببعض، وسمع صرير طويل.

لذلك، عندما مرت السفينتان جنباً إلى جنب، قفز اليوناني على قادس العدو، والسيف في يد والمسدس في الأخرى.

تبعه عشرات الرجال وهم يهتفون «سانتياغوا» بقلب واثق، وكان سرفانتس واحداً منهم. ولكن لسوء حظ هؤلاء الرجال الشجعان، ابتعد القادس البربري عن القادس الذي اعتدى عليه، مانعاً بذلك الآخرين من الالتحاق بهم، فوجدوا أنفسهم وحيدين بين الأعداء، عاجزين عن المقاومة لقلة عددهم، وقد أصيب أغلبهم بالجراح، ما أجبرهم على الاستسلام.

تعرض الشاب سرفانتس لوابل من الرصاص في أثناء القتال، حتى غمرته الدماء، وأصيب برصاصة في صدره وفي يده.

وكما بلغك، فإن علج علي قد فر بكامل سريه، وهكذا، أصبح الناجون من هذا الهجوم المؤسف أسرى لديه.

وجدت جميع القوادس المتبقية من تحالف الإنكا نفسها في ميناء مسينة، محملة بالجرحى، في حالة يرثى لها. ولم يتبق

شيء سوى جمعها وإغراقها في الميناء، لإنهاء الأمر دفعة واحدة، وإلى الأبد. «أدرك الإنكيون وحلفاؤهم الذين كانوا على متنها أنهم سيحاصرون في الميناء، وقد جهزوا أطقمهم بالكامل وأحذيتهم للفرار سريعاً عن طريق البر، دون انتظار القتال، وقد تملّكهم الخوف الشديد من أسطولنا. لكن السماء أمرت بخلاف ذلك، لا لخطأ من الجنرال الذي كان يرأسنا، أو لإهمال منه، بل لأجل خطايا العالم المسيحي، ولأنّها مشيئة الرب الذي تسلّط علينا دائماً جلادين يؤدّبوننا». هكذا قال اليوناني.

ساهم سوء الأحوال الجوية، والخسائر والأضرار التي لحقت بصفوف المسيحيين، ورغبة التركي الفاترة في مواصلة الحرب غرباً، في حين كان عليه إخماد تمرد التتار في شبه جزيرة القرم، في إضاعة الفرصة بعد ذلك.

وهكذا، فوتت أوروبا فرصة تغيير مصيرها.

عندما استعاد سرفانتس وعيه، بعد عدة أسابيع من الحمى، كان جذعه مغطى بالكامل بالضمادات، وشُلَّت يده اليسرى، وقد فقد الأمل في استعادة استخدامها ذات يوم. ووجد نفسه أسيراً في سجن الجزائر حيث أحضره علج علي مع سجناء آخرين مختلطين، أتراكاً ومسيحيين.

4. استمرار مصائب الشاب سرفانتس

لم يكن ملك الجزائر يرغب في التفریط في سجنائه، فقد كان من عادته أن يبادلهم مقابل فدية. وبلا شك أنقذ هذا حياة سرفانتس، على الرغم من أنّه كان نصف ميت. لكن أمله في

استعادة حرّيته كان ضئيلاً، فهو لم يكن صاحب ثروة، ولا كانت عائلته كذلك، وليس لديه أحد يمكن أن يدفع مقابل تحريره.

كان سرفانتس ورفاقه قد قضوا الرحلة في قاع المركب، لكن اليوناني أخبرهم أن ثمة سجيناً آخر قضى كل الرحلة في جناح علج علي، فلم يره أحد، ولا عرفوا من هو: ولم ينزل معهم في السجن، بل نزل وحده في بيت أحد الموريين، الذي كانت نوافذه تطل على فناء سجنهم. وكما هي الحال عادةً مع نوافذ منازل الموريين، كانت مجرد ثقوب تغطى بستائر سميقة جداً ومشدودة. وفي أحد الأيام، بينما كان سرفانتس واليوناني على شرفة سجنهما، يرسمان على الأرض بالطباشير الذي حصلا عليه لتمضية الوقت، نظرا إلى الأعلى، فشاهدا شخصاً يراقبهما من وراء إحدى النوافذ الصغيرة.

وكلّما انكبا على الرسم في الأيام التي تلت، كانا يشعران بحضور ما خلف النافذة.

ثمّ ذات صباح، جاء الحراس بحثاً عن اليوناني، ولم يعيدوه حتى حلول الليل. ولدى عودته، مضطرباً أيّما اضطراب، قال لسرفانتس: «ربّما تمنحنا العناية الإلهية، يا صديقي، مخرجاً من هذا السجن! تخيل أنّي أخذت إلى المنزل المجاور، حيث تعرفت على الرجل من النافذة. إنّهُ السجين البارز الذي لم نعرف هويته. ولن تصدق أبداً يا ميغيل من هو! إنه الأب الأقدس نفسه، هو المحتجز في هذا المنزل».

كان رجال علج علي قد ذهبوا بالفعل إلى أثينا، في أثناء الاستعدادات للمعركة، واختطفوا بكل سرّية بيوس الخامس

وأخذوه على متن سفينة المرتد.

كان الإنكا سيدفع ثمنًا باهظًا مقابل الحصول على البابا الذي عزله، لكن عالج علي لم يخبر حلفاءه بسجينه اللامع، لأنه كان يعتقد أن فيينا ستدفع مبلغًا أكبر.

تابع اليوناني كلامه قائلاً: «سألني قداسته إن كان صحيحًا أنني كنت تلميذًا لدى تيتيان في البندقية، وحين أجبت أن هذه هي الحقيقة حقًا، وأن المعلم كان دائمًا راضيًا عن عملي، منحني قداسته الشرف لرسم لوحة له. اسمع يا ميغيل، فالمدح لم يأت بعد! لقد وعدني قداسته أنه مقابل خدماتي الجيدة، سيطلب دفع فديتي ويأخذني إلى فيينا معه، ما إن يصل المال. لكن، لا تقلق، لن أتركك وحيدًا ومفلسًا، في هذه الجحيم، بعيدًا عن أرض المسيحية. فقد توسلت لقداسته، وأقسمت له أنني لن أغادر دون رفيقي الذي أدين له بدين (فبعد كل شيء، كنت أنا من قادك إلى هذه المغامرة، وأنا الآن أعتبرك أخي)، فوافق أيضًا على دفع فديتك، وأخذك معنا».

بهذه الكلمات، غمرت الشاب ميغيل السعادة، وقضى الأسابيع التالية في انتظار عودة اليوناني بعد ظهر كل يوم من منزل الموري، ليسأله عن تقدمه في رسم اللوحة. وبعد أن فرغ من العمل، كان الأب الأقدس راضيًا جدًا عنه وسعيًا به، فقد رسمه بهيئة طيبة تخفي صرامة أخلاقه وجفاء قلبه، لكن كان لا يزال عليهما الانتظار، فالمبلغ المطلوب لأجل البابا كان بقدر مكانته، أي إنه كان مبلغًا باهظًا جدًا. ومع ذلك، دفعت فيينا، ووصل الذهب أخيرًا.

واستؤجرت سفينة لنقل الأب الأقدس إلى البندقية، فصعد عليها مع لوحته، لكن من دون اليوناني أو ميغيل.

هل خدع الرسام؟ هل نسيهما؟ هل رفضت فيينا في النهاية إضافة ثمن فديتهما إلى المبلغ الباهظ الذي كان عليها أن تجمعها للبابا؟ هل نقض علج علي باشا عهده؟ ومهما يكن، فقد تركهما قداسته لمصيرهما، دون أن يودع اليوناني الذي حمل لوحته التي بدت يده المرفوعة فيها فجأة كعلامة للوداع.

وهكذا، بفضل الجشع البربري أو بسببه، كان للعالم المسيحي باباوان، أحدهما في روما والآخر في البندقية. لكن هذا لم يغير مصير ميغيل ودومينيكوس التبعس.

ولزيادة يأسهما، قيل لهما إنّه قد بيعا لإسبانيا، إذ لم يدفع أحد فديتهما، ولا أبدى أحد رغبة في ذلك.

عندما قصّا حكايتهما على رفاقهما في الأسر، حذرهما أولئك الذين قدموا من إشبيلية أو غادش من أن تاهوانتينسويو تطلب مزيداً من اليد العاملة لاستغلالها في مناجم الفضة، وكان أعظمها وأزخرها يعرف باسم بوتوسي، حيث كانت الظروف سيئة جداً، وكان العبيد يتلقون معاملة سيئة جداً حتى إنهم كانوا يموتون من الإرهاق بعد بضع سنوات من العمل أو بضعة أشهر. ويقال إن البعض منهم آثّر أن ينهي حياته. وفي كلتا الحالتين، كانت بوتوسي بمثابة حكم بالإعدام.

إن هما أُرسلّا إلى إشبيلية، فربما ستكون لديهما فرصة للبقاء في الأراضي الإسبانية، حيث يمكنهما أن يكونا بمثابة عبيدين

لدى النبلاء الإنكا أندلسيين. ومن ناحية أخرى، إن أُرسلا إلى غادش، فستكون الخطوة النهائية نحو رحلتها الأخيرة. وهذا، نُقلا إلى المجداف في قادس غادر نحو مدينة غادش.

5. عن مغامراتهما البحرية العجيبة والمذهلة، حتى أنه لا يوجد في العالم بأسره بحار أو ملاح عرّض نفسه لمثل هذه المخاطر، كما فعل سرفانتس الشجاع وصديقه اليوناني

كان القدر، المتقلب جداً في مثل هذه الأوقات العصيبة، حين تصطدم الإمبراطوريات وسط ارتطام المجاديف، وتفرق في العواصف، لا يزال يخبئ عديداً من المفاجآت لصديقينا. كان القادس الذي يحمل شحنة التوابل والسجناء يبحر نحو غادش. وكان ميغيل واليوناني يجدفان في صمت، غير مباليين بضربات السياط، مستسلمين للقدر القاتل الذي كان ينتظرهما. لكن عند الاقتراب من الساحل الإسباني، صُدم الطاقم برمته بأصوات رعد بلغت مسامعهم من بعيد، على الرغم من أن السماء كانت صافية تماماً، وكانت الشمس ساطعة فوق رؤوسهم. ومع دخول السفينة البربرية إلى خليج غادش، بدأت مهمة تتصاعد بين المجدفين. «دريك! دريك!» شحب الحراس فجأة وضاعفوا الضرب بالسياط. «الجانب الأيسر! الجانب الأيسر! توجه شمالاً!» صاح القبطان، الذي كان أحد أبناء القرصان الشهير بربروس.

لكن، بدأ المجدفون يتذمرون. وكان ميغيل واليوناني يتشاركان مقعدهما مع قبطان إسباني كان قد أُسر قبلهما بمدة طويلة، ويُدعى هيرونيمو دي ميندوزا. كان نحيفًا على غرار جميع الأسرى، وله لحية بيضاء طويلة، وقد أحرقت الشمس بشرته. ومع ذلك، كانت نظراته لا تزال متقدة، ولمعت في تلك اللحظة ببريق غير عادي. ولما سأله رفيقاه، أخبرهما أنهم قد تعرضوا إلى غارة شنها القرصان الشهير فرانسيس دريك. وأضاف: «البحر مثل غابة هائلة، للجميع حق فيها، ويبحث الإنجليز فيها عن حظهم». فمنذ أن تعرضت إنجلترا للغزو المنسق بين المكسيكيين من الجنوب والإسكتلنديين من الشمال، هربت الملكة إليزابيث مع جميع الرجال الذين تمكنوا من العثور على أي شيء للإبحار به -قادس أو غاليوت أو فرطاقة، أو مركب شراعي، وصولاً إلى أصغر قارب صيد أو حتى قشرة جوز. ولجأت في البداية إلى أيرلندا، ثم إلى أيسلندا. ومن هناك، أعاد القرصان الشهير دريك تشكيل أسطوله لتنظيف البحر الأطلسي، وكثف غاراته على السواحل الفرنسية والبرتغالية والإسبانية. وفي ذلك اليوم، شنّ مرة أخرى هجومًا مباغتًا على بلدة ساحلية، وقد توغل جنوبًا أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، إن أراد القادس الجزائري أن يتحاشى المهاجمين، فعليه أن يعود على الفور إلى البحر. وحسب هيرونيمو دي ميندوزا، الذي كان يعرف الطريقة التي يفكر بها التجار، فإنهم سيحاولون بلا شك الوصول إلى لشبونة، بدلاً من العودة إلى الجزائر، لبيع حمولتهم هناك، حتى لا تكون رحلتهم هذه عبثًا. وبدا احتمال الذهاب إلى لشبونة، وإن

كانت غير مضمونة، أفضل بالنسبة إليهما من غادش التي تفضي بهما إلى مصير بوتوسي.

لكن القدر لم يكن يريد لشبونة أكثر من غادش. فعندما رأى القبطان، ابن بربروس، أن قادسًا إنجليزيًا قد رصدتهم وانحرف عن الميناء لمطاردتهم، ضاعف من تحذيراته؛ وراح الحراس الجزائريون، بعد أن استولى الذعر، يمطرون المجدفين بالسياط. ولكن عندما رأى هؤلاء المجدفون القادس الإنجليزي يقترب منهم، وأنه كان على وشك الوصول إليهم، ألقى جميعهم بالمجاديف وأمسكوا بالقبطان، الذي كان على متن السفينة يصرخ عليهم بالتجديف بسرعة، وأخذوا يمررونه من مقعد إلى مقعد، من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها، وانهالوا عليه بالضرب، حتى أن روحه كانت قد غادرت إلى الجحيم، قبل أن يجتاز الصاري: لقد كانت قسوته تجاههم كبيرة، وكذلك كانت الكراهية التي حملوها له في المقابل.

وهكذا، استقبل المجدفون البحارة الإنجليز، الذين استولوا على القادس، بصيحات «تحيا إنجلترا! يعيش دريك!» وقد كان هذا الاستيلاء مرادفًا للحرية بالنسبة إليهم. ورُفع العلم الإنجليزي على السارية الكبرى وبعد بضعة أيام في الميناء، تزود فيها القادس بالمياه والبسكويت، أبحر صوب أيسلندا، تدفعه إلى الأمام ضربات المجاديف الحيوية، وأغاني السجناء المفرج عنهم من قيودهم.

لكنّ سوء الحظ لم يفارقهم، فقد واجه القادس في أثناء الرحلة سفينةً إسكتلندية. وما إن رآها الحارس من فوق الصاري، حتى

راح يصيح محدّرًا الطاقم: «الأرجل الحمراء!» (وكان هذا ما يطلق على الإسكتلنديين، لأنّهم كانوا يرتدون التنانير ذات المربعات)، وسرعان ما ضاعف المجدفون جهودهم -وجد ميغيل المسكين صعوبة في التجديف بسبب يده اليسرى المشلولة- لكنهم لم يتمكنوا من منع السفينة الإسكتلندية من الوصول إليهم، ونتيجة لمواجهة دامية جديدة، أبان خلالها الشاب سرفانتس، رغم يده الخاملة، عن شجاعة ملحوظة، أسروا مجدّدًا.

وظنّوا بعد ذلك أنّهم سيُنقلون إلى مملكة إسكتلندا، حيث كانت تحكم الملكة ماري، فبدا لهم هذا المصير أقلّ شرًا، لكنهم سرعان ما أصيبوا بخيبة أمل، عندما أخذوا للتجديف نحو الساحل الفرنسي، واندفع القادس نحو مصب نهر واسع جدًّا، يمكن أن يقودهم فقط إلى بوردو.

ومرة أخرى، كان القدر يتلاعب بهم. فقد كان الإسكتلنديون في طريقهم لتسليمهم إلى المكسيكيين، وكان هذا الاحتمال، وفقًا لرفيقهم ميندوزا، أسوأ من بوتوسي.

في الواقع، لم يكن المكسيكيون يبحثون عن اليد العاملة بقدر ما كانوا يبحثون عن اللحم البشري لتقديمه قريانًا من أجل طقوسهم الهمجية.

وعليه، لن يموت ميغيل في منجم للفضة على الجانب الآخر من العالم، ولكن على قمة هرم، في فرنسا، وسيكون آخر ما يراه هو قلبه الممزق وهو لا يزال ينبض.

6. ما يُروى عن كيف سمحت العناية الإلهية لسرفانتس واليوناني بالهرب من الموت وكيف وجدا ملاذًا في برج

يقع ميناء بوردو في ثنية من نهر غارون، على شكل نصف القمر. وهناك، نزل الأسرى تحت أنظار حشد من الغاسكونيين، وهم من أهالي الريف السفهاء، الذين راحوا يضحكون عليهم ويكيلون لهم الشتائم، واصفين إيّاهم بأكياس الديدان، وهي شتيمة لا تُبى بالخير لما سيأتي لاحقًا. وحافظ سرفانتس، في أثناء نزوله من السفينة، على هدوئه وصمته أمام عبارات السخرية هذه، لكن اليوناني لم يكن يمتلك مثل هذا الصبر، فرد على الحراس بالشتائم، لاعتًا جميع المسيحيين الذين يتعاملون مع الوثنيين، وعلى رأسهم الفرنسيون. وسمع أحدهم كلماته، فرفع قربينته، وهمّ أن ينسف بها رأسه، لو لا أن صرخ عليه قبطان مكسيكي أمرًا إيّاه بالتوقف. ولم يجد مندوزا، الذي كان يسير بجانبهما، أي شيء مطمئن. وهمس لهما: «إنّهم يريدون قرابين تقف على قدميها».

كان رصيف بوردو مفعّمًا بالحيوية مثل أرصفة إشبيلية، وكانت دحرجة براميل النبيذ تهز المدينة الساحلية من الصباح إلى المساء، تتخللها صرخات الحمالين، الذين كان الغاسكونيون يدفعونهم برماحهم ليفسحوا لهم الطريق للمرور مع طابور السجناء الطويل.

اجتازوا أسوار المدينة، المحفوفة بأبراج المراقبة، عبر بوابة بورت كايهاو، التي أفضت بهم إلى الساحة التي شيّد

فيها المكسيكيون هرمهم. ولم يستطع الأسرى تجاهل أثر الدم الجاف المتدفق إلى أسفل درج الهرم؛ فتعالت أصوات النحيب بين صفوفهم. واقتيدوا إلى سجن قصر لومبرير مستسلمين، في انتظار مصيرهم: لقد كان لدى براميل النبيذ التي نُقلت العالم الجديد فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة. لكن، على الأقل كانوا يتغذون جيّدًا: فكان يُؤتى لهم بالخبز والحساء صباحًا ومساءً. وذات يوم، أخذ عشرة منهم ليُقدّموا قربانًا، وكان صوت الطبول الذي يصلهم من الميدان يبعث على الرعب. في ذلك اليوم، قُدّمت لجميعهم كأس من النبيذ. لم يكن الشاب ميغيل يخشى الموت، لكنه كان يرغب في أن يموت في الحرب. واستنفد اليوناني قواه في إطلاق سيل من الشتائم واللعنات.

ولكن ذات يوم، جيء لأخذ ضعف عدد الأسر، وتضاعفت أصوات الطبول أيضًا. لكنّ حراسهم تغيّروا الآن. ثمّ، لم يأت أحد في الأسبوع الموالي، وسكتت الطبول. مرت بضعة أيام، وتوقف الحراس عن إحضار الطعام لهم. ولم تعد تصلهم أي ضوضاء من المدينة. وظلّوا في زنزاناتهم المظلمة، يخيم عليهم الصمت. ولمّا بدأ الجوع والعطش ينال منهم، قرروا الخروج مهما كلفهم ذلك، فشحذوا ملاعقهم الحديدية لاستخدامها في نشر خشب الأبواب.

وعندما فُتحت الأقفال أخيرًا، وجدوا القصر مهجورًا، وأسلحة الحراس على الرفوف، والفئران ميتةً بالعشرات. فارتموا على بقايا الطعام على الموائد. واستطاع مندوزا، الذي تعود لطول سجنه على افتكاك مكان له بين الأسرى، أن يستولي على فخذ

دجاجة. بينما وصل سرفانتس واليوناني، الأقل خبرة، بعد فوات الأوان، وقد كانا في عجالة لاستنشاق الهواء الطلق مجدداً، حتى أنّهما سارا على الفئران الميتة المتناثرة على الأرض الحجرية. وما إن خرجا، حتى فقدتا شهيتهما: كانت أعمدة الدخان ترتفع في السماء، وانتشرت رائحة قاتلة في المدينة، وتنافست الغريان على لحم الجيف البشرية الملقاة في الشوارع. كانت الأشباح المحتضرة تنن وهي تُثقل على عربات اليد، وتكدست الجثث في العربات. وحيثما وقعت عينك، كان ثمة فئران ميتة. اعتقد سرفانتس في البداية أنّه كان في مدبغة ضخمة للجحيم. لكن، في الحقيقة، ليس ثمة شك في أنّه الطاعون. لا بدّ من مغادرة المدينة على الفور، هرباً من الموت. فانطلقا نحو الرصيف، حيث عمّت فوضى أكبر: كان الحراس يحاولون منع الناس من الهرب عن طريق البحر. فاقترح ميندوزا، الذي انضم إليهما، أن يلتحقوا بالريف.

مروا بالمدينة المحتضرة، حيث كان الناجون القلائل يحزمون أمتعتهم على عجل على عربات أو على ظهور البغال. أمّا الأكثر حظاً، فكانت لديهم جياذ للمغادرة سريعاً. وبلغ الوضع من السوء حدّاً لم يُعر فيه رقباء البلدة وجنودها أي اهتمام للفارين منّا. لكن الطريق الغربي كان مغلقاً؛ فقد كان الجنود متمركزين في حصن «ها»، يراقبون الطرق، ولا يمكن لأحد الدخول أو الخروج من هذا الجانب.

لذا، عادوا إلى رصيف الميناء. وضرب اليوناني اثنين من الحراس، أو قد يكون قتلهما، فالقصة لا توضح هذا الأمر. ومع

حلول الليل، سباحوا عبر النهر، تاركين وراءهم أنين الموت ورائحة الموتى.

وبدؤوا رحلة تجول طويلة في سهول بوردو. واستقبلتهم كل قرية صادفوها بالضرب بالمذراة، مخافة أن يجلبوا لها المرض، أو بالآهات، إن كان المرض قد تمكن منها، وفي كلتا الحالتين كانوا يغيّرون مسارهم بحذر. ولعدة أيام، كانوا يقتاتون فقط على العنب الذي يقطفونه من الكروم، وسرعان ما أصيبوا بنوبة إسهال، حتى أنه كان من السهل تعقبهم، من كثرة آثار الغائط التي خلفوها.

أخيراً، وصلوا عند قصر، كل الأمارات تشير إلى أن صاحبه قد هجره. ولم يبق هناك سوى عدد قليل من الخدم، الذين رفضوا في البداية إيواءهم. غير أن أحدهم كان يمتلك من الشفقة وطيبة القلب ما يكفي ليوفر لهم الطعام، شريطة أن يغادروا سريعاً. وهكذا تمكنوا من ملء بطونهم وشربوا نخب مضيفهم. لكن ما إن انتهوا، حتى بدأ ميندوزا بالتقيؤ فجأة. فذبّ الذعر بين الخدم، وفروا سريعاً من القصر. وبحلول الفجر، فارق مندوزا الحياة، وأصبح القصر مهجوراً نهائياً. أحرق سرفانتس واليوناني الجثة في الفناء، واستولوا على المبنى.

كان هناك برجان صغيران مهيئان للسكن، يربط بينهما جدار ساتر. وكان أحد البرجين مُجهّزاً بكل ما يلزم للعيش كما في الأديرة: سريرٌ ومعبد صغيرٌ، ووسائل راحة وبضع صناديق من الملابس. فضلاً عن مكتبة جميلة، في الطابق العلوي، تزخر بالكتب. ونُقش على عوارض السقف كتابات باللاتينية واليونانية.

ولأن القصر كان يضم مخزناً ممتلئاً وإسطبلًا، به أتان توفر الحليب، قرر الصديقان أنهما سيكونان هنا أفضل حالاً من أي مكان آخر. وهكذا، استقرا في البرج. وفك اليوناني أحد النقوش التي كانت مكتوبة بلغته على عوارض المكتبة: «بُغيتي أن أعيش على القليل، ولكن دون عناء». أمّا سرفانتس، الذي كان يعرف اللغة اللاتينية، فكك نقشاً آخر: «أينما تأخذني الريح، فأنا ضيف عابر».

7. كيف تعرّف سرفانتس واليوناني على مالك البرج وعاشا معه في وفاق مدة من الزمن

كانا سعيدين في هذا الملاذ، وقرأ عديداً من الكتب. ولاحظ اليوناني اقتباساً آخر محفوراً على عارضة، رغم أنه لم يكن يُحب سفر الجامعة الذي اقتبس منه: «فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه. لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده؟». وهذا ما فعلاه طالما تركا في سلام. بمعنى آخر، في الوقت الذي اجتاح فيه الطاعون المنطقة، أبقى هذا جميع الزوار بعيداً وأجبر سكان القرية المجاورة (أولئك الذين لم يفرّوا من البلاد) على البقاء داخل منازلهم.

لأسابيع عدة، لم يجرؤ أحد على الاقتراب من القصر. وكانت الوحيدة التي تُشاركهم فيه هي الأتان التي كانت تمدّهم بالحليب، وبضع دجاجات توفر لهم البيض، إلى أن ظهر يوماً رجل صغير في المكتبة. ففاجأ سرفانتس الذي كان يقرأ مجلداً لأخبار

أثاهوالبا، واليوناني الذي كان يرسم صورة لصديقه بقطعة من الفحم.

كان اسم الرجل ميشيل دي مونتين⁽¹⁾، وقد عاد إلى منزله. وثب اليوناني على قدميه، مستعداً لقتله، لكن سرفانتس اعتقد أنه من الحكمة أن يشرح له أسباب وجودهما، ولهذا روى له المغامرات التي قادتتهما إلى منزله، دون إغفال أي تفاصيل. كان السيد مونتين رجلاً متوسط القامة، شبه أصلع، بشارب صغير ولحية، وياقة كبيرة. كان يرتدي ثياباً توشي بالثراء، لكنها متسخة من طول الرحلة. ومع ذلك، كانت نظرتة واضحة وطريقته ودية. وخاطبهما بلهجة توسكانية لائقة جداً، تتخللها تعابير لاتينية، لكي لا يجد ضيفاه صعوبة في فهمه، ولم يجد هو صعوبة في ذلك، لأنه كان يتكلم اليونانية والإسبانية على حدّ سواء. كان عضواً في البرلمان ومستشاراً لدى ملك فرنسا تشيمالبوبوكا. وحين بدأ بسرد ألقابه، حاول اليوناني الاستيلاء على سكين فتح الرسائل وطعنه في حلقه، لكن سرفانتس أمسك بذراعه.

عرض السيد دي مونتين، بعد أن قدّر بسرعة بديته جميع صعوبات الموقف، على ضيفيه البقاء سرّاً في برجه، بقدر ما يرغبان. فعلى الرغم من تقديره لعزلته، بدا له أنهما سيشكلان له رفقة ممتعة. ولن يطلع زوجته، التي كانت تعيش في البرج الثاني، ولا خدمه بأمر وجودهما. وسيضع لهما الوسائد والبطانيات في

(1) ميشيل دي مونتين رائد المقالة الحديثة وأحد أهم كتاب عصر النهضة الفرنسية.

مكتبه، ليفترشاها، ويحرص على أن تكون سلة الفاكهة ودورق
النبيد، اللذان وضعهما تحت تصرف ضيفيه، ممتلئين دائماً.
وإذ لم يكن لديهما خيار آخر سوى الركض عبر الحقول مثل
الأرانب البرية التي تلاحقها مجموعة من الكلاب في أراض
معادية - ما لم يعجبهما إطلاقاً - فقد وافقا على عرضه.
كان المكتب مجهزاً بمدفأة - أمّا التي كانت في مكتبته، فقد
أمر بإطفائها خشية أن تلتهم النار كتبه الثمينة - حتى لا ينقص أي
شيء لراحة الصديقين، لا سيما حين تذكر أنه بالكاد مر شهران
منذ أن غادرا مقعد القادس البربري.

وهكذا، كانا يقضيان أيامهما في القراءة والأكل وتجاذب
أطراف الحديث مع مضيفهما. وفي المساء، كانا يتناولان العشاء
قبل النوم، ولم يغادرا البرج قط، إلا في بعض الأحيان، بعد
حلول الظلام، لاستنشاق بعض الهواء النقي، والتمشي في حدائق
القلعة، تحت أنظار البوم.

كان السيد دي مونتين حاذق الذهن وفضولياً وعلى قدر كبير
من المعرفة، ما جعل الحديث معه ممتعاً جداً. ولأنّ الذهن يقوى
بالتواصل مع العقول النشطة السويّة، فقد أحب الشاب سرفانتس
التحدث معه عن الشعر والمسرح، وكل الضروب الأخرى، ليستمتع
باقتباسات منه لقدامى المؤلفين من أمثال فرجيل أو سوفوكليس
أو أرسطو أو هوراس أو سيكستوس إمبيريكوس أو شيشرون، التي
دائماً ما تكون في الصميم.

غير أنّ ما كان يعجبه أكثر هو الاستماع إلى مضيفهما وهو
يجادل اليوناني، فقد كان ينتج عن ذلك محاضرات لا تقل أهمية

عن العمل الإبداعي. ولا ريب في أنّه كان يستمتع بقراءة الكتب التي حصل عليها من المكتبة، لكن دراسة الكتب حركة ثقيلة وضعيفة، لا تساعد حتى على إحماء الذهن، عكس المحاضرة، التي تعلّم وتمرّن في آن واحد.

عاتب اليوناني، بصفته جنديًا للمسيح وعضوًا في مجتمع يسوع، السيد دي مونتين بشدة، دون مراعاة للوضع الذي جعله مدينًا له على تعاونه مع الوثنيين وبالتالي خيانة إخوته في الدين. حاول الشاب سرفانتس أن يثني صديقه عن المضي قدمًا في هذا الطريق، خشية أن يسيء هذا إلى مضيفهما فيرفع عنهما حمايته، لكن جهوده باءت بالفشل. فقد استمر اليوناني في اتهاماته، قائلاً: «ملعون النصاري الذين يتحالفون مع الكفار!». غير أنّه، وبعيدًا عن الإساءة، بدا أن السيد دي مونتين يدعم هذه المعاتبات، بل إنّه سعيد بهذه الألفة القوية والجامعة التي انتقده بها اليوناني. وأضاف للتخفيف من مخاوف الشاب سرفانتس: «لا يزعجني أي اعتقاد، مهما تعارض مع اعتقادي. في وسعي أن أجادله بسلام طوال اليوم، إن كان الجدل منتظمًا». وأردف ضاحكًا: «في الحقيقة، تسرني رفقة من يعاتبونني أكثر من أولئك الذين يهابونني». كان الأمر كما لو أنه بمعارضته، يثير المرء اهتمامه وليس غضبه.

لا بدّ من القول إنّ اليوناني لم يتردد في إرضائه، واتهمه ذات يوم بالكفر، وفي اليوم الذي يليه بالهمجية، وأنه يعمل في خدمة المفتصب الذي حل محل ملك فرنسا -ملك المسيحية-، وأنّه لم يكتفِ بخدمة عبدة الثعبان ذي الريش، بل تواطأ في فعلهم

البغيض في التضحية بالبشر، ولا ريب في أنه قد قبل منصبه بدافع الجبن والجشع، بدل القتال جنباً إلى جنب مع المدافعين عن الإيمان الحقيقي.

لهذا شرع السيد دي مونتين في تذكير اليوناني بأن المسيحي فرانسوا الأول -ملك المسيحية- لم يتردد، في الماضي، في عقد تحالف مع التركي ضد خصمه العظيم، الملك الكاثوليكي شارلكان، وبالتالي من الصعب إلقاء اللوم عليه هو، ميشيل دي مونتين، القاضي المتواضع، لما تسامح معه البابا من مثل هذا الملك العظيم. ولا بدّ من التذكير أنّه في الوقت الذي حُرّم فيه ملك إنجلترا هنري الثامن، والراهب لوثر، كنسياً، مع أنّهما كانا يرغبان فقط في إصلاح الكنيسة، لم تحلّ أي عقوبة قط بصديق سليمان. وعلاوة على ذلك، استتشت الكنيسة أتاهاولبا وكواوتيموك، اللذين عمّدا، وكذلك خلفاءهما. وفي نهاية المطاف، كان قراراً حكيماً، بالنظر إلى التحالف الجديد الذي وحد الآن ماكسميليان وبيوس الخامس وسليم.

إقراراً منه بهذا الاعتراض، غيّر اليوناني من خطته. فاستحضر، بعد أن رأى مدى شغف مضيفه بالمؤلفين اليونانيين، حب الوطن الذي استتهض ذات مرة اللاديمونيين في تيرموبيلاي والأثينيين في ماراثون لمقاومة الغازي الفارسي.

خاطب مونتين، المبتهج، سرفانتس قائلاً: «أنت من قشتالة، أليس كذلك؟ هل تعلم أن شارلكان كان بالكاد يفهم لغتك حين استولى على عرش إسبانيا؟ ولمّ سيكون الأمر مختلفاً ما دام أنّه ولد في غنت وكان ألمانياً؟ وفي ما كان إسبانياً أكثر من الذي

خلفه، أيمكنك أن تخبرني؟» وحين رد سرفانتس بأن لشارلكان أمًا إسبانية على الأقل، لم يفوّت مونتين الفرصة ليرد: «ويا لها من أم! خوانا المجنونة، التي جرّدها من تاجها. يا له من ابن بار! يا لها من أم صالحة!». ثمّ انتقل إلى اليوناني، وتابع: «بالتأكيد، كان شارلكان مسيحيًا، وهو ما لم يمنعه بأي شكل من الأشكال من نهب المدينة المقدسة في عام النعمة 1527 من العصر القديم. ما الذي كان يهم كليمنت السابع، الذي فر كالأرنب إلى قلعة سان أونج، إذا كان المرتزقة الألمان الذين حاولوا ذبحه مسيحيين أم لا؟ ما الذي يهم بيوس الخامس أن رجال سليم وقوادسهم ليسوا مسيحيين، إن وضعهم هذا الأخير تحت تصرفه؟ ما يهمني هو أن هؤلاء الغرباء من وراء البحار قد جلبوا السلام الديني إلى إسبانيا وفرنسا. اعلم، يا دومينيكوس، أنّني شخصيًا نصحت كواوتيموك، السلام لروحه، وشاركت بفعالية في إعلان مرسوم بوردو، الذي حرّر على نموذج إشبيلية، بحيث يمكن للجميع ممارسة الدين الذي يختارونه دون خوف من التعرض للجلد أو النفي أو الشنق أو الحرق على التراب الفرنسي. أليس هذا يا دومينيكوس فعلاً سيُنسب إليّ فضله يوم الحساب؟».

اشتد غضب اليوناني، وقال: «إنّك تتحدث عن حرق المسيحيين، لكن ماذا تقول عندما يفتح أصدقاؤك المكسيكيون صدور أولئك الذين يقتلونهم على أهراماتهم؟ ألا تشعر بأنك متواطئ في هذه الجرائم الهرطقية؟»

كان على مونتين أن يقرّ أنه لا يمكنه الموافقة على مثل هذه الممارسات، لكنه قال إنّه كان يحاول إقناع الملك الشاب تشيمالبوبوكا بإلغائها.

فرد اليوناني حينها بسخرية: «لحسن حظنا، كان الطاعون أكثر إقناعاً منك».

لذلك، لكي يختصر مونتين الجدال، ملأ كأسيهما بالنبيذ، وحثهما بمرح: «في روما، افعل كما يفعل الرومان!»

لكن سرفانتس سأل بفطنة: «وماذا لو أن الرومان هم من سيأتون إليك؟»

ثم عاد كل واحد إلى قراءة كتابه.

في أحد الأيام، عندما كان السيد دي مونتين غائباً، رأى سرفانتس وهو يطل من نافذة البرج، امرأة شابة تطعم الدجاج في فناء القصر. ومع أنه لم يكن قادراً على تمييز ملامحها تماماً، فإن ثيابها وهيئتها كانتا توحيان أنها سيدة ذات مكانة. وقد رأى في طريقة نثرها للحبوب شيئاً من الرفعة.

في وقت لاحق من ظهيرة ذلك اليوم، عاد مونتين حاملاً هدية لليوناني: حامل لوحات وأدوات للرسم. فبعد أن لاحظ رسوماته، أدرك أنه يمتلك الموهبة في ذلك.

لذلك، بدأ اليوناني برسم لوحات لمضيفه وصديقه، ومناظر طبيعية لريف بوردو، شاهدها من خلال النافذة.

تأمل مونتين وسرفانتس، سعيدين ومذهولين في آن واحد، وجهيهما وقد بدوا كما لو كانا قد خرجا من الأرض، وعُجنا بالطين وفُرشا على اللوحة.

لكن هذا لم يُثْنِ الرسام عن مجادلة الشخص الذي يرى أنه مرتد وشريك في البدع الجديدة. وقال له: «عليك أن تتحلى بالشجاعة للبقاء مع المغلوبين».

فضحك مونتين، وقال: «أليس هذا ما أفعله معك؟»

ثم أضاف: «أترى يا دومينيكوس، قريباً سنكون جميعاً أحفاد المنتصرين والمهزومين. إنّ الأبناء البكر، ثمار العالمين، قد أصبحوا بالفعل رجالاً ونساءً اليوم: شيمالبوبوكا صاحب السيادة، ابن كواوتيموك ومارغريت من فرنسا، هو بمثابة آدمنا. أمّا مارغريت دوتشيسيللا، ابنة أتاهاوالبا وماريا من النمسا، فهي حوّاؤنا. وملك نافارا توباك هنري أمارو، ابن جين دي ألبريت ومانكو إنكا، دوق رومانيا إنريكو يوبانكي وإخوته وأخواته الثمانية، أبناء وبنات كاثرين دي مديتشي والجنرال كويزكويز، هم أيضاً فرنسيون أو إيطاليون، بقدر ما هم إنكيون أو مكسيكيون. والرضيع فيليب فيراكوتشا، ابن شارل كاباك ومارغريت دوتشيسيللا، وريث عرش إسبانيا وملك الرومان، هو هابيلنا في العصر الجديد. وسيكون أتاهاوالبا هو إينياسنا⁽¹⁾: هل كان إينياس رومانياً؟ ربّما، بعد كل شيء، نحن أتروسكان الإنكيين والمكسيكيين».

وبينما كان سرفانتس يستمع إلى هذه الكلمات، لمح، من خلال النافذة المطلّة على الحديقة، السيدة التي كان قد رآها من قبل في الفناء. وهذه المرة، كانت تتجول بين نباتات الطماطم وتقليم أشجار الأفوكادو. وممّا لا شك فيه، أنّ السجن وسلسلة المغامرات الطويلة التي قادته إلى هذا البرج قد زادت من حدة خياله. وفعل شبابه الباقي. لقد وقع في حبها.

(1) إينياس: بطل طروادة، وأحد أهم الشخصيات في الميثولوجية الإغريقية والرومانية، ويعد مؤسس روما الأسطوري.

في إحدى الأمسيات، حين خرج لتدخين كوهيبا في الفناء، رآها من خلال نافذة في البرج الثاني، بجانب ضوء الشموع التي كانت تضيء ما بدا أنه جناح السيدة. ولأنّ الظلام كان حالكا ولم يكن يخشى أن يُرى -لولا النهاية المتوهجة للكوهيبا التي كان حريصاً على إخفائها في راحة يده- فقد وقف طويلاً يراقب المرأة الشابة وهي تروح وتجيء. وظلّ هناك حتى بعد مدة طويلة من غرق البرج الظلام، حين كان كل شيء يشير إلى أن السيدة قد نامت. ونام بعد ذلك عند شجرة.

قبيل الفجر، انتاب اليوناني القلق حين استيقظ ووجد نفسه بمفرده، دون أي أثر لرفيقه، فنزل للبحث عنه والتأكد من أنّه لم يكتشف وجوده أي خادم أو قروي. وعثر عليه أسفل الشجرة، عيناه مغمضتان، وهو يغط في النوم. في البداية، هزّه بلطف، لكنّ سرفانتس لم يستيقظ، فقلّبه وهزّه بقوة إلى أن تمدد أخيراً، وألقى نظرة من حوله في ذهول، وقال: «ليسامحك الرب، يا صديقي، فقد سحبتني من أجمل مشهد يمكن لأي إنسان أن يتخيله». حينها صفعه اليوناني ليوقظه من دهشته، واعتقد أنّه من المناسب إعلامه: «أفترض أنّك تتحدث عن مدام دي مونتين، زوجة مضيفنا. اسمها فرانسواز».

عادا إلى المكتب الذي كان بمثابة غرفة نومهما، وأويا إلى الفراش مجدداً في انتظار صياح الديك. لكن سرفانتس لم ينم مرة أخرى، وقضى بقية الوقت قبل شروق الشمس يتخيل سيدة أفكاره، مستلقية على سريرها، ترتدي ثوب النوم فقط.

في اليوم التالي، كان يحلم مرة أخرى، متسمراً خلف نافذة المكتبة المطلّة على الفناء، على أمل رؤية سيدة قلبه (وزوجة مضيفه كذلك)، مستمعاً إلى السيد دي مونتين وهو يحاول إقناع اليوناني أنّه لا ينبغي رفض جميع معتقدات المكسيكيين: «إنّهم يرون، مثلنا تماماً، أنّ الكون قد شارف على نهايته، وعلامة ذلك الخرابُ الذي يزرعه البشر حيثما حلّوا. ومن يستطيع أن ينكر أن في هذا حكمة عظيمة وبُعد نظر من جانبهم، يا دومينيكوس؟» وفقاً لمونتين، لم يكن أقل حيرةً أن يعتقد كل من المكسيكيين والإنكا أنّ العالم مقسم إلى خمسة عصور، وإلى عمر خمس شمس متتالية، أربع منها قد انقضت، التي تضيئهم الآن هي الخامسة. ولم يكن مونتين قد علمه بعد تفاصيل كيفية هلاك هذه الشمس الأخيرة. وتساءل: «لكن على أي حال، من نحن لنقول إنّ معتقداتهم ليست بقيمة معتقداتنا؟»

لدى سماع هذه الكلمات، اختلق اليوناني، الذي كان يدخن كوهيبا، وصاح من هذا التجديف، ورد قائلاً إنّ الإله الحقيقي الوحيد لم يرغب في أن ينتصر الكفار في ليبانتو، فأقام بذلك حجة تفوقه على الآلهة الزائفة الآتية من وراء البحار، بما لا يدع مجالاً للشك. وإن كانت إرادة الإله الوحيد هي امتحان عبيده بإرسال هذه الآفة عبر المحيط، فسيعرف بلا شك كيف يجازي المسيحيين الحقيقيين بالنصر النهائي. «إنّ المسيحيين الحقيقيين لا يختبئون في الشدائد، فهم من يضمن انتصار الإيمان الحقيقي! أين كنت في معركة ليبانتو، يا ميشيل؟ أين كنت خلال الطاعون الذي ضرب مدينتك؟ إذا منحنا الله برحمته النصر، وأنا متأكد

من أنه سيحدث، فلن تكون قد أدت دورك».

ردّ مونتين بشيء من الحزم، دون أن يفقد طيب نفسه: «أراها سيئة عادة السعي لتقوية ديننا ودعمه من سعادة وازدهار مؤسساتنا. إنّ إيمانك، يا دومينيكوس، لديه أسس أخرى كافية، دون أن تجيزها له الأحداث».

لم يستطع اليوناني، وهو يرى مثل هذا التجديف، أن يتركه يمر: «ميشيل، هل تسمع ما تقوله؟ لقد قلت «إيمانك»».

فردّ مونتين: «ما أقصده هو أنّ انتصارك... الانتصار الذي تتحدث عنه كثيرًا (والذي كلفكما غالبًا) كان معركة بحرية رائعة انتصرتم فيها منذ بضعة أشهر على إمبراطورية الإنكا وفرنسا -تحت قيادة القبطان باشا، بالمناسبة- لكنّه أسعدَ الرب أيضًا في أوقات أخرى أن يسمح بانتصارات عظيمة على حسابكم. وأسعد الرب أيضًا أن يُوسر شارلكان في معركة شلمنقة. وأسعدته أيضًا هزيمة فرانسوا الأول أمام كواوتيموك حليف الإنجليز. وأسعد الرب كذلك أن ينتزع الإمبراطورية الرومانية المقدسة من بيت النمسا وينقلها إلى أتاهاوالبا ونسله. وأسعد الرب أن يعلمنا أن للصالح ما يأمله غير خيرات العالم، وأنّ للشرير ما يخشاه غير مصائبه، التي يسيّرهما وفق تدبيره الخفي، ويحرمنا من وسائل الانتفاع بها». ولمّا شعر أنّ حديثه كان ينجرف نحو كلام يستوجب الحرق، بالنسبة إلى الآذان المسيحية، فضّل تغيير الموضوع.

ثمّ سمعه سرفانتس يقتبس من هوراس، ليحذر اليوناني: «ينبغي أن يُعطى للحكيم اسم الأحق، وللعادل اسم الظالم، إذا ما تجاوزا الحد، حتى في سعيهما لتحقيق الفضيلة». وسمعه يدين

الإسراف في الخير، مثل الرامي الذي يفوت هدفه بالتسديد بعيداً. ثم لم يعد يستمع إليهما.

فحين رأى شابنا مدام دي مونتين وهي تعبر الفناء مرة أخرى، فقد كل إحساس بالوقت. وشعر أن أياماً عديدة قد مرت -وقد يكون الأمر كذلك- عندما عاد عقله إلى المحادثة، التي لم يعرف كيف حادت لتصبح عن الزواج.

لم يكن لدى اليوناني كلمات قاسية بما يكفي لإدانة العادة البغيضة لدى حكام ما وراء البحار في اتخاذ أكثر من زوجة، ووافقه مونتين هذه المرة. أي حاكم، باستثناء شارلكان، الذي كان فاضلاً حتى أنه لم يرتبط أمام الرب بسوى زوجته، ولم تكن له عشيقات ولا أطفال غير شرعيين، ما عدا في شبابه المبكر؟ ألم يكن للبوابات أنفسهم محظيات ولقطاء ارتقوا إلى أعلى المراتب؟ لكنه أقرّ أن الزواج من عشيقاته كان خطيئة أمام الرب. وفي هذه اللحظة، استيقظ انتباه سرفانتس تماماً.

شرح مونتين مخاطر الحب في الحياة الزوجية، التي يرى أنها يجب أن تمنع أي إفراط في الفسق، بل على العكس من ذلك، فإنها تستوجب الاعتدال والاعتزان. ولأنّ النهاية الرئيسة للزواج هي التكاثر، فقد زعم أن اللذة الشديدة والشهوانية تضعف السائل المنوي وتمنع الحمل.

وتباهى هو نفسه بأنه لا يزور غرفة زوجته إلا مرة واحدة في الشهر، بهدف تخصيصها لا غير. وإذا ما استسلم لنوبات الحب، فلا شك في أنّ احترام بعضهما بعضاً، والتفاهم الجيد بينهما، سيفسد لا محالة. وقال إن الزواج هو عقد بلا مقابل، ومتعته لا تستحق أن يبذل لأجلها شيء.

وأضاف قائلاً عن النساء: «فلتتعلمن الفحش على يد أخرى على الأقل». فشعر سرفانتس بأن هذا الأمر موجه إليه شخصياً، وفتح آفاقاً خطيرة أمامه.

استمرت الحياة في البرج. انكب مونتین على قراءة الكتب أو إملأ الرسائل على سكرتيرته (في تلك الأحيان، كان سرفانتس واليوناني ينزلان ويختبئان في الكنيسة)، أو الذهاب إلى بورديو لتولي الشؤون العامة التي كانت تحت مسؤوليته. وبينما كان اليوناني يرسم، شرع سرفانتس في الكتابة، لكي يشغل نفسه، مستوحياً من قراءاته من المكتبة. فكتب عديداً من المسرحيات القصيرة، وكان يقرأها لهما في المساء بعد العشاء. وفي الليل، لم يكن يفته قط الخروج لتدخين كوهيبا تحت نوافذ السيدة فرانسواز. وفي بعض الأحيان كان يسمعها تدندن تهويدة، فيسحره صوته، ويتهدد ويزيد توقه إليها أكثر. أمّا اليوناني الذي كان يخشى أن يكتشف خدم القصر صديقه، فقد رفض هذا الجنون ووبّخه بسبب تهوره.

غير أنه في إحدى الأمسيات، لم يستطع الصمود أكثر، فاجتاز الجدار الساتر الذي يربط البرجين.

انشغل بال اليوناني في انتظار صديقه طوال الليل. ولدى عودته، كان في حالة من الإثارة، شعره أشعث وثيابه غير منسقة، يتفوه بكلمات غير مفهومة، حتى أنه أخاف رفيقه. وهنا، لا بدّ أن يشير كاتب هذه القصة إلى أنه لا يستطيع إثبات صحة ما قاله سرفانتس لليوناني، لكنه يلتزم نقل كلماته بأمانة. فقد ادعى الشاب أنه بعد الانتظار ساعة أمام الجدار الساتر، دون أن يعرف

ماذا يفعل، قرر أن ينقر بلطف باب السيدة. ففتحت له، ظلًا منها أنه زوجها، لأنه لم يعتد أحد غيره استخدام هذا المدخل. وعندما رأت الشاب يقف أمامها، أطلقت صرخة مفاجئة، لكن شيئًا ما أخبر سرفانتس أنه ربّما لم يكن غريبًا بالنسبة إليها، وأنها كانت تشاهده لمدة طويلة في الفناء أو عندما كان يراقبها من النافذة. ومهما يكن، فقد توسلت إليه ألا يحدث أي جلبة كي لا يوقظ طفلها النائم. كان القمر بدرًا في تلك الليلة، لذا يمكن للمرء أن يرى كما لو كان في وضح النهار. فسمحت له بالدخول، ربّما تجنبًا للنميمة، أو خوفًا من أن يكشف الأمر أحد، لم يفصل سرفانتس في هذه النقطة.

وفيما كان الشاب يسرد ما حصل، انفعل واضطرب حتّى راح اليوناني يتوسل إليه أن يخفض صوته، فكما يبدو، كان هذا المشهد مذهلاً كما رواه سرفانتس: لزمت مدام دي مونتين الصمت، وبينما كان هو مترددًا، طوّقه معبودته بذراعيها الأبيضين كالثلج، فسرى في جسده دفء العناق. ثمّ اتقدت بداخله فجأة تلك النيران المعتادة. واجتاحه الشعور الملتهب الذي كان يعرفه حتى النخاع، وسرى في عظامه المرتجفة، تمامًا مثلما يضرب البرق، فينفث شق من النار متعرجًا عبر السحب. وأخيرًا، منحها من العناق ما تأمله، واستسلم لسحر النوم الهادئ في حضن حبيبته.

أراد اليوناني، الذي لم يكن قادرًا على فصل الحقيقة عن الخيال في هذه الحكاية المذهلة، أن يجعله يقسم ألا يعود أبدًا إلى الجدار الساتر. لكن سرفانتس، الذي كانت ترتسم على شفّيته ابتسامة رضا، كان قد آوى إلى الفراش ونام مرة أخرى.

مر أسبوع آخر. وقد انقضت خمسة أشهر منذ أن استقرا في برج السيد دي مونتين. كان الشاب ميغيل يود أن يمضي بقية حياته هنا، لكن في صباح أحد الأيام، جاء بعض الرماة ومعهم تفويض بالقبض على سجينين هاربين باسم ميغيل دي سرفانتس سافيدرا ودومينيكوس ثيوتوكوبولوس، وقرعوا الباب. ووجدوا الصديقين لا يزالان مستلقيين في المكتب، فألقوا عليهما القبض. لم يقاوم سرفانتس، الذي كان في حيرة من أمره، لكن اليوناني، الذي رأى نفسه يتعرض لمثل هذه المعاملة السيئة من هؤلاء اللصوص الأوغاد، أمسك بأحد الرماة من عنقه حتى كاد يخنقه لو لم ينقذه رفاقه.

أراد السيد دي مونتين، الذي كان يرتدي ثياب النوم، التدخل، لكن دون جدوى؛ فقد أخذ الهاربين وقيّدا بالسلاسل لإعادتهما إلى بوردو. واستسلم لهم اليوناني وهو يصرخ صراخاً مروّعاً، متهمًا مضيفهما ببيعهما للمكسيكيين، في حين بذل هذا الأخير جهده للتفاهم مع الرماة من خلال تأكيد صفته قاضياً ومستشاراً للأمير، لكن دون جدوى. وهكذا، غادر سرفانتس، وصديقه اليوناني، البرج مقيدتين، أمام ناظري حبيبته، فرانسواز التي لا تُضاهى، وقد هرعت مذعورة، مع جميع خدم القصر، لمعرفة سبب هذه الجلبة. كانت هذه هي المرة الأولى، والأخيرة، التي استطاع فيها النظر إليها من كُتب، في ضوء النهار، لقد كانت شمسًا تحت الشمس.

8. كيف عبر سرفانتس أخيراً بحر المحيط

لم تكن العودة إلى بوردو مشرّفة، إذ أُلقي بهما مرة أخرى في السجن، وتُركا هناك شهراً كاملاً، ينتظران - حسب ظنهما - إعدامهما.

وفي الصباح الذي جاء فيه الحرس لاصطحابهما، تضرعا للرب أن يرحم روحيهما، معتقدين أن ساعتها الأخيرة قد حانت. وكانا في طريقهما لارتقاء الدرجات المؤدية إلى قمة الهرم، حيث كان الجلال ينتظرهما بسكينه ذي المقبض المزين بوجه منحوت، هو وجه الموت. ها هي ذي نهايتهما ونهاية مغامراتهما وحياتهما الأرضية إلى الأبد.

لكن، بدلاً من ذلك، سارا أمام الهرم دون توقف هناك، واقتيدا إلى قصر ترومبيت، مقر السلطة الملكية، وهو نتوء حجري ضخّم بارز على نهر غارون، وطُلب منهما الانتظار في ممر تصطف على جانبيه الدروع الذهبية.

ورفض الحراس، وهم مكسيكيون مسلحون بالحراّب ويرتدون خوذات بريش، الإجابة عن أسئلتهما.

وبعد مدة طويلة، سيّقا إلى غرفة كبيرة، بها ثريا حديدية عملاقة، معلقة فوق رأسيهما على نحو مهدّد.

وقف أمامهما رجلٌ بقبعة سوداء، مديراً ظهره لهما، وتفصله عنهما طاولة من الخشب المصمت، وفوقها أوراق مبعثرة. كان ينظر من النافذة التي تطل على المرفأ. وكانت أرصفة الميناء في هذه الساعة من اليوم (وفي كل ساعة أخرى من اليوم أيضاً)، تضج بالحمالين الذين ينقلون البضائع.

ضرب سرفانتس بمرفقه اليوناني، بعد أن تعرف على لوحات صديقه، متكدسة في زاوية من الغرفة.

ودون أن يستدير، قال الرجل: «يمكنكما أن تشكرا حاميكما الذي جاءني بأعمالكما، والرب الذي منحكما بعض المواهب». كان من السهل أن يدركا من خلال لهجته المستبدة، أنّه شخص مهم. وبالفعل كان كذلك، فقد كان الرجل هو الأميرال دي كوليجني⁽¹⁾.

عندما استدار هذا الأخير، التقط الأوراق من فوق الطاولة، ولوح بها لسرفانتس: «محادثة بين كلاب متكلمة؟ مسلية جدًا. وهذه الكوميديا حول مذبح ذي عجائب... هل قرأتها أيها السيد الرسام؟ لا؟ دعني أخصها لك: قام اثنان من الدجالين الماهرين بإقناع القرويين أن مذبحًا مسحورًا لا يتيح رؤية كنوزه إلا لأولئك المسيحيين القدامى، أصحاب الدم النقي، الذي لم يختلط بأي عرق يهودي أو موري. بالطبع، كل هذا خدعة. لكن ما الذي تعتقد أنّه سيحدث؟ يا للمعجزة! لقد أبدى كل قروي افتتاحه بأعاجيب المذبح المفترضة».

انفجر المستشار الأول لملك فرنسا ضاحكًا، وقال: «أليست هذه القصة الخرافية مسلية؟»

لم يجرؤ أي منهما على الإجابة. وراح الأميرال يداعب بأصابعه السلسلة الذهبية السمكية المتدلّية من عنقه: «إنّ الدول الكبرى الواقعة وراء البحار -الإمبراطورية المكسيكية التي وضعت مملكة

(1) غاسبارد دي كوليجني أميرال ورجل دولة فرنسي، وأحد الزعماء البروتستانتين.

فرنسا تحت حمايتها، وكذلك إمبراطورية الإنكا الغريبة، حليفتها المخلصة، وإمبراطورية الربع الخامس وإمبراطوريتنا- تبحث عن رسامين ورجال أدب، لأن الرسم والكتابة مجالان ليس بإمكان هذه الإمبراطوريات الهائلة، مهما كانت قوتها، أن تدعي التفوق فيهما على العالم القديم بعد. أنتما لا تفتقران تمامًا إلى المواهب، ولهذا السبب ستغادران على متن السفينة التالية، كجزء من الجزية التي تدين بها فرنسا للمكسيك. وهناك ستباعان لمن يدفع أكثر، ويمكنكما شراء حريتكما، بمشيئة الرب». ثم، بإشارة، أمر الحراس بأخذهما. وفي اليوم الموالي كانا على متن سفينة محملة بالنبيذ والرجال متجهة نحو كوبا.

قال بحار إسباني عجوز ذات مرة لسرفانتس: «إذا كنت تريد أن تتعلم الصلاة، فاذهب إلى البحر». ومع ذلك، فإن رحلته، التي لم تدم أكثر من قمرين، قد مرّت مثل الحلم.

على متن السفينة، التقى صديقانا صانع أحذية من جنيف، وتاجرًا مكسيكيًا، ويهوديًا من سالونيك، وصانع تبغ هايتي، وأميرة من شولولا كانت تسافر مع حيوان جاغوار.

وقد أشاد الجميع بجمال بلاد ما وراء البحار، ومساحاتها الشاسعة، وطبيعتها السخية، وثرواتها الوفيرة، وإمكانات تكوين ثروة هناك، طالما أن المرء لا يسعى لإثارة أي فتنة في البلد. ثم في صباح أحد الأيام، لاحت في الأفق باراكوا، عاصمة كوبا ومفترق الطرق بين عالمين. كانت مدينة القصور والنخيل والأكواخ ترايبية، حيث تتحدث الكلاب إلى الببغاوات، وحيث يأتي التجار الأغنياء لبيع عبيدهم ونبيذهم، وحيث تعبق الشوارع

برائحة الفواكه المجهولة، وحيث يركب نبلاء التاينو خيولهم التشيلية الأصيلة، عراً، لا يرتدون سوى عقود من اللؤلؤ الأحمر مكونة من ثمانية عشر صنفاً وأساور من حراشف التماسيح، وحيث يبدو المتسولون أنفسهم كملوك خلعوا من عروشهم، مع أقنعة ومرايا من النحاس والذهب على رؤوسهم، وحيث تستعرض المتاجر بضائعها الوافرة. وحين يحل المساء، تخرج السحالي ذات الأعراف للتجول في الشوارع بحثاً عن الصناديق لإفراغها. لقد كان الناس هنا يتحدثون بجميع اللغات، ويحبون جميع النساء، ويصلون لجميع الآلهة.

توترت أعصاب اليوناني، المنبهر بهذا السيل من الألوان، من هذا الهيجان البابلي، واجتاحته نوبة ضحك هستيرية. رفع سرفانتس عينيه إلى السماء متناسياً مستقبله المجهول، وقد أدهشته النسور ذات الرؤوس الحمراء التي كانت تحلق فوق رأسه، وظن أن كل هذه المخلوقات كانت أشباحاً من هذه الجزيرة المسحورة، وأنه كان هو كذلك بلا شك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

- 13 الجزء الأول: ساغا فريديس ابنة إريك الأحمر
- 37 الجزء الثاني: مذكرات كريستوف كولومبوس (شذرات)
- 73 الجزء الثالث: أخبار أتاهاوالبا
- 335 الجزء الرابع: مغامرات سرفانتس

في هذه الرواية، يعيد لوران بيني صياغة التاريخ وقلب العوالم، ليصبح العالم القديم جديداً والجديد قديماً، وينطلق من فكرة جوهرية مفادها «ماذا لو لم يحتل الإسبان أمريكا الجنوبية، وبدلاً من ذلك حدث العكس، واحتل شعب الإنكا أوروبا». ويمنحنا رؤية لوجه العالم بناءً على هذه الفرضية. لكن قبل الانسياق وراء هذه الفرضية، لا بد من منح شعب الإنكا الوسائل التي تتيح لهم احتلال العالم: «الحديد، والخيول، والمناعة الذاتية».

تعد رواية حضارات رواية عميقة تحث على التفكير وإعادة النظر في التاريخ العالمي، ويظهر فيها بيني الأكاديمي براعته الإبداعية على مستوى عالٍ.. ويث فيها واقعية أكثر، فيحاكي رسائل توماس مور وإيراسموس، وأطروحات لوثر الخمس والتسعين؛ وكل ذلك بما يتناسب وصياغته الجديدة للتاريخ. ويكرس كثيراً من الرواية للتفكير في الدين والإصلاح الزراعي وبالطبع الغزو. ويبدو بيني جريئاً في قدرته على طرح مثل هذا التساؤل، ومعرفة إلى أي مدى يمكن اختزال «الغزو» وما يترتب عنه، فيمنح نفسه حرية التخيل، والزج بشخصيات تاريخية في أحداث روايته «المتخيلة»، ويولي كلاً منها دوراً في عالم جديد مختلف الملامح والقوى والصراعات.